موسوعة

الإسلام كما يتجلى في كتاب الله

الكتاب التاسع



تأليف
علي باپير

الطبعة الثانية
مزيدة ومنقحة

دار الحكمة
لندن



هذا الكتاب

هو الكتاب التاسع من موسوعة: (الإسلام كما يتجلى في كتاب الله) والتي يسر الله الوهاب الكريم لي تأليفها في ضوء أنوار كتابه المبارك، في غضون (22) شهراً، التي أمضيتها في سجن: (كروبر الأمريكي) من: (2003/7/10 الى: 2005/4/28م).

وتحدّثنا في هذا الكتاب عن موضوع: الإهتداء بهدى الله تعالى، أو الإلتزامُ الفردي بشريعة الله، والذي يتجسّدُ «حسْبَما أرى» في خمسة جوانب أساسية:

- عبادة الله تبارك وتعالى، والتقوى منه.
- الإستمساكُ بكتاب الله الكريم.
- الإتّباعُ لرسول الله.
- تزكية النّفس.
- التحلّي بالفضائل، ونقصد به: التعامل مع الله تعالى بالخصال الحميدة، ومع النّاس بخُلُق حسن.

ورتّبنا هذه الجوانب الخمسة في كتابنا هذا، ترتيباً مُتدرجاً: إذْ يُثمرُ الإهتداءُ بهدي الله تعالى، أوّلَ ما يُثمِرُ: العبادَةَ والتقوى في الإنسان، ثم التعبُّد لله والتقوى منه، يدفعان بالإنسان، الى الإستمساك بكتاب الله واتّباع سنة رسول الله.

ثم تَنْتُجُ عن كل هذا: تزكيةُ النّفس.

وأخيراً تتمخّضُ تزكية النفس، عن التحلّي بالفضائل، في مجال التعامل مع الخالق «سبحانه وتعالى» والخلق.



DAR ALHIKMA
Publishing and Distribution

88 Chalton Street
London NW1 1HJ
Tel: 44 (0) 20 7383 4037

Email: hikma_uk@yahoo.co.uk
Web site: www.hikma.co.uk

ISBN
978 1 78481 086 3



موسوعة

الاسلام كما يتجلى
في كتاب الله

الكتاب التاسع

الإهتداء
بهدي
الله تعالى
أو
الإلتزام
بشريعة
الله تعالى

تأليف
علي باپير

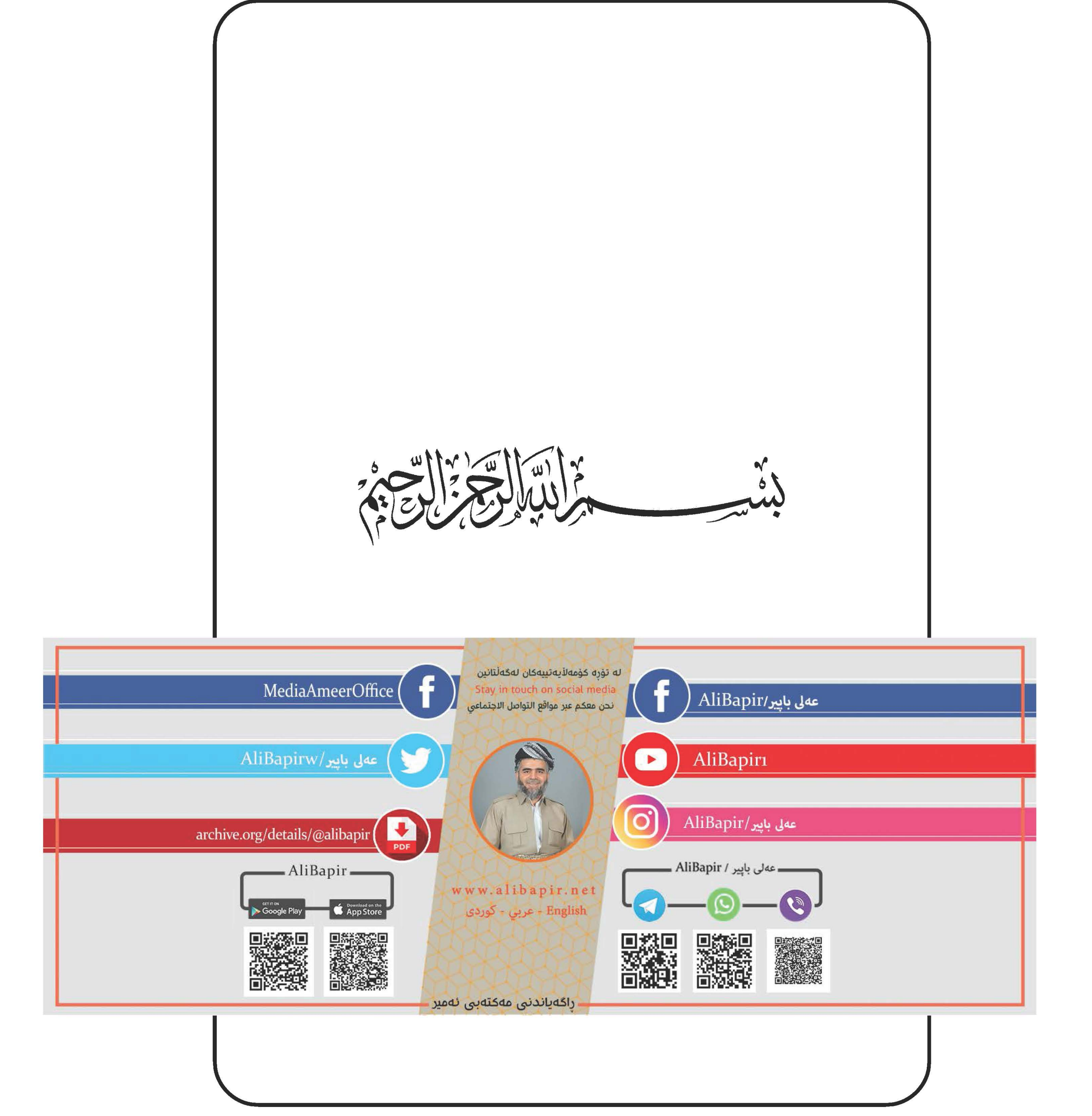
دار الحكمة



الإهتداء بهُدى الله تعالى،

أو

الإلتزام الفردي بشريعة الله تعالى


بسم الله الرحمن الرحيم
له تۆڕە کۆمەڵایەتییەکان لەگەڵتانین
Stay in touch on social media
نحن معكم عبر مواقع التواصل الاجتماعي
MediaAmeerOffice
AliBapir/عەلی باپیر
AliBapirw/عەلی باپیر
AliBapir1
archive.org/details/@alibapir
PDF
AliBapir/عەلی باپیر
AliBapir
Google Play
App Store
www.alibapir.net
کوردی - عربي - English
AliBapir / عەلی باپیر
ڕاگەیاندنی مەکتەبی ئەمیر

موسوعة: الإسلام كما يتجلى في كتاب الله

الكتاب التاسع

الإهتداء بهُدى الله تعالى
أو
الإلتزام الفردي بشريعة الله تعالى

تأليف
علي باپير

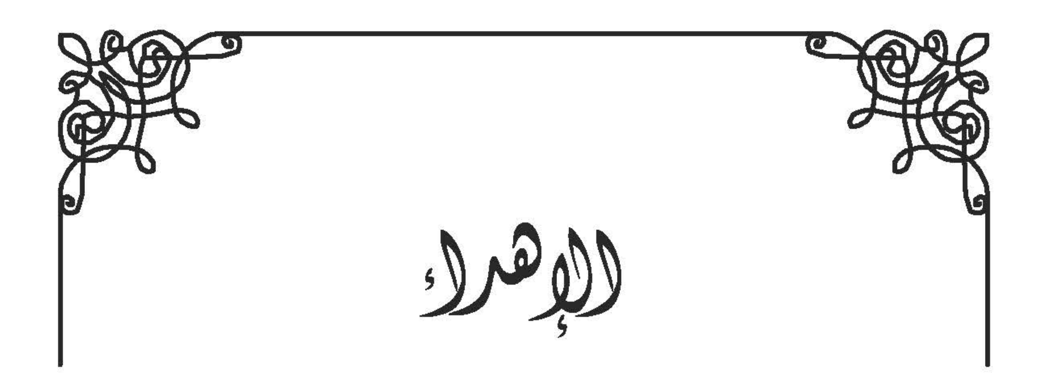
حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الثانية
١٤٤٠هـ ـ ٢٠١٩م





بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨﴾
[الجاثية].
لە تۆڕە کۆمەڵایەتییەکان لەگەڵتانین
Stay in touch on social media
نحن معكم عبر مواقع التواصل الاجتماعي
MediaAmeerOffice
AliBapir/عەلی باپیر
AliBapirw/عەلی باپیر
AliBapir1
archive.org/details/@alibapir
PDF
AliBapir/عەلی باپیر
AliBapir
Google Play
App Store
AliBapir / عەلی باپیر
www.alibapir.net
English - عربي - کوردی
ڕاگەیاندنی مەکتەبی ئەمیر


لە تۆڕە کۆمەڵایەتییەکان لەگەڵتانین
Stay in touch on social media
نحن معكم عبر مواقع التواصل الاجتماعي
MediaAmeerOffice
AliBapir/عەلی باپیر
AliBapirw/عەلی باپیر
AliBapirı
archive.org/details/@alibapir
AliBapir/عەلی باپیر
AliBapir
AliBapir / عەلی باپیر
www.alibapir.net
کوردی - عربي - English
ڕاگەیاندنی مەکتەبی ئەمیر



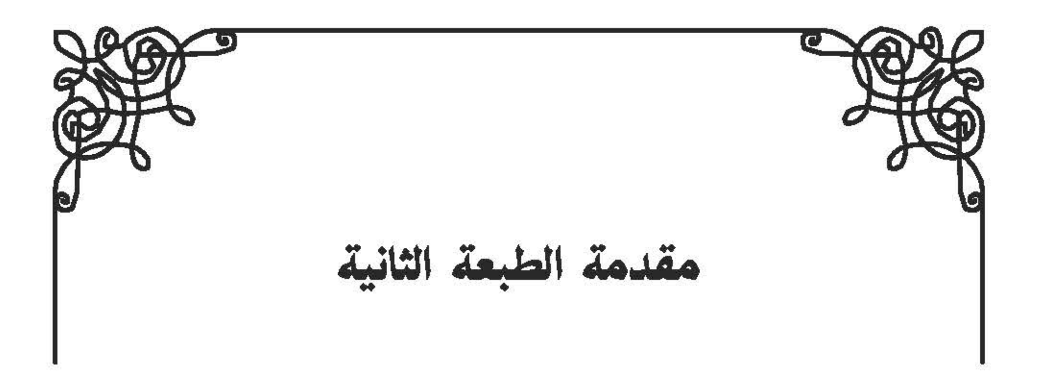
الإهداء

إِلى الذين يبتغون فقه الإسلام بعمقٍ وشمولٍ، كما في كتاب الله العظيم وسنة رسوله الكريم ﷺ لِيُجَسِّدوه في حياتهم الشخصية والأُسرية والعامة، ابتغاء رضوان الله سبحانه وتعالى.





www.alibapir.net



مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله العلي القدير، والصلاة والسلام على النبيِّ البشير النذير، محمد وآله الكرام «صحباً وأزواجاً وقرابة» الذين هم جديرون بكل تكريم وتقدير.

وبعد، فقد ارتأينا إعادة طبع هذه الموسوعة: (الإسلام كما يتجلى في كتاب الله)، بعد طبعتها الأولى، **(في صورة كتاب في ثمانية مجلدات «موزَّع على أربعة أبواب وسبعة عشر فصلا»)** في سلسلة كتب مجموعها: اثنا عشر كتاباً، كل كتاب يحتوي على موضوع رئيسي.

والنتيجة:

أصبح توزيع مواضيع الكتاب على الكتب الإثني عشر، في هذه الموسوعة، على الشكل الثاني:

الباب الأول بفصوله الأربعة، والمعنون: **(الإسلام: معرفة صحيحة بالخالق والخلق)** بقي كما هو، وصار:

الكتاب الأول، في هذه الموسوعة.

الباب الثاني بفصوله الستة، والمعنون: **(الإسلام: إيمانٌ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر)** تحول في هذه الموسوعة الى سبعة كتب، كل كتاب مُخصَّصٌ لبحث موضوع أساس من مواضيع الإيمان، وذلك بعد أن جعلنا الفصل الخامس: **(الإيمان برسل الله وأنبيائه)** فصلين، ففي الأول

منهما: بحثنا موضوع الإيمان بالرسل والأنبياء «عليهم السلام» عموماً، وفي الثاني منهما، تحدَّثنا عن خاتم النبيين «ﷺ» خصوصاً، فصار الباب الثاني في هذه الموسوعة بهذه الصورة:

الكتاب الثاني: مفهوم الإيمان والكفر...

الكتاب الثالث: الإيمان بالله سبحانه وتعالى...

الكتاب الرابع: الإيمان بالملائكة وبالجن.

الكتاب الخامس: الإيمان بكتب الله سبحانه وتعالى.

الكتاب السادس: الإيمان برسل الله وأنبيائه «عليهم الصلاة والسلام».

الكتاب السابع: خاتم النبيين محمد «ﷺ».

الكتاب الثامن: الإيمان باليوم الآخر.

الباب الثالث بفصوله الثلاثة، والمعنون: **(الإسلام: إلتزام جادّ بالشريعة على الصعيدين الفردي والجماعي)** تحول في هذه الموسوعة الى ثلاثة كتب، بالصورة التالية:

الكتاب التاسع: الإهتداء بهدى الله تعالى..

الكتاب العاشر: إلتزامُ المجتمع بدين الله تعالى...

الكتاب الحادي عشر: تطبيق المجتمع للشريعة...

الباب الرابع بفصوله الأربعة، والمعنون: **(الإسلام: نظرة سديدة تجاه الناس، وتعاملٌ صحيح معهم)** بقي على حالِهِ، وصار الكتاب الثاني عشر والأخير، في هذه الموسوعة بالشكل التالي:

الكتاب الثاني عشر: الإسلام: نظرة سديدة تجاه الناس، وتعامل صحيح معهم.

وقد راعينا في ترتيب هذه الكتب الإثني عشر «في ثلاثة وستين (٦٣) فصلاً» التسلسل المنطقي المتدرج: إذ الإنسان يحتاج قبل كل شيءٍ، المعرفة

بهذا الوجود، ومحلِّهِ هو في إعرابهِ، فجاء الكتاب الأول: بعنوان: (الإسلام: معرفةٌ صحيحة بالخالق والخلق) تلبيةً لهذا المطلبِ الفطريِّ الأول.

ثم تُنتِجُ المعرفةُ الصحيحة بالوجود ـ طالما التزم صاحِبُها بِمُقْتَضِياتها المنطقية ـ الإيمان بالله الخالق الرب المالك، وببقية أركان الإيمان الخمسة، فجاءت الكتب: الثاني والثالث والرابع والخامس والسادس والسابع والثامن، تحت عنوان: (الإسلام: إيمانٌ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر) تحقيقاً لهذا المقصد العظيم، وبياناً لتلك الحقائق الكبرى، التي وضعَ فيها كتاب الله الحكيم النقاط على الحروف، ولم يُحْوِجْنا في إدراكها الى غيره.

ثم ان الإيمان الصحيح بالله تبارك وتعالى، وببقيَّةِ أركان الإيمان الأساسية، يدفعنا الى الإلتزام بدين الله القيِّم، وشريعته الحكيمة، فجاءت الكتب: التاسع والعاشر والحادي عشر، تحت العنوان العام: (الإسلام: إلتزامٌ جادٌّ بالشريعة على صعيدي: الفرد والمجتمع) لتوضيح كيفية التزام الفرد والمجتمع والدولة بالشريعة السّمحاء، بهذه العناوين الثلاثة، للكتب الثلاثة:

١ ـ الإهتداء بهدى الله، أو الإلتزام الفردي بشريعة الله تعالى.

٢ ـ إظهار الدين الحق، أو التزام المجتمع بدين الله تعالى: فكراً وشعائرُ وآداباً.

٣ ـ تطبيق المجتمع للشريعة في جميع جوانب الحياة.

ثم أخيراً: بعد المعرفة الصحيحة، والإيمان الراسخ، والإلتزام الجاد بالشريعة، بإمكان المسلمين: أفراداً ومجتمعاً ودولةً، أن يتعاملوا مع الناس: المسلمين وغير المسلمين، على أساس النظرة السَّديدة إليهم، بصورة شرعية صحيحة، بعيدة عن الإفراط والتفريط، وبيان هذا الموضوع تكفَّل به الكتاب الأخير، الثاني عشر، والذي جاء بعنوان: (الإسلام نظرة سديدة تجاه الناس، وتعاملٌ صحيح معهم).

وفي المُحَصِّلة: بيّنا من خلال هذه الموسوعة ـ بِكُتُبِها الإثني عشر ـ تجلية كتاب الله الحكيم المبارك للإسلام:

١ ـ معرفةً صحيحة بالوجود (الخالق والخلق).

٢ ـ وإيماناً بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

٣ ـ والتزاماً بالشريعة على المستويات الثلاثة: فرداً ومجتمعاً ودولةً.

٤ ـ وتعاملاً صحيحاً مع الناس، على أساس نظرة سديدة تجاههم.

والهدف الأساس من هذا العمل «طبع هذه الموسوعة بهذه الصورة» هو تسهيل وصولها إلى القراء، وتيسير حصولهم على أي موضوع يرغبون فيه منها.

وجديرٌ بالذكر أننا أبقينا «في هذه الطبعة» على أكثرية الإحالات إلى الأبواب والفصول والمباحث والمطالب، على حالها الذي كانت عليها في الطبعة الأولى.

وكذلك أبقينا على كل من هذه العناوين الثلاثة:

١ ـ (مُبَشِّرة حول هذا الكتاب) بعد أن غيَّرناهُ إلى: (مُبَشِّرةٌ حول هذه الموسوعة).

٢ ـ (قصة تأليف هذا الكتاب) بعد أن غيَّرناهُ إلى: **(قصّة تأليف هذه الموسوعة)** والتي شرحنا فيها: كيفية الشروع بهذا العمل في السجن الأمريكي، وكيفية انبثاق خطة الكتاب في خطوطها العريضة، من آيات سورة الفاتحة السبع المباركات، وسبب تقسيمه إلى أربعة أبواب في سبعة عشر فصلاً.

٣ ـ (المقدمة) والتي غيَّرناها إلى: (مقدمة هذه الموسوعة).

وسَنُدْرِجُها في بداية الكتاب الأول من هذه الموسوعة، لارتباطها بكل الكتب الأخرى المضمَّنة لها، ونكتفي بهذا عن تكرار إدراجها في بداية الكتب الأخرى.

وأسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يَسُدَّ بهذا الجهد، ثغراتٍ كثيرة، في فهم كثير من المسلمين لدينهم القيِّم، وأرجو أن تَحْظى هذه الموسوعة، بأن تكون لبنة في بناء صرح المشروع الإسلامي المنشود.

وآمل ألّا يَبْخَل عليَّ القرّاء الكرام، بملاحظاتهم وتنبيهاتهم، وأشكرهم جزيل الشكر مسبقاً.

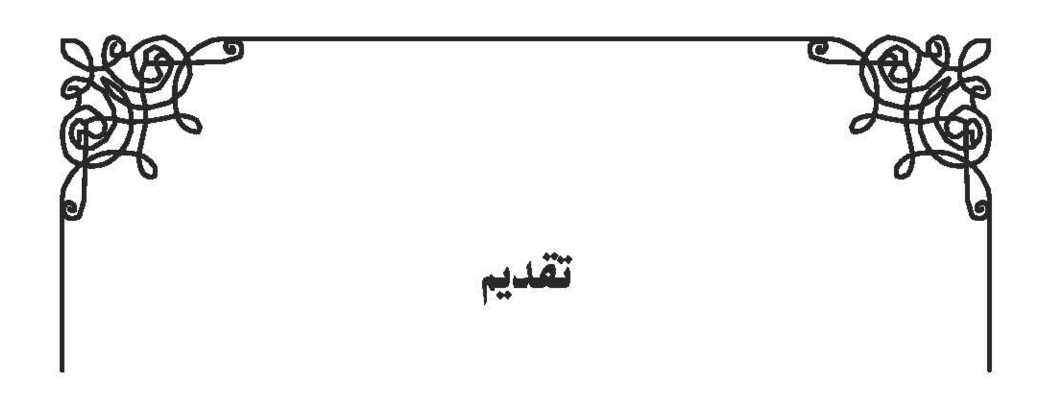
سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

١/ رجب ١٤٣٦ هـ
٢٠ نيسان ٢٠١٥م
أربيل /كوردستان ـ العراق

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑




لە تۆڕە کۆمەڵایەتییەکان لەگەڵتانین
Stay in touch on social media
نحن معكم عبر مواقع التواصل الاجتماعي
MediaAmeerOffice
AliBapir/عەلی باپیر
AliBapirw/عەلی باپیر
AliBapir1
archive.org/details/@alibapir
AliBapir/عەلی باپیر
AliBapir
Google Play
App Store
AliBapir / عەلی باپیر
www.alibapir.net
کوردی - عربي - English
ڕاگەیاندنی مەکتەبی ئەمیر



تقديم

إن الْحَمْدَ للهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شرُورِ أَنفُسِنَا، وَمِنْ سَيئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْده اللهُ فَلاَ مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضلِلْ فَلاَ هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَن لاَ إلَهَ إلاّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسولُهُ.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب].

أمّا بَعْدُ: فإن أَصْدَقَ الحَديث كَلامُ الله، وَخَيْرَ الْهَدِي هدْيُ مُحَمَّد، وَشرَّ الأُمُورِ مُحْدَثاتُها، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَة، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ، وَكُل ضَلاَلَةٍ فِي النَّار.

موضوع هذا الكتاب التاسع من هذه الموسوعة، هو توضيح تمثُّلِ الفَرْد المسلم للإسلام والتزامه به.

ومن الجليّ أن تطبيق الإنسان لدين الله تعالى، في ذات نفسه وتجسيده له:

معرفةً بالخالق والخلق.

وإيماناً بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

وعبادةً لله تعالى وتقوىً منه.

وتزكيةً لنفسه، بتخلِيتها من الرذائل، وتَحْليتها بالفضائل.

وتحسيناً لِخُلُقِهِ، للتمكن من التعامل مع الله تعالى، ومع الخلق جميعاً، بالأخلاق الفاضلة، والآداب الرفيعة.

وكل ذلك ابتغاء رضوان الله والفوز بجناته.

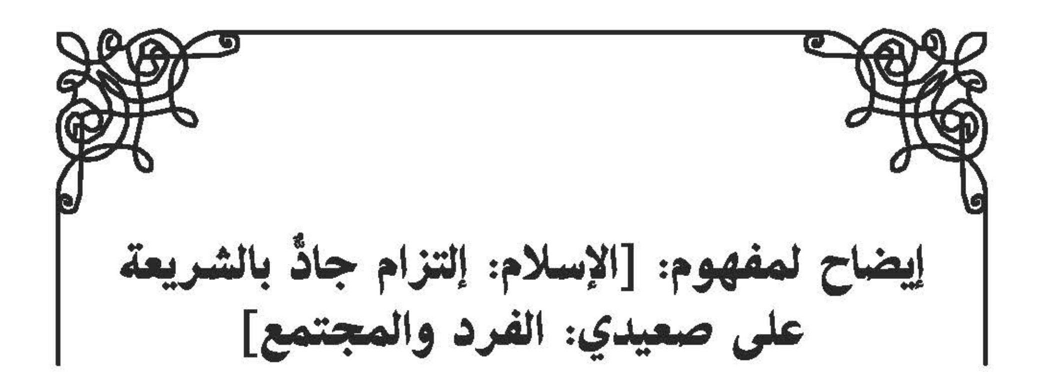
أجل إن تطبيق الإنسان كفرد لدين الله القيِّم في ذات نفسه، هو الخطوة الأولى والحجر الأساس للإلتزام بدين الله، وشريعته الشاملة الكاملة، ن قِبَلِ المجتمع في جميع نواحي الحياة، اذ المجتمع كبناءٍ، وأفراده كَلَبِناته التي يتشكل منها.

وأرجو أن أكون قد وفِّقْتُ «في هذا الكتاب» لتجلية كيفية تمثُّل الفرد المسلم للإسلام، وبلورة كيفية التزامه بشريعة الله، التي أنزلها الله، تبارك وتعالى على قلب نبيِّه الخاتم، لتكون نوراً وبركة وخيراً للإنسان، ولِيسَعْدَ بها في الإنسان في الدنيا والآخرة، سعادة حقيقيةً، لاشقاءَ بعدها، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣].

ومِصْداقُ قول الله المبارك هذا، متجلٍّ كالشمس في كبد السماء، في حياة الأفراد والمجتمعات التي اهتدت بهدى الله تعالى، والتزمت بدين الله الحق، طوال تأريخ البشر على الكرة الأرضية عامة، وعلى مدار تأريخ الأمة الإسلامية خاصة.

اذاً: باب نيل السعادة أمامنا مفتوحٌ، وطريق الوصول اليها ممهَّدٌ، فعلينا بَذْلُ الجهدِ والحركة، وعلى الله الكريم التوفيق والبركة.

٥/رجب/١٤٣٦هـ
٢٤/نيسان/٢٠١٥م
أربيل



إيضاح لمفهوم: [الإسلام: إلتزام جادٌّ بالشريعة على صعيدي: الفرد والمجتمع]

الإسلام (دين الله القيم وصراطه المستقيم)، كما أنه معرفة صحيحة بالوجود (الخالق سبحانه وتعالى والخلق)، وإيمان حقيقي بالله جل وعلا وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، كذلك هو التزام جادٌّ وتمسّك قوي بشريعة الله، وتطبيق لأحكامها على كلا صعيدي الفرد والمجتمع.

وإنما قلنا: (على كلا صعيدي الفرد والمجتمع)، لأن أحكام الشريعة الحكيمة على تنوّعها وكثرتها، والتي لم تُغْفِلْ شيئاً في حياة الإنسان، نوعان رئيسيّان:

النوع الأول: يتعلّق بالإنسان كفرد، ويجب عليه تنفيذه والقيام به، كواجبات عَيْنيّة ومسؤوليات شخصية.

والنوع الثاني: يتعلق بالجماعة والمجتمع، ولا يتأتى للأفراد القيام به وتنفيذه، بل يتوقف القيام به، على جماعة ومجتمع متعاون ومتكاتف.

وقد عبّر ـ حسب فهمي ـ كتاب الله الحكيم عن النوع الأول بـ(الهُدى) وعن الثاني بـ(دين الحق)، كما قال جلَّ شأنه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾ [الفتح]، وقد تكرّرت هذه الآية المباركة في كلٍّ مِنْ سورة التوبة، الآية (٣٣) وسورة الصف، الآية (٩) أيضاً، مع اختلاف يسير في آخرها: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾.

نعم إن دين الله الحق وشريعته الحكيمة، هداية للفرد يهتدي بها في

ذاته، ودين ومنهج يدين به المجتمع كله، وينتهجه في حياته بِكافَّة جوانبها.

وربّ سائل يسألنا هنا:

أوليس الإيمان الذي خُصِّص له الباب الثاني (أي الكتب: الثاني... إلى الثامن)، يستلزم الإلتزام بالشريعة في كلا مجالي الفرد والمجتمع، إذاً فَلِمَ تخصيص هذا الباب الثالث (أي الكتب: التاسع والعاشر والحادي عشر) لتوضيح كيفية الإلتزام بالشريعة؟!

وللإجابة عن هذا السؤال، لا بدَّ من توضيح مسألة مهمة وهي:

بعد التدبّر في كتاب الله واستقراء آياته، ندرك بجلاء أن هناك كلمات أو مصطلحات أساسية مثل: الإسلام، الإيمان، الهدى، دين الحق، الشريعة، التقوى... عندما ترد كل منها في سياق لوحدها، يتَّسع معناها ومفهومها إلى أن يشمل كُل الذي جاء به رسول الله (محمد) ﷺ من الله تعالى، ولكن عندما تَرِدُ ـ أي الكلمات المذكورة ـ في سياق واحد، مقترنة بعضها ببعض، ففي هذه الحالة: تَسْتَقِلُّ كل منها بمفهوم خاص، تتميَّز به وتنفرد عن غيرها، لنوضِّح المقصود في ثلاثة بنود:

أولاً: كلمة الإيمان، إذا انفردت في السياق القرآني، شَمِل معناها واتَّسع مفهومها حتى يسع الدين كله، ولكن إذا اقترنت بكلمة الإسلام في سياقٍ، فحينئذٍ يتخصَّص معناها بالجانب العقدي المُسْتَتر من الدين، وكلمة الإسلام يتخصص معناها بالجانب العملي الظاهري منه، وهاك مثالين من الآيات المباركة لكل من الحالتين:

١ ـ قال سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾ [البقرة].

والشاهد هو قوله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ...﴾ [البقرة]، حيث جعل سبحانه وتعالى (الإيمان)

مساوياً للإهتداء، وجعل نقيضه (التولي)، إذاً فالمقصود بكلمة (آمنوا) هنا هو الأخذ بدين الله كاملاً وبحذافيره، لأن الإهتداء المطلق لا يحصل الا بهذا، كما أن (التولي) هو رفض دين الله الحق والإعراض عنه، كُلاً أو جُزءاً.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [الزخرف]، لكن هنا وقد وَرَدَ لَفظا (الإيمان) و(الإسلام) في سياق واحد، فلكل منهما مفهومُهُ الخاص، حيث كلمة الإيمان تتخصص بالجانب القلبي الإعتقادي، والإسلام بالجانب العملي الظاهري.

ثانياً: كذلك كلمتا (الهُدى) و(دين الحق)، فكلّ منهما عند انفرادهما تشتمل على الإسلام كلّه، ولكن في حالة اقترانهما يتخصص معنى (الهُدى) بالجانب الفردي، و(دين الحق) بالجانب الإجتماعي، وإذا كان كل من الآيات الثلاث [أي الآيات: ٣٣ من (التوبة) و٢٨ من (الفتح) و٩ من (الصف)] التي أوردناها في أول هذا الـ(إيضاح)، مثالاً لحالة الإقتران، فَلْنُمَثِّلْ بآيات لحالة الإنفراد:

١ ـ قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ [البقرة]، كما نرى، جعل سبحانه وتعالى (هُدَى الله) في مقابل (مِلَّتَهُمْ)، ومعلوم أن المِلَّة هي الدين والطريقة المتَّبعة[1]، والمقصود بها هنا دين اليهود والنصارى، وواضح أن دين الله الحق (الإسلام) بكامله، هو الذي يقابل دين اليهود والنصارى، إذاً: فالمقصود بـ(هُدَى الله) هنا هو دين الله بحذافيره.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ﴾ [المائدة]، والمقصود بالإهتداء هنا أيضاً، هو الإلتزام بالإسلام كله بكل جوانبه وعلى كلِّ الأصعدة، وذلك لأن الذي يحفظ المسلمين من كيد أعدائهم ويجعلهم أعزة وظافرين، هو التزامهم بدين الله فرداً ومجتمعاً.

---

(١) مختار الصحاح، ص٥٤٧، لفظ: م ل ه.

٣ ـ وقال تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة]، والمقصود بـ(دِينَ ٱلْحَقِّ) هنا هو الإسلام كله، إذ إنما يُطالَبُ الكفارُ بالدخول فيه كلّه وليس بعضه!

ثالثاً: وكذلك كلمتا (التقوى) و(الشريعة)، فالتقوى هو الإلتزام بالإسلام كله، لأنّ الإنسان لا يكون في وقاية من عذاب الله وسخطه، إلّا إذا التزم دينه التزاماً كاملاً، والشريعة هي دين الله بكافة جوانبه، وهذه آيات كأمثلة من آيات كثيرة في هذا المجال، لتوضيح المعنى المقصود:

١ ـ قال جلّ شأنه: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ [طه]، أي ان النتيجة الحسنة في الدنيا والأخرى، إنما يَحُوزها أهل التقوى، ومعلوم أن التقوى ـ بكامل معناه ـ لا يُحَصِّلُه إلّا الذي يلتزم بدين الله وشريعته أمراً ونهياً، لأن التقوى هو جعل الإنسان نفسه في وقاية وحفظ من سخط الله وعذابه وعقابه، ولا يتسنّى هذا إلّا لمن نفّذ أوامر الله تعالى كلّها، واجتنب نواهيه جميعاً ـ حسب طاقته ووسعه ـ وذلك لأنّ مَنْ يضيع فرضاً أو يرتكب محظوراً، لا يعتبر متقياً، بالمعنى الكامل للتقوى.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [هود]، وهذه الآية كسابقتها أيضاً.

٣ ـ وقال جلّ وعلا: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الجاثية]، ومن الواضح أن المقصود بالشريعة، ليس سوى دين الله الحق (الإسلام).

٤ ـ وقال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴿٤٨﴾﴾ [المائدة]، أي: إن الله تعالى جعل لكل من الأمم اليهودية والنصرانية والإسلامية، شرعة يتبعونها ومنهجاً ينتهجونه، والمقصود بالشريعة والمنهاج، هو ما أوحي

إلى كل من (موسى) و(عيسى) و(محمد) عليهم الصلاة والسَّلام، من دين الله الحق، والذي هو شيء واحد في أصوله، وإِن اختلف كل عن الآخر في تفاصيله وفروعه.

إذن:

لا شك أن الإيمان يتضمَّن الإلتزام بالشريعة ويَسْتَلْزِمُهُ، إذ العمل أثر من آثار الإيمان وثمرة من ثماره، كما فصَّلنا القول في هذا الموضوع في الفصل الأول من الباب الثاني (أي: الكتاب الثاني من هذه الموسوعة)، ولكن كما أن كتاب الله الحكيم، قلَّما ذكر الإيمان إلّا وأتْبَعه بذكر العمل الصالح، مع أن العملِ الصالح، لازم للإيمان ملازمة الظل للشيء، ولكن تأكيداً عليه وتجلية لِأَهميَّتِهِ، وإشعاراً بأن الإيمان لا يكون له وجود حقيقي وفعلي من دون العمل الصالح، فكذلك نحن سِرْنا على نفس المِنْوال.

والآن بعد هذا التوضيح، فلنشرع بالدخول في صلب الموضوع:

لَخَّص سبحانه وتعالى في الآيات الثلاث من (الفتح) و(التوبة) و(الصف) حكمته من إرسال خاتم أنبيائه محمد صلى الله عليه وآله وسلَّم، في أمرين:

١ ـ تبليغ الهدى.

٢ ـ إِظهار الدين الحق.

وذلك لأن قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ﴾، يعني أن الله تعالى أرسل رسوله محمداً ﷺ ومهمته الأولى تبليغُ هداه إلى الناس، إذ البلاغ ـ أي تبليغ هداية الله للناس ـ هو الوظيفة الأساسية للأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، كما قال تعالى: ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾ [النحل].

وأما قوله تعالى: ﴿...وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ...﴾ [الصف]، [الفتح]، [التوبة]، فيعني أن الله تعالى أرسل رسوله الأعظم ونبيه الخاتم، ومهمّته الثانية هي: إظهار دين الله الحق على كل الأديان والمناهج،

وانما يظهر ويُهَيْمِنُ دينُ الله الحق على كل المناهج والأنظمة الأخرى، والتي تعتبر كلّها جاهلية، إذا ما طُبِّق على الأرض ونُفِّذَتْ أحكامه في واقع حياة مجتمع إسلامي.

وقد حقق رسول الله ﷺ هذين المقصدين العظيمين الَّلذَيْنِ لَخَّص الله فيهما حكمة إرساله على أفضل وجه، إذْ بلّغ وأوصل هدى الله إلى الناس بصفتهم أفراداً، ثم طبق شريعة الله وأظهر دينه في واقع مجتمع إسلامي فريد، ذلك المجتمع الذي قد اهتدى أفراده من قبل في خاصة أنفسهم، وتنوّروا بأنوار كتاب الله الكريم، وتشبّعوا بحقائقه، وربّاهم رسول الله ﷺ على عينه تربية، وزكاهم تزكية، تليق به، حتى صاروا بحقٍ مجسِّدين للإيمان والعبادة والتقوى والتزكية والخلق الحسن والأدب الرفيع.

ومما لا شك فيه أن أمته مكلّفة أيضاً بما كُلّف به هو، من تبليغ الهدى وتطبيق الشريعة، إذن لِنُسَلِّطَ الضوء على كل من ذينك المقصدين، كي نتبيّن طريقنا في التأسّي برسول الله ﷺ، في كيفية الإِلتزام بشريعة الله على كلا صعيدي الفرد والمجتمع.

وبما أن المجتمع المسلم في مسيرة التزامه بشريعة الله تعالى وتطبيقه إياها، يَمُرُّ بمرحلتين:

١ - مرحلة ما قبل التمكين وامتلاك السلطة.

٢ - مرحلة التمكين وامتلاك السلطة (أي: السلطات التشريعية، والتنفيذية والقضائية)، لِذا بَحَثْنا موضوع: «إظهار دين الله الحق، أو تطبيق شريعة الله» في ثلاثة كتب، حيث نَتحدَّث في الأول منها (وهو التاسع حسب ترتيبها في هذه الموسوعة) عن: الإِهتداء بهدى الله تعالى، أو الإِلتزام الفردي بشريعة الله.

وفي الثاني (وهو العاشر في هذه الموسوعة) نتحدث عن: (إلتزام المجتمع بدين الله تعالى، فكراً وشعائر آداباً)

وفي الثالث (وهو الحادي عشر في هذه الموسوعة) نتَحدَّث عن: «تطبيق المجتمع لشريعة الله في جميع جوانب الحياة».

وبالتالي ستكون عناوين الكتب الثلاثة المحتوية على هذا الموضوع، بهذا الشكل:

الكتاب التاسع: الإهتداء بهُدى الله تعالى، أو الإلتزام الفردي بشريعة الله.

الكتاب العاشر: إظهار دين الله الحق، أو إلتزام المجتمع بدين الله تبارك وتعالى، فكراً وشعائر وآداباً.

الكتاب الحادي عشر: إظهار دين الله الحق، أو تطبيق المجتمع لشريعة الله تعالى في جميع نواحي الحياة.

وذلك لأن تَمثُّلَ الإسلام كدين وشريعة، وتجسيده، يتم على ثلاث مستويات، وبثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: إلتزامُ الفرد بالإسلام:

والذي يتجسَّدُ في:

١) العبادة لله والتقوى منه.

٢) الاستمساك بكتاب الله ﷻ.

٣) الاتّباع لرسول الله ﷺ.

٤) تزكية النفس.

٥) التحلي بالفضائل في مجالي التعامل مع الله ومع الناس.

المرحلة الثانية: التزام المجتمع بالإسلام قبل التمكين وامتلاك السلطة:

والذي يتجسَّد في:

١) استقاء التصورات والقيم والموازين، من معين دين الله الحق وحده.

٢) إقامة شعائر الدين كما حدَّدتها السنَّة النبوية وتجنب الانحراف.

٣) التعامل وفق الآداب الشرعية، والقيام بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

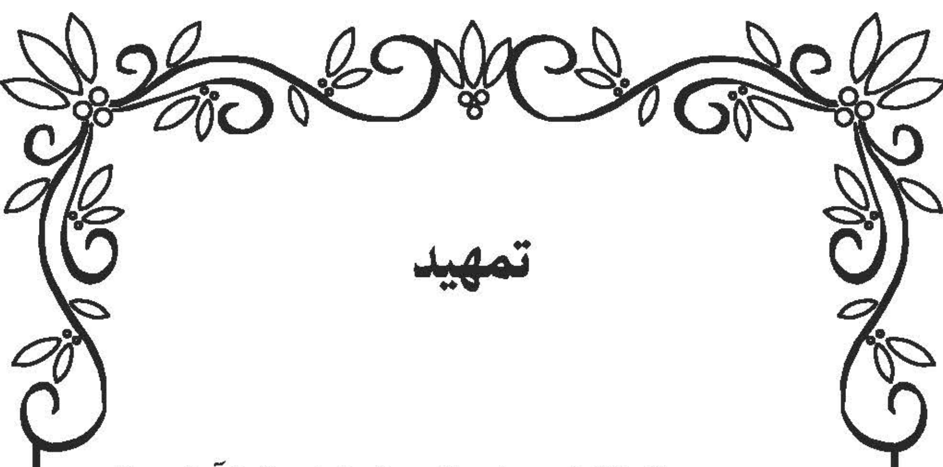
المرحلة الثالثة: التزام المجتمع بالإسلام بعد التمكين وامتلاك السلطة:

والذي يتجسد في:

تطبيق المجتمع للشريعة في كافة جوانب الحياة الإِجتماعية والسياسية والإِقتصادية والجهادية والإعلامية والدعوية والقضائية... إلخ.







تمهيد

يحتوي هذا الكتاب على الفصول الخمسة الآتية، والتي خصّص كل منها لتوضيح مظهرٍ من المظاهرِ الخمسة للإِهتداء بهداية الله جل وعزَّ على الصّعيد الفردي لكلٍّ مسلم:

الفصل الأول: عبادة الله تبارك وتعالى والتقوى منه.

الفصل الثاني: الإِستمساك بكتاب الله الكريم.

الفصل الثالث: الإِتباع لرسول الله ﷺ.

الفصل الرابع: تزكية النفس.

الفصل الخامس: التحلِّي بالفضائل، أو: التعامل مع الله تعالى بالخصال الكريمة، ومع الناس بخلق حسن.






لە تۆڕە کۆمەڵایەتییەکان لەگەڵتانین
Stay in touch on social media
نحن معكم عبر مواقع التواصل الاجتماعي
MediaAmeerOffice
AliBapir/عەلی باپیر
AliBapirw/عەلی باپیر
AliBapirı
archive.org/details/@alibapir
AliBapir/عەلی باپیر
AliBapir
Google Play
App Store
www.alibapir.net
کوردی - عربي - English
AliBapir / عەلی باپیر
ڕاگەباندنی مەکتەبی ئەمیر



الفصل الأول

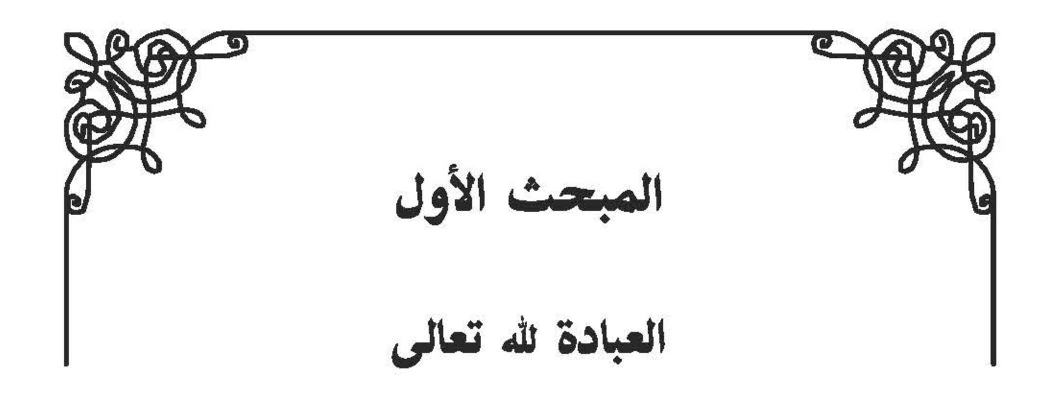
عبادة الله تبارك وتعالى والتقوى منه


لە تۆڕە کۆمەڵایەتییەکان لەگەڵتانین
Stay in touch on social media
نحن معكم عبر مواقع التواصل الاجتماعي
MediaAmeerOffice
AliBapir/عەلی باپیر
AliBapirw/عەلی باپیر
AliBapir1
archive.org/details/@alibapir
AliBapir/عەلی باپیر
AliBapir
Google Play
App Store
www.alibapir.net
English - عربي - کوردی
AliBapir / عەلی باپیر
ڕاگەیاندنی مەکتەبی ئەمیر



إن العبادة لله تعالى هي المظهر الأول والأهم والأعظم لاهتداء الإنسان بهُدى الله والتزامه بشريعته، وسنوضح ـ بإذن الله ـ هذا الفصل الأول في مبحثين، ففي الأولِ منهما، نتحدث عن العبادة لله، وفي الثاني نتحدث عن التقوى الذي هو الثمرة الجامعة للعبادة وخلاصتها ونتيجتها.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑



المبحث الأول

العبادة لله تعالى

ويَشْتَمِل هذا المبحث على المطالب الأربعة الآتية:

١. معنى العبادة لله ومفهومها.
٢. مجالات العبادة لله تعالى.
٣. كيفية العبادة لله العظيم.
٤. ثمرة العبادة لله الكريم.

١ ـ معنى العبادة لله ومفهومها:

بما أنَّنا قد فصَّلنا القول في العبادة ومفهومها في الفصل الثاني، من الباب الثاني (أي الكتاب الثالث من هذه الموسوعة) نكتفي هنا باختصار ما قلناه هناك ونقول:

ان كلمة العبادة تعني في أصلها اللغوي: الخضوع والإنقياد والإستسلام والتذلّل[١]، يقال: (طريق معبَّد) إذا وطئته الأقدام وكثر المشي عليه، وتتابع السَّير عليه، فأصبح سهلاً ولم تَبْق فيه نتوءات تُعرقل السير والمشي عليه، وكذلك يقال (بَعيرٌ مُعَبَّد) إذا ذُلِّل بالقطران بعدما طُلِيَ به، وقد استعمل كلام الله الحكيم كلمة العبادة بنفس معناها اللغوي، إذا

(١) مختار الصَّحاح، ص٣٦١، لفظ: ع ب د.

استعملت لغير الله تعالى، ومضيفاً إليها مفهومين آخرين، في حالة استعمالها لله تبارك وتعالى وهما:

أ) الإطلاق والشمول، بحيث يكون الخضوع لله تاماً وشاملاً لظاهر الإنسان وباطنه، وحياته الخاصَّة والعامة.

ب) الإختيار والرغبة، بحيث يخضع الإنسان لله، ويستسلم لشريعته باختياره وإرادته رغبة ورهبة.

إذن:

معنى العبادة لله تعالى، هو الخضوع والإنقياد والإستسلام التام له، قلباً وقالباً، طوعاً واختياراً، وحباً وشوقاً، ورغبة ورهبة، عِرفاناً بحقه خالقاً ورباً ومالكاً، وشكراً لنعمه، وطمعاً في رحمته وفضله، وخوفاً من عدله وعقابه.

وبناءً عليه:

فالعابد لله تبارك وتعالى، هو الشخص الذي ينقاد ويستسلم لله تعالى عقلاً وقلباً وباطناً وظاهراً، ويلتزم بشريعته أمراً ونهياً، وكل ذلك بدافع نيل رضوانه وفضله، وتجنّب سخطه وعقابه.

٢ ـ مجالات العبادة لله تعالى:

بناءً على التوضيح الذي قدّمناه في المطلب الأول، حول تعريف العبادة لله تعالى، وتحديد معْناها ومفهومها، ينبغي أن نقول: إن مجالات العبادة لله تعالى، هي كل مجالات حياة الإنسان الشخصية والجماعية، من دون استثناءٍ ولو جزئية صغيرة منها، وذلك لأن الخضوع الإختياري المطلق التام الشامل لله تعالى، لا يتحقق إلّا إذا استسلم الإنسان لله تعالى قلباً وقالباً، أو باطناً وظاهراً لربّه تبارك وتعالى، وذلك من خلال الإلتزام بدينه وتطبيق شريعته في جميع مجالات الحياة الخاصة الشخصية والعامة الجماعية، وقبل أن أذكر تلك المجالات، أَوَدُّ أن أشير إلى ثلاث آيات

مباركات من كتاب الله الحكيم ـ كأمثلة فقط ـ للتدليل على صحة ما قلناهُ، من شمول وسعة مفهوم العبادة لكل جوانب حياة الإنسان ومجالاتها:

أ) قال الله تعالى على لسان عباده المصلين، بعد تعهّدهم لَهُ بأن يعبدوه وحده ويستعينوا به وحده: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة]، وواضح أن المقصود بـ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ هو دين الله الحق وشريعته الحكيمة، وهذا يعني: أن العبادة لله والإستعانة به وحده، لا تتم إلّا إذا التزم الإنسان دين الله وشريعته التزاماً تاماً في كافة جوانب حياته الشخصية والجماعية، وذلك لأن وعد عباد الله إيّاهُ، وتعهُّدَهم لَهُ، ألّا يعبدوا إلّا إياه، وألّا يستعينوا بسواه، ثم طلبهم منه هدايته إياهم إلى دينه وشريعته، يدل بوضوح على أن إفراد الله تعالى بالعبادة والإستعانة به ـ والإستعانة بالله جزء من عبادته، ولكنَّها خصّت بالذكر تجلية لأهميتها ـ لا يتسنّى إلّا لمن سلك صراطه المستقيم ومنهجه القويم.

ب) وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات]، وهنا إذ يحصر الله الحكيم حكمته في خلقه الإنس والجن، في قيامهم بعبادة الله لا غير، يفهم منه بوضوح تام، أن وظيفة الجنّ والإنس في حياتهم الدنيوية هذه، ليست سوى العبادة لله تعالى، وهذا يعني أن الجنّ والإنس إذا ما أرادوا نيل رضا الله تبارك وتعالى، وتحاشي سخطه وعقابه، يجبُ عليهم أن يَصْرِفوا أوقات حياتهم فقط وفقط في عبادة الله، وجلي أنه لو كان مفهوم العبادة لله ـ كما هو شائع عند كثير من الناس ـ منحصراً في أداء الشعائر من صلاة وصيام وذكر وحج... إلخ، للزمهم ـ أي الجن والإنس ـ ألّا ينشغلوا إلا بهذه الأعمال!، وبما أن هذا محال ولا يمكن إمرار حياة سوية بهذه الطريقة، إذن: ليس هذا هو المقصود لله تعالى، وبالتالي ليس مفهوم العبادة منحصراً في تلك الأعمال، بل المقصود بالعبادة لله تعالى ـ كما ذكرنا سابقاً ـ هو الخضوع التام الكامل لله تعالى،

المتمثل في التزام شريعته، ومعلوم أن بوسع الجن والإنس، أن يصرفوا كل ساعات أعمارهم، ويبذلوا قصارى جهودهم في الإلتزام بدين الله وتطبيق شريعته، من دون أن يبقى لديهم في أعمارهم فراغ من الوقت ـ ولو لحظة ـ وذلك لِشمول دين الله القيم وصراطه المستقيم لكل نواحي حياتهم الفردية والأسرية والإجتماعية، ولمراعاته لكل حاجاتهم الروحية والجسدية والدنيوية والأخروية!

ج) وقال جلّ شأنه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢﴾ [الزمر]، ويفهم من هذه الآية المباركة أيضاً ما قلناه سابقاً، بالنسبة لشمول معنى العبادة وسعة مفهومها، وذلك لأن الله تعالى بعد أن ذكر مخاطباً رسول الله ﷺ أنه أنزل إليه كتابه بالحق، أَمَرَهُ بالعبادة الخالصة لله، والتي لا تشوبها شائبة أي خضوع وطاعة لغير الله ولغير كتاب الله، ومعنى هذا:

أولاً: أن موضوع الكتاب (القرآن) وغرضه كلّه، هو العبادة لله تعالى بإخلاص وتجرّد.

ثانياً: أن العبادة الخالصة لله تعالى، لا تَتِمُّ إلّا باتباع الكتاب والتزامه كله، من دون ترك أو استثناء، والآن لنرجع لتوضيح مجالات العبادة في حياة الإنسان المسلم والمجتمع المسلم:

بعد تدبّر كتاب الله المبارك واستقراء آياته المباركات، أرى ـ والله هو العليم الحكيم ـ أنه بإمكاننا القول: إن مفهوم العبادة لله في اصطلاح كتاب الله، يشمل المجالات الأربعة الآتية:

١ ـ الإيمان بالله تعالى وبما أمر أن نؤمن به.

٢ ـ استقاء التصورات والقيم والموازين من معين دين الله وحده.

٣ ـ تقديم شعائر التعبّد لله فقط.

٤ ـ أخذ آداب تعامل المجتمع وشرائع الحياة وأنظمتها، من شريعة الله

فحسب[١].

وجديرٌ بالذكر أنّنا قد خصّصنا الباب الثاني كله (أي من الكتاب الثاني إلى الثامن)، للتعريف بالإيمان وتوضيح معناه وبيان مواضيعه، ومعلوم أن الإيمان هو أساس العبادة لله تعالى وخميرتها.

وخصّصنا هذا الباب الثالث كله (أي الكتب: التاسع والعاشر والحادي عشر) أيضاً لتوضيح المجالات الثلاثة الأخرى بصورة عامة، وتحديداً **الفصل الأول (الكتاب التاسع)**: لتوضيح الإلتزام الفردي بشريعة الله، **والفصل الثاني (الكتاب العاشر)**: لتوضيح التزام المجتمع بدين الله فكراً وشعائراً وآداباً، **والفصل الثالث بكامله (الكتاب الحادي عشر)**: لتوضيح شرائع الحياة وأنظمتها في شريعة الله.

وربّ سائل يسأل: وما هو وجه ارتباط الأبواب الأربعة كلّها (أي الكتب الإثني عشر في الطبعة الثانية) بالعبادة لله تعالى، ما دام أن العبادة في مفهومها الحقيقي القرآني، تشتمل على الدين والإسلام كله بكافة جوانبه؟!.

والجواب هو:

أما الباب الأول، (أي الكتاب الأول) فهو تعريف بالله الخالق المعبود، وبخلقه وملكه من سماوات وأرض وإنس وجن وملائكة...

والباب الثاني، (أي الكتب: الثاني إلى الثامن) تبيانٌ للموقف الصحيح الوحيد الواجب اتخاذه تجاه الله المعبود جلّ جلاله.

---

(١) وأودّ ألّا يفهم أحد من كلامي هذا خطأً بأننا نعارض الإستفادة من تجارب الآخرين وخبراتهم ومعارفهم، في مجالات الحياة المختلفة، وذلك لأن الإستفادة من الآخرين، ليس مباحاً في الإسلام فحسب، بل ومأمور به ومُرَغَّبٌ فيه أيضاً، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ۝١٨﴾ [الزمر]، ولكن شريطة عدم اصطدامها مع نصوص الشريعة التي لا يصطدم بها إلّا كُلُّ ما هو باطل وضار.

والباب الثالث، (أي الكتب: التاسع والعاشر والحادي عشر)، شرح وتوضيحٌ لكيفية الإهتداء بهدى المعبود، والسَّير نحو مرضاته، عبر الإلتزام الجاد بشريعته فرداً ومجتمعاً.

والباب الرابع، (أي الكتاب الثاني عشر)، بيان لكيفية التعامل الصحيح مع كل من أولياء المعبود وأعدائه.

والآن بعد أن ألْقينا شيئاً من الضوء على (مجالات العبادة لله)، لننتقل إلى المطلب الثالث، من هذا المبحث الأول، من الفصل الأول:

٣ ـ كيفية العبادة لله تبارك وتعالى:

ونقصد بـ(كيفية العبادة لله) التعريف المختصر بها، لا الشرح التفصيلي الذي تكفَّلت به كل أبواب الكتاب وفصوله، ونلخّص التعريف بكيفية العبادة لله تعالى في هذه الأسطر:

الإنسان المسلم الذي يترسخ الإيمان بالله تبارك وتعالى في سويداء قلبه، ويصبح مهتدياً بهداية الله، يستشعر ويستيقن عظمة الله وكبرياءه وجلاله، ورحمته وبرّه وفضله ولطفه، وعلمه وحكمته وعدله، وسائر أسمائه الحسنى وصفاته العلى، في أعماق قلبه، ثم يجد نفسه وسائر المخلوقات أمام الله العلي العظيم الوهاب الكريم، كذرة أو هباءة سابحة في بحر جوده وكرمه وإحسانه... فيدفعه هذا الشعور واليقين إلى أنْ يعلن عبوديته لله تعالى، ويُصمِّم على عبادته، بكل ما أوتي من قوة، كسباً لمحبّته، ونيلاً لرضوانه، ووصولاً إلى فضله، واتقاءً لسخطه، واجتناباً لعقابه، ثم كلّما زاد تقرباً إلى الله، واجتهاداً في طاعته وعبادته، واهتداءً بهداهُ، زاده الله الكريم من فضله، تقىً وصلاحاً، كما قال تعالى: ﴿... وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب ١٩﴾ [العلق]، **وقال:** ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾ [العنكبوت]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ١٧﴾ [محمد]، **إلى أن يصير إلى حال، يطمئن قلبه بذكر الله، وتسكن إليه نفسه، وتأنسُ إليه روحه، طمأنينةً وسُكونَ وأُنسَ الرضيع بحضن أمه، بحيث يصبح مصداقاً**

لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد]، **ويستأهل أن يكون مخاطباً لقوله:** ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾ [الفجر].

نعم إن العبادة لله تعالى ثمرة الإيمان به، لذا فكلّما قوي الإيمان ورسخ في القلب وتغلغل فيه، كلما ازداد الإنسان عبادة لله تبارك وتعالى وسعياً لمرضاته، إذ كما أن القلب اللّحمي الذي هو كماكينةٍ ومحرك للبدن، يوزع الدم الحاوي للغذاء، على كل خلايا الجسد، كذلك القلب المعنوي الذي هو مركز الإيمان، بقدر رسوخ الإيمان وتمكنه فيه، يوصل الإيمان ويعمِّمُه على باطن الإنسان وظاهره، بحيث يُطَبِّع كل خلية، بل كل ذرة ظاهرة وباطنة مِنْ وجوده، بطابِعِه، كما عبَّر رسولُ الله ﷺ عن هذه الحالة أروع تعبير بقوله في ركوعه: «**اللّهُمَّ لَكَ ركعتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَلَكَ أَسْلَمْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، أَنْتَ رَبِّي، خَشَعَ سَمْعِي وَبَصَرِي وَدَمِي وَلَحْمِي وَعَظْمِي وَعَصَبِي لله رَبِّ الْعَالِمِينَ**» رَوَاهُ النَّسَائِيُّ برقم: (١٠٥١)، بسندٍ صحيح، وصححه الألباني في (صحيح سنن النسائي).

وبقوله في سجوده: «**اللّهُمَّ لَكَ سَجَدْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، ولك أَسْلَمْتُ، وَأَنْتَ رَبِّي، سَجَدَ وَجْهِي لِلَّذِي خَلَقَهُ وَصَوَّرَهُ، وَشَقَّ سَمْعَهُ وبصَرَهُ تَبَارَكَ الله أَحْسنُ الْخَالِقِينَ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ برقم: (١٨٤٨).

ولكن هناك حقيقة عظيمة ينبغي أن نتنبّه لها دَوْماً وهي:

أن العبادة لله تعالى، لها ركنان أساسيان لا يمكن أن تُوجد بدونهما، وهما:

أ) أن يُعْبَدَ الله تعالى وحده، ولا يُشْرَكَ به شيء مطلقاً، كما قال تعالى على لسان عباده: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة]، وقال: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر]، وقال: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ﴾ [الزمر].

ب) أن يُعْبَدَ الله وفقاً لما شرعه هو، مِن دون زيادة أو نقصان، كما قال تعالى: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [الأنعام]، وقال: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾﴾ [هود].

إذن:

لا يمكن أَداءُ العبادة لله تعالى على الوجه المرضيّ له، إلّا باتِّباع كتابه الحكيم الذي يعلِّمنا كيفية عبادة الله، علمياً ونظرياً، والإقتداء برسوله الذي يرشدنا إلى كيفية عبادة ربّنا جلّ وعلا، عملياً وتطبيقياً، وكلما ازداد الإنسان المسلم اتباعاً لكتاب الله واقتداءً بنبي الله ﷺ، كلَّما ازداد ـ بتوفيق الله ـ رُكنا العبادة جلاءً في عقلِهِ، وتمكّناً في قلبه، ولهذا أردفنا هذا الفصل، بفصلي: (الإقتداء برسول الله ﷺ) و(الإتباع لكتاب الله الكريم).

٤ ـ ثمرة العبادة لله العظيم جلَّ شأنه:

نحاول الإطلاعَ على ثمار العبادة وآثارها، في ضوء مجموعتين من الآيات المباركة: المجموعة الأولى، تتحدث عن العبادة وبعض مظاهرها وشعائرها والآثار التي تُحْدِثُها والثِّمار التي تُثْمِرُها.

والمجموعة الثانية تتحدث عن التقوى وثماره، والتقوى هو الثمرة الجامعة للعبادة أو خلاصتها ونتيجتها التي تتمخض عنها، كما صرّح به كتاب الله الحكيم في أكثر من آية، والآن إلى المجموعة الأولى من الآيات المباركات، التي تبيِّن لنا ثمار العبادة لله تعالى، وأما المجموعة الثانية فَسَنُدْرِجُها في المبحث الثاني:

المجموعة الأولى:

١ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة].

٢ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ [البقرة].

٣ ـ ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [الحج].

٤ ـ ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤﴾ [طه].

٥ ـ ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾ [العنكبوت].

٦ ـ ﴿وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب ١٩﴾ [العلق].

٧ ـ ﴿۞ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا ٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ٢١ إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ ٢٢﴾ [المعارج].

٨ ـ ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ٦٠﴾ [غافر].

٩ ـ ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ١٨٦﴾ [البقرة].

١٠ ـ ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ١٥٢﴾ [البقرة].

١١ ـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨﴾ [الرعد].

١٢ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣﴾ [البقرة].

١٣ ـ ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ٧﴾ [إبراهيم].

١٤ ـ ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧﴾ [البقرة].

١٥ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١٧٢﴾ [البقرة].

١٦ ـ ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم ١٠٣﴾ [التوبة].

١٧ ـ ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ ٤٢﴾ [الحجر].

١٨ ـ ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ٦٣﴾ [الفرقان].

١٩ ـ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٣١]، [لقمان: ١٩]، [سبأ: ١٩].

٢٠ ـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب].

ونستخلص من هذه الآيات المباركات، الثمار والآثار الثمانية عشر الآتية للعبادة:

١ ـ **العبادة لله تعالى عموماً، تُورِثُ وتُثْمِرُ التقوى في الإنسان**، كما تدل عليه الآية (٢١) من [البقرة].

٢ ـ **والصيام كذلك وهو شعيرة عظيمة من شعائر العبادة، تثمر التقوى**، كما تدل عليه الآية (١٨٣) من [البقرة].

٣ ـ **وكذلك نحر الذبائح في الحج ـ وفي غيره أيضاً ـ وهو من شعائر التعبّد لله، يحصِّل التقوى**، كما تدل عليه الآية (٣٦ و٣٧) من (الحج).

٤ ـ **والصلاة وهي أعظم شعائر العبادة لله، تثمر الذكر لله تعالى**، كما تدل عليه الآية (١٤) من (طه).

٥ ـ **وكذلك تثمر الصلاة في الإنسان، تجنُّب الفحشاء والمنكر**، كما تدل عليه الآية (٤٥) من (العنكبوت).

٦ ـ **والسجود ـ وهو من أعظم شعائر التعبّد لله ـ يُثْمِرُ قُرْب العبد من ربّه الكريم**، كما تدل عليه الآية (١٩ ـ ٢٢) من (العلق).

٧ ـ **وكذلك تورِثُ الصلاةُ صاحِبَها المداوم عليها، الصَّبرَ والثباتَ وعَدَم الهلع في حالتي الشدّة والرخاء**، كما تدل عليه الآيات (١٩) من (المعارج).

٨ ـ **والدعاء الذي هو أخص شعائر التعبّد لله، سبب لاستجابة الله للعبد، واثبات لعدم تكبّره عن عبادته**، كما تدل عليه كل من الآية (٦٠) من (غافر) والآية (١٨٦) من (البقرة).

وجديرٌ بالذكر أن الله الحكيم جل شأنه، في الآية (١٨٦) من (البقرة) بعد أن وعد بإجابة دعاء عباده، شرط فيهم شرطين، هما: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾ ثم قال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ وهذا يدل على أن الإنسان يجاب دعاؤه من الله الكريم، بقدر استجابته لتنفيذ أوامر الله، وطاعته له وإيمانه به، لأنه ربط (الرشد) الذي هو نتيجة (الهُدى) ـ كما أن (الغيّ) نتيجة (الضلال) ـ بقوله: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾، وبناءً عليه: فكلما كانت طاعة الإنسان واستجابته لله تعالى وإيمانه به، أكمَلَ وأتمَّ، كان قبولُ الله تعالى لدعائه أَحسنَ.

٩ ـ وذكر الله الذي هو من أعظم شعائر التعبّد وأعمّها مطلقاً، يثمر ذكر الله تعالى للعبد، والذكر الكثير وخصوصاً تسبيح الله وحمده صباحاً ومساءً، يورث العبد ويسبّب له صلواتِ الله تبارك وتعالى وملائكته وإخراجَهُ إياه من الظلمات إلى النور، وطمأنينة القلب وسكونَهُ، كما تدل عليه الآية (١٥٢) من (البقرة) والآيات (٤١، ٤٢، ٤٣) من (الأحزاب) والآية (٢٨) من (الرعد).

١٠ ـ والصّبر يثمر في العبد، معيّةَ الله وولايته الخاصة، كما تدل عليه الآية (١٥٣) من (البقرة)، ولكنّ الصّبر الذي هذا شأنه، كما بيّنه الله تعالى، ينبغي أن يكون:

أولاً: بدافع إرضاءِ الله تعالى ونيل ثوابه فقط، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ [الرعد].

ثانياً: صبراً جميلاً، وهو ما لا شكوى معه ولا ضجر فيه، كما قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾﴾ [المعارج].

ثالثاً: صبراً شاملاً لكل الحالات، كما قال تعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ [البقرة]، والبأساء هو الفقر والحاجة، والضرّاء هو المرض والبلاء، وحين البأس أي: في حالة القتال ومواجهة الأعداء.

١١ ـ والشكر وهو مع الصبر أساس العبادة ودعامتاها اللتان تقف عليهما، يُثمِرُ الزيادَةَ في النعمة من الله تعالى، كما تدل عليه الآية: (٧) من (ابراهيم).

١٢ ـ والإقرار بالعبودية والمملوكية لله تعالى، والرجوع إليه أمام المصيبة، يُثْمِرُ للعبد نزولَ صلوات الله ورحمته، كما تدل عليه الآيتان (١٥٦، ١٥٧) من (البقرة).

١٣ ـ وإيتاء الزكاة خصوصاً والإنفاق عموماً، يثمر في الإنسان التطهر والتزكية، كما تدل عليه الآية (١٠٣) من (التوبة).

١٤ ـ العبادة لله بجدّ وإخلاص، تجعل الإنسان بمنأى عن تسلّط الشيطان، كما تدل عليه الآية (٤٢) من (الحجر).

١٥ ـ والصبر الكثير، والشكر الجزيل لله تعالى، يجعلان الإنسان أكثر فهماً لآيات الله وأَنفَذَ نظراً لإدراكها، كما تدل عليه الآيات (٥) و(٣١) و(١٩) من (إبراهيم) و(لقمان) و(سبأ).

١٦ ـ والعبادة لله، تجعل العبد ينبوعَ الفضائل، ومتحلياً بها كلها أو جلّها، ومتجنّباً من الرذائل، ومتخلّياً عنها كلها أو جلّها، كما تدل عليه الآيات (٦٣ ـ ٧٤) من (الفرقان).

١٧ ـ ثم ان العبادة لله تعالى يورث العبد شَرَفَ الإنتساب إلى الله الرحمن الرحيم بالعبودية له، وأَعْظِمْ به شرفاً في الدنيا والآخرة، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ...﴾ [الفرقان].

١٨ ـ وأخيراً وليس آخراً، فإن العبادة لله تبارك تعالى تؤهّل العبد أن يكون مخاطباً لله تبارك وتعالى يوم القيامة بقوله المبارك: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر].

وذلك لأن النفس إنما تطمئن، إذا ما اطمأن القلب فيها، ولا يطمئن القلب ـ الإطمئنان الحقيقي ـ إلّا بذكر الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد]، وجلي أن ذكر الله تعالى، من أعظم أنواع العبادة لله تبارك وتعالى، وهو أشملها على الإطلاق، وقال تعالى عن الذكر: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ

﴿يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [العنكبوت]. أي أن ذكر الله تعالى أكبر وأعظم من كل أنواع العبادة الأخرى، بل إنما شرعت كل أنواع العبادة، من أجل ذكر العبد لله تعالى، كما قال تعالى: ﴿. . .وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾ [طه]، ولهذا لم يأمر الله الحكيم عبادَه بشيء من الطاعات، إلّا وحدَّد له وقتاً أو مقداراً، باستثناء الذكر الذي أمر به مطلقاً وفي كل الأحيان:

أ) بعد الصلاة: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْۚ ﴿١٠٣﴾﴾ [النساء].

ب) وبعد إتمام صيام رمضان: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ. . . وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ [البقرة].

ج) وبعد إتمام الحج والعمرة: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًاۗ ﴿٢٠٠﴾﴾ [البقرة].

د) وعند لقاء الأعداء وفي خضمّ القتال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنفال].

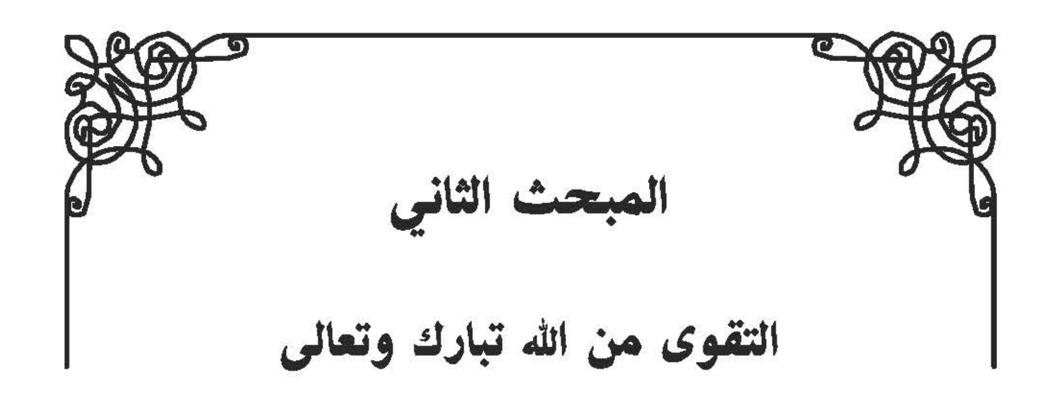
هـ) وفي زحمة الأحداث اليومية، وخصوصاً حالة البيع والشراء والتجارة: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الجمعة]، وقد مدح الله الذين لا يُلْهيهم شيء عن ذكر الله: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِۙ ﴿٣٧﴾﴾ [النور].

وقد حَذَّرنا الله تعالى من أن يُلْهِيَنا شيءٌ عن ذكر الله، إذ نسيان الله هو الخسارة بعينها، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [المنافقون]، ولم يَأمر سبحانه بشيء من الطاعات بالإكثار منها مطلقاً، إلّا الذكر، فقال في أكثر من آية ﴿. . .وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [الجمعة]، [الأنفال: ٤٥] وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾﴾ [الأحزاب].

أَجَلْ فالنفس المطمئنة هي وحدها الجديرة بخطاب الله اللطيف بالدخول في سلك عباده المصطفين، والدخول في جنة النَّعيم، وتلك الطمأنينة هي ثمرة الذكر الذي هو أشمل وأكمل أنواع العبادة، وعليه: فالعبادة هي وحدها التي تؤهل العبد لذلك التكريم والتشريف العظيم.







المبحث الثاني

التقوى من الله تبارك وتعالى

ولمعرفة مفهوم التقوى ومجالاته، وآثاره وثماره، لِنتأمل هذه الآيات المباركات التي تتحدث عن التقوى، وهي في نفس الوقت، تُبَيِّن لنا بعض الآثار والثمار الأخرى للعبادة، وذلك لكون التقوى نفسه، أعظم ثمار العبادة، بل ثمرتها الجامعة وخلاصتها.

المجموعة الثانية:

١ - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة].

٢ - ﴿... وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [البقرة].

٣ - ﴿... وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۖ ﴿١٩٧﴾﴾ [البقرة].

٤ - ﴿بَلَىٰ مَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [آل عمران].

٥ - ﴿... وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿١٢٠﴾﴾ [آل عمران].

٦ - ﴿... قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ [آل عمران].

٧ - ﴿... إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [المائدة].

٨ - ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [المائدة].

٩ - ﴿... فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [المائدة .

١٠ - ﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام .

١١ - ﴿... وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ﴿٢٦﴾﴾ [الأعراف].

١٢ - ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف .

١٣ - ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف .

١٤ - ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس].

١٥ - ﴿... فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [هود .

١٦ - ﴿... وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ [طه].

١٧ - ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [الحج].

١٨ - ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَـٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ ﴿٣٧﴾﴾ [الحج].

١٩ - ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [النور .

٢٠ - ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾ [الفتح].

٢١ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحجرات].

٢٢ - ﴿... إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات].

٢٣ - ﴿... وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الحجرات].

٢٤ - ﴿... وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الجاثية].

٢٥ -﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنفال .

٢٦ - ﴿... إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنفال].

٢٧ - ﴿... فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾ [الطلاق].

٢٨ - ﴿... وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴿٤﴾﴾ [الطلاق].

٢٩ - ﴿... وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴿٥﴾﴾ [الطلاق].

٣٠ - ﴿وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الحاقة].

٣١ - ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [الليل].

٣٢ - ﴿...وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [المائدة].

٣٣ - ﴿...وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [المائدة].

٣٤ - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران].

٣٥ - ﴿...وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾﴾ [النساء].

٣٦ - ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴿١٦﴾﴾ [التغابن].

٣٧ - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الحشر].

٣٨ - ﴿۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾ [آل عمران].

٣٩ - ﴿...وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [الأعراف].

٤٠ - ﴿...وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ [يوسف]، ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [يوسف].

٤١ - ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾﴾ [الحجر: ٤٥ إلى ٤٨].

٤٢ - ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾﴾ [ص].

٤٣ - ﴿... ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا خَيْرًا ۗ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّاتُ

عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾﴾ [النحل].

٤٤ ـ ﴿تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ﴿٦٣﴾﴾ [مريم].

٤٥ ـ ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ ﴿٧٣﴾﴾ [الزمر].

٤٦ ـ ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَاۚ ﴿٣٥﴾﴾ [الرعد].

٤٧ ـ ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ ﴿١٥﴾﴾ [محمد].

٤٨ ـ ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ ﴿٥٤﴾ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر].

٤٩ ـ ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٖ وَعُيُونٖ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشۡتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [المرسلات].

٥٠ ـ ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾﴾ [الذاريات].

٥١ ـ ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَعِيمٖ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ وَوَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الطور].

٥٢ ـ ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النور].

٥٣ ـ ﴿... وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ ﴿٢٣٧﴾﴾ [البقرة].

٥٤ ـ ﴿... وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ ﴿٨﴾﴾ [المائدة].

٥٥ ـ ﴿... لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٞ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحۡسَنُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [المائدة].

٥٦ - ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [آل عمران].

٥٧ - ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة].

٥٨ - ﴿... فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ ﴿١﴾﴾ [الأنفال].

٥٩ - ﴿... وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ ﴿٢﴾﴾ [المائدة].

٦٠ - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ...﴾ [الأحزاب].

وسنتحدّث بإذن الله عن التقوى، في ضوء أنوار الآيات المدرجة أعلاه، في المطالب الأربعة الآتية:

١) **تعريف التقوى، ومن هو المتقي؟!**

٢) **مجالات التقوى التي يتحقق فيها.**

٣) **أهمية التقوى ومكانته.**

٤) **ثمار التقوى وآثاره.**

١ ـ تعريف التقوى، ومن هو المتقي؟!:

كلمة التقوى من حيث أصلها اللغوي من (وقى يقي وقاية) ويقال (اتّقى يتقي تقاةً وتقوىً وتقيّةً)[١].

وفي اصطلاح كتاب الله الحكيم: (التقوى) حالة تحصل للإنسان نتيجة رسوخ قدمه في عبادة ربّه وقربه منه، تجعله بمنأىً عن كل ما يُسْخِطُ الله تعالى، ويعرِّضه لعذابه وعقابه، ولهذا عرَّفه (راغب الأصفهاني) رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: (وصار التقوى في تعارف الشرع: حِفْظ النفس عمّا يؤثِمُ)[٢] وواضح أن وقاية النفس وحفظها عن كلِ ما يجعلها آثِمةً، يستلزم فعل المأمورات كلها واجتناب المحظورات جميعاً، وذلك لأن ترك أي مأمور به إثمٌ، وفعل أي محظور إثم.

وبناءً عليه: فالتقوى يشتمل على الشريعة كلها بكافة جوانبها، إذ هي كلّها أمرٌ بما يحبه الله ونهي عما يسخطه الله تعالى ولا يرضاه، أمر إيجاب أو نَدْبٍ، ونهي تحريم أو كراهة، وكل منهما ـ أي الأمر والنهي ـ سواء تعلقا بالعقيدة، أو العبادة، أو الأخلاق، أو المعاملات، أو الحكم والسياسة، أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو الجهاد والقتال... إلخ.

ونُلَخص هذا التعريف فنقول:

التقوى عبارة عن حالة وملكة، تحصل للإنسان المسلم، بسبب إيمانه وعبادته لله تعالى، تجعله يلتزم بدين الله وشريعته التزاماً دقيقاً، سواء في دائرته الشخصية أو الأسرية أو الإجتماعية، ويجعله على حذر دائم من الحيدة والإنحراف، وكل ذلك بدافع نيل رضوان الله وفضله.

وأما بالنسبة لتعريف المتقي ومَنْ هو؟! فنقول:

---

(١) مختار الصّحاح، ص٦٢٩، لفظ: و ق ي.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن، لفظ: وقى، ص٨٨١.

المتقي هو الحاصل على التقوى أو هو المتحقق بالتقوى، ولكن كي نتجنّب الإيغال في التجريد، لنتأمل هذه الآيات التي يُعرِّف الله تعالى فيها عباده المتقين من خلالِ أوصافهم الأساسية:

أولاً: ففي الآية (١٧٧) من (البقرة) وهي الآية المشهورة بآية البِّر، بعد أن يعدِّد الله الحكيم ثمانية عشر وصفاً لأناس أبرار، يقول في نهاية أوصافهم: ﴿... وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾، وتلك الأوصاف هي:

١ و٢ و٣ و٤ و٥) الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين.

٦ و٧ و٨ و٩ و١٠ و١١) تقديم المساعدة المالية بالرغم من محبوبية المال، سواء لقلّته، أو لحاجة صاحبه إليه، أو لأي سبب آخر، لـ: الأقرباء، الأيتام، المساكين، ابن السبيل(١)، السائلين، الرقيق(٢).

١٢) إقامة الصلاة.

١٣) إيتاء الزكاة، (إذن: فالمساعدة المالية للأصناف الستة السابق ذكرهم، إنفاقٌ واجبٌ آخرٌ غير الزكاة، وهذا أحد الأدلة على أن في المال حقاً سوى الزكاة).

١٤) الوفاء بالعهد المبرم.

١٥ و١٦ و١٧) الصبر على الفقر والحاجة، وعلى المرض والبلاء، وعند اشتداد الوضع، في حالة القتال والجهاد.

١٨) الصدق، والصدق أعم من الصدق في القول واللّسان، إذ لا يستقيم لسان الإنسان ما لم يستقِمْ قلبه، ومن لم يصدقْ بفعله قولَ لسانه، فليس بصادق.

---

(١) ابن السبيل: (وهو المسافر الذي انقطع به السفر في بلد الغربة).

(٢) الرقيق: (أي العبيد الذين يريدون أن يتحرّروا، أو يتزوّجوا... إلخ).

وعليه:

فالمتقي في تعريف كتاب الله ـ في ضوء هذه الآية المباركة ـ هو الذي جمع في نفسه:

أركان الإيمان الخمسة، ومساعدة الأصناف الستة المذكورين، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والوفاء بالعهد، والصبر في مختلف الحالات، والصدق المطلق!.

ثانياً: وأما في الآية (١٣٣ إلى ١٣٦) من (آل عمران) فيعرِّف الله تعالى عباده المتقين، بالأوصاف السبعة الآتية:

١ ـ إنفاقُ أموالهم في حالتي الرّخاء والشدّة.

٢ ـ كظم الغيظ، (أي ضبطهم لأنفسهم عند الإنفعال والغضب الشديد، بحيث لا يَنْدُرُ منهم فعل أو قول غير لائق).

٣ ـ العفو عن الناس، أي يعفون عن إساءتهم إليهم، مع قدرتهم على الإنتقام.

٤ ـ الإحسان، وقد يكون المقصود بقوله تعالى: ﴿...وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران]، مدح أصحاب الأوصاف الثلاثة السابقة، ولكن على أي حال فالإحسان وصف للمتقين.

٥ ـ تذكُر الله تعالى عند ارتكاب فعلة قبيحة بحق الغير، أو ظلم بحق أنفسهم، وهذا يفهم منه أَنَّهُ ليس من شرط المتقين، ألّا يرتكبوا ذنوباً أبداً، قد يخطؤون، ولكن يتداركون أخطاءَهم بسرعة ولا يتمادون فيها.

٦ ـ الإستغفار لإزالة آثار ما ارتكبوه، إذ لا غافر للذنب ولا قابل للتوب، إلّا الرب الرّحيم الكريم جلّ شأنه.

٧ ـ عدم الإصرار والإستمرار على ما بَدَ منهم، بل تداركه واصلاحه والتعويض عنه بسرعة.

ثالثاً: وأما في الآيات (١٥ إلى ١٩) من (الذاريات)، فَيُبَرِّز الله تعالى الأوصاف الخمسة الآتية، عند تعريفه للمتقين:

١ - الإحسان: وهذا يشتمل على أشياء كثيرة، ربما يجمعها تعبير: (إجادة عبادة الله، ومعاملة خلق الله تعالى).

٢ - قلّة النوم بالليل، بل إحياؤُهُ بالذكر والصلاة والطاعة.

٣ - الإستغفار بالأسحار، والأسحار جمع (سَحَر) وهو اسم للوقت الذي يسبق الفجر، فهم مع إِحيائهم لمعظم أوقات الليل بالعبادة والطاعة، قبل بزوغ الفجر، يشرعون بطلب المغفرة من ربّهم، لأن الإنسان كلما كان أكثر قرباً من الله تعالى وأعرف به، كان أكثر معرفة بقصوره وتقصيره تجاهه، وعدم جدارة طاعته القليلة الناقصة، بمقامه الرفيع وشأنه العظيم جلّ جلاله، لذا يدفعه هذا الشعور، إلى الإستغفار وطلب العفو منه سبحانه.

٤و٥ - تقديم المساعدة والعون المالي لكل من السائل الذي يستجدي، والمحتاج الذي يستحي من السؤال، فيُحْرَم من مساعدة الناس، وهذه لفتة خفية - أي قوله تعالى: ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾ [الذاريات]، إلى أن أداء حق المال، لا يتم بإعطاء السائل الذي يقف ببابك، حتى تبحث جاهِداً عمَّن يمنعه الحياءُ من السؤال مع حاجته الشديدة، ولا شك أن مساعدة هذا النوع الثاني، أعظم أجراً وأحسن أثراً في المجتمع.

وبتعريف المتقي من خلال أوصافه - في ضوء الآيات المارّ ذكرها - تجلّت لَنا أيضاً صورة التقوى أكثر، وستتجلّى لنا مزيداً من التجلي أيضاً، عند حديثنا عن: (مجالات التقوى وميادينه) و(أهمية التقوى ومكانته) و(ثمار التقوى وآثاره).

٢ ـ مجالات التقوى التي يتحقق فيها:

بما أن التقوى يتحقق عبر الإلتزام بالشريعة كلِّها، بَدْءاً بدائرة النفس ومروراً بدائرة الأسرة والمجتمع، وانتهاءً بدائرة الدولة ودائرة البشرية، لِذا فمجالات تحقق التقوى، هي كل مجالات الحياة، من دون استثناء شيء منها، ولكن لكي تتوضح صورة شمولية التقوى في أذهاننا، لنستشهد بمجموعة من الآيات المباركة، التي تتحدث عن التقوى في مختلف الميادين، وتربِطُهُ بكل شؤون الحياة الشخصية والجماعية، ونَسْرُدُ هنا أَحَدَ عَشَر مجالاً من مجالات التقوىٰ وميادينه التي يتجسَّدُ فيها:

١ و٢ و٣) مجالات العقيدة والعبادة والأخلاق:

وتدلّ على الإرتباط الوثيق للتقوى، بهذه المجالات الثلاثة، كل من:

أ) الآية (١٧٧) من (البقرة) المعروفة بآية البرّ، والتي ذكرت أركان الإيمان الخمسة في مجال العقيدة، وإنفاق المال للعناصر المستحقة في المجتمع، والصلاة والزكاة في مجال العبادة، والوفاء بالعهد والصبر في الحالات المختلفة، والصدق في مجال الأخلاق، ثم عرّف المتصفين بهذه الأوصاف كلّها، بأنهم هم المتقون.

ب) وكذلك الآيات (١٣٣ إلى ١٣٦) من (آل عمران).

ج) والآيات (٩ إلى ١٥) من (الذاريات) إذ يعرّف الله تعالى في كل من آيات (آل عمران) و(الذاريات) عباده المتقين بمجموعة أوصاف مرتبطة بجوانب الإقتصاد والعبادة والأخلاق، إِذن: فالتقوى له حضور في كل هذه الميادين والمجالات.

٤) مجال المنهج ونظام الحياة، أو الحكم والسياسة:

كما تدل عليه الآية (١٥٣) من (الأنعام) وهي: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام]، وههنا يربط الله تبارك وتعالى حصول التقوى بالإلتزام بصراط الله المستقيم وانتهاج منهاجه الحكيم، وعدم الحيدة عنه يميناً أو يساراً، وعليه:

كما أن الإعتقاد بأركان الإيمان، وتقديم العبادة لله، والتخلُّق بالخلق الحسن، من أركان التقوى ومستلزماته، كذلك التمسّك بدين الله ومنهاجه الحكيم، في مجال الحكم والسياسة، وعدم اللجوء إلى الأنظمة الوضعية والمناهج الطاغوتية، شرط لا بدّ منه للوصول إلى التقوى.

وكذلك تدل على هذه الحقيقة الآية (٥٧) من (المائدة) وهي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [المائدة]، فقد جعل سبحانه وتعالى عدم اتخاذ أهل الإيمان، أهلَ الكتاب والكفار المستهزئين بدين الله أولياء، واتقاء الله بهذا الموقف، شرطاً لاعتبارهم أهل الإيمان!

فمسألة معاداة أعداء الله والتَبَرُّؤُ منهم، أيضاً من المجالات التي ينبغي للمؤمنين أن يحققوا فيها تقوى الله تبارك وتعالى.

٥) المجال الإجتماعي:

وللتقوى ارتباط وثيق بهذا المجال أيضاً، كما تدل عليه الآية (١٣) من (الحجرات) وهي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾، وهنا ينبّه سبحانه البشرية كلّها إلى أصلها المشترك وهو والداهم (آدم وحوّاء) عليهما السلام، ثم توزيعهم إلى مجموعة شعوب وقبائل كي تتنوّع البشرية إلى أجناس وألوان وألسنة شتى، ثم يحصل التعارف بينهم، ثم يعلمهم أن ميزان

التفاضل بينهم ـ عند الله تعالى ـ هو التقوى فحسب، إذن: ليس لأحد منهم فضل على آخر، بسبب نسبه أو لسانه أو لونه أو غناه أو فقره أو علمه... إلخ، وانما هذه الأشياء كلها مواد ابتلاء، يبتلي الله بها البشر.

وسبب نزول هذه الآية هو، أنه لما فتح رسول الله ﷺ (مكة) في سنة ثمانٍ، أمر بلالاً فأذن، وإذ ذاك استنكف بعض أشراف قريش الجهلة وقالوا: أولم يجد محمد غير هذا العبد الأسود يؤذن في هذا المكان المقدس؟! فأنزل الله تعالى هذه الآية[1].

٦) مجال الإقتصاد:

وكذلك للتقوى ارتباط قوي بمجال الإقتصاد بمختلف جوانبه، وهذه بعض الآيات الدالّة على هذه الحقيقة:

أ ـ الآية (٢٧٨) من (البقرة): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾﴾ [البقرة]، **إذن: المسلم الّذي يتقي الله لا يقرب الربا!**

ب ـ الآية (٢٨٢) من (البقرة): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ... وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة]، إذن: فكتابة الدين والإِشهاد عليه والإِشهاد على البيع، ممّا يجب تقوى الله فيه، وخصوصاً إذا خيف منه حدوث المشاكل.

ج ـ الآية (٢٨٣) من (البقرة): ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ

---

(١) أنظر: لباب النقول في أسباب النزول، للسيوطي، ص٢٢٠، رقم: ١٠٢٧. وأنظر: (الإستيعاب في بيان الأسباب) ج٣ ص٢٨٥، إذ قال: أخرجه البيهقي في (دلائل النبوة) (٥/ ٧٩) بسندٍ صحيح الى عبدالرزاق، ثم قال المؤلفان: قلنا: وهذا مرسلٌ صحيح الإِسناد.

. . .﴾ [البقرة]، وأيضاً فللتقوى ارتباط بمسألة الرهن والإرتهان!

٧) العلاقات الزوجية والشؤون الأسرية المختلفة:

وكذلك للتقوى بهذا الميدان ارتباط وأي ارتباط، كما تدل عليه آيات كثيرة، منها:

أ - الآية (١٨٧) من (البقرة): ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ. . . كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

ب - الآية (٢٢٣) من (البقرة): ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ. . .﴾.

ج - الآية (٢٣٣) من (البقرة): ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ. . .وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

د - الآية (٢٣٧) من (البقرة): ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ. . .﴾.

هـ - الآية (٢٤١) من (البقرة): ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾﴾. إذاً: فللتقوى ارتباط بمختلف شؤون العلاقات الزوجية والشؤون الأسرية.

٨) مختلف المعاملات الجارية بين الناس:

وهذه بعض الآيات، كل آية تتحدث عن ارتباط التقوى بنوع من تلك المعاملات، التي نشير إلى بعضها كأمثلة فقط:

أ - الوصية للوالدين والأقربين: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾﴾ [البقرة].

ب - أداء الشهادة بالعدل، وان كانت في مصلحة العدوّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ٨﴾ [المائدة].

ج - القصاص: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٧٩﴾ [البقرة].

د - الإصلاح بين المتخاصمين: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٠﴾ [الحجرات].

هـ - النجوى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٩﴾ [المجادلة].

٩) مجال الشعائر التعبّدية:

كذلك للتقوى أوثق وأقوى ارتباط، بشعائر التعبّد، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ٣٢﴾ [الحج]، أي: ان التقوى المستقر في القلب، هو الذي يدفع بصاحبه إلى أن يعظّم شعائر الله ويُعلي من شأنها.

١٠) ميدان الجهاد والقتال في سبيل الله:

والتقوى له ارتباط حتى بميدان القتال والجهاد، سواء من ناحية الشجاعة والإقدام وإظهار الغلظة على الأعداء، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٢٣﴾ [التوبة]، وهذا يعني أن التقوى الحقيقي بخلاف تصور كثير من أهل الإسلام، وخصوصاً بعض أهل التصوف، لا يُنافي القتال والجهاد، بل هو الذي يدفع صاحبه لقتال أعداء الله وأعداء دينه والغلظة عليهم وعدم الشفقة عليهم! كما قال تعالى لِنَبيِّه المبعوث رحمة للعالمين:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٩﴾﴾ [التوبة].

أو من ناحية الإلتزام بالحدود الشرعية، وعدم تجاوزها في الحرب، كما قال تعالى: ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [البقرة].

١١) مجال فهم القرآن ومعرفة أسرار خلق الله وحِكَمِهِ، وفقه سنن الحياة والتاريخ:

وكذلك للتقوى ارتباط وثيق بفهم كتاب الله، ومعرفة أسرار المخلوقات، وفقه سنن التاريخ والحياة، كما قال تعالى:

أ - ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾ [البقرة].

ب - ﴿إِنَّ فِي ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾﴾ [يونس].

ج - ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ [آل عمران].

ومعنى هذا أَنَّ الإنسان كلّما كانت قدمُهُ أكثر رسوخاً في التقوى، كان أقدر على فهم مقاصد كتاب الله ودرك مرامه، وعلى معرفة أسرار خلق الله وحكمه، وعلى فقه سنن الله في حياة المجتمعات البشرية قديماً وحديثاً.

٣ ـ مكانة التقوى وأهميته الكبرى:

إن للتقوى في الإسلام، مكانةً رفيعةً، وأهميةً كبرى، تتجلّيان في آثاره وثماره التي نبحثها في المطلب الرّابع ـ بإذن الله ـ ولكن علاوة عليها، يمكننا الإستدلال على رفعة مكانة التقوى في دين الله وأهميَّتِهِ القصوى، بهذه الأدلة الستة الآتية:

أولاً: أمر الله تعالى أهلَ الإيمان أن يُحصِّلوا التقوى، بِصِيَغٍ كثيرة مؤكّدة، كما تُبيِّنُهُ هذه الآيات:

١ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾ [آل عمران].

٢ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١١٩﴾ [التوبة].

٣ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٌ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٍۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨﴾ [الحشر].

٤ ـ ﴿...وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدٗا﴾ [النساء: ١٣١].

٥ ـ ﴿...وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ [المائدة: ٩٦].

٦ ـ ﴿...وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾ [المائدة: ٨٨].

٧ ـ ﴿...فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [التغابن: ١٦].

٨ ـ ﴿...وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢].

٩ ـ ﴿...وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [البقرة: ١٩٦].

١٠ ـ ﴿... وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [المائدة: ٧].

١١ ـ ﴿... وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

ثانياً: وربط الله خير الدنيا والآخرة بالتقوى، وجعل أهل التقوى هم وحدهم الحائزين على بركات الدنيا وخيرات الآخرة، كما سنبين هذا في المطلب الرابع.

ثالثاً: وجعل الله التقوى سبب ولايته لعباده وأساس ولايتهم له، كما قال جلّ شأنه: ﴿... إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنفال]، أي: ليس لله تعالى وليٌّ يواليه ويودُّه سوى عباده المتقين!

وقال: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس].

إذن:

الطريق الوحيد الذي يصير فيه العبد ولياً وقريباً لله تعالى هو التقوى لا غير.

رابعاً: والإنسان يزداد كرامة عند الله تعالى بمقدار تقواه، فمن كان لله أتقى، فهو عنده أكرم، كما قال تعالى: ﴿... إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات].

خامساً: والتقوى هو المقصد الذي أنزل الله تعالى كتبه وبيّن آياته، لكي يتسنّى للناس تحصيله وتحقيقه، كما قال تعالى: ﴿... كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [البقرة].

سادساً: والتقوى هو جماع خصال الخير كلِّها، بَدْءاً بالإيمان الذي هو أساس كل خير، إلى كلِّ خصال الخير الأخرى قاطبة، كما تدل على هذه الحقيقة آية (البرّ) في سورة البقرة أحسن دلالة.

ونزيد هذا الدليل وضوحاً، فنقول:

هناك ثلاثة أشياء، تعبِّر عن ثلاث درجات من كيفية ارتباط العبد بالله تبارك وتعالى، وهي:

الإيمان.

العبادة.

التقوى.

إذ أول ما يَرْبِطُ العبدَ بربِّه هو الإيمان، ثم إِذا آمن به، يدفعه إيمانه به أن يعبده، وذلك لأن العبادة تتضمَّن أقصى الخضوع والإنقياد، وأعظم الحب، وأقصى التعظيم والإجلال، وهذه الأشياء هي ثمرة الإرتباط بالله تعالى على أساس الإيمان، ما دام الإيمان صحيحاً، ثم تُنْتِجُ العبادةُ التقوى الذي هو آخر درجات الإرتباط بالله للعبد، وذلك لأن العبد، بعد أن يدفعه إيمانه بربِّه أن يعبده، أي: يبذل له أقصى الخضوع والإستسلام، وأقصى الحب، وأقصى التعظيم والإجلال، لا يبقى له شيء من معاملتِهِ لربِّه إلّا الحذر الشديد والحيطة والتوقيِّ والتحرِّي الدقيق، في عبادته لِربِّه بالإلتزام بشرعه، وتنفيذ أوامره، واجتناب مناهيه، والسعي لنيل رضوانه جهد المستطاع، وهذا هو التقوى بعينه.

وبناءً عليه:

لا يكون العبد عابداً لربِّه، إلّا بعد كونه مؤمِناً به، ولا يكون له متقياً، إلّا بعد كونه عابداً، إذْ من لم يؤمن بربِّه، كيف يعبده؟ ومن لم يعبده، كيف يتقيه، وفي ماذا يتقيه؟! فالإيمان هو أساس العبادة، كما أن العبادة هي ميدان التقوى، وإذا عكسنا الترتيب نقول: ان العبادة لله تعالى، هي نتيجة الإيمان به، والتقوى منه، هو ثمرة العبادة له.

ولكن كما أن الإيمان له درجات ودرجات، وكذلك العبادة، وبين

المؤمنين بالله بعضهم مع بعض، والعابدين لله بعضهم مع بعض، تفاضلٌ وتفاوتٌ كبير، كذلك التقوى له درجات شتَّى، وبين المتقين تفاضل عظيم، وهذه الآية ربما هي الآية الوحيدة التي تصرِّح بهذه الحقيقة وهي: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَّءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوا وَّءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوا وَّأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [المائدة]، وهذه الآية نزلت[1] في الذين شربوا الخمر قبل تحريمها، فبيَّنت أنهم لا مؤاخذة عليهم بسببها، طالما كانوا من أهل التقوى، ثم كررت لفظة التقوى ثلاث مرات، وأردفتها في الأولى، بالإيمان والعمل الصالح، وفي الثانية، بالإيمان، وفي الثلاثة، بالإحسان، ثم بيَّنت أن الله يحب المحسنين، وهذا التعبير يدل بلا شك على أن التقوى له درجات شتَّى، ولكن لم يتبيَّنْ لي إلى هذه اللحظة، - تَبيُّنًا يثلج الصدر - وجْهُ الحكمة في الترتيب المذكور في الآية الكريمة، على الرغم من التأمل الطويل، والله هو وحده العليم بأسرار وحكم كتابه الحكيم العظيم.

---

(١) لباب النقول في أسباب النزول، للسيوطي ص١٠٣، رقم: ٤٣٧ و٤٣٨. وانظر: صحيح البخاري: ٢٤٦٤، وصحيح مسلم: ١٥٧٢.

٤ ـ ثمار التقوى وآثاره الدنيوية والأخروية:

وللتقوى آثار مباركة وثمار يانعة كثيرة ومتنوِّعة، ونحاول أن نشير إلى معظمها أو أهمها في ضوء أنوار آيات كتاب الله المبارك، وفي البنود الواحد والأربعين الآتية:

١) **التقوى هو سبب الإهتداء بكتاب الله،** الآية (١) من (البقرة)، وكلّما ازداد الإنسان تقىً، ازداد اهتداءً بكتاب الله علماً وعملاً، وذلك لأن التقوى هو الذي يجلو عين القلب والبصيرة.

٢) **والتقوى سبب لمعية الله الخاصة للعبد،** الآية (١٩٤) من (البقرة) ومن كان الله معه، كفاه همَّ الدنيا والآخرة، ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ. . .﴾ [الزمر].

٣) **والتقوى هو خير الزاد، أي زاد الطريق، طريق السير إلى الله بالطاعة،** الآية (١٩٧) من (البقرة).

٤) **والتقوى سبب حُبِّ الله للعبد،** الآية (٧٦) من (آل عمران)، ومعلوم أن من أحبّه الله تولّاهُ، ومن تولاه كفاه وأغناهُ.

٥) **والتقوى جُنَّة تحفظ أهل الإيمان من كيد الأعداء،** الآية (١٢٠) من (آل عمران)، وذلك لأن مَن اتقى الله، التزم شريعته كاملاً، ومن كان في حِرْز الشريعة، فأنّى يَنَالُ منه الأعداء!

٦) **والتقوى سبب لاتعاظ أهل الإيمان بسنن الله في الحياة والتاريخ، واهتدائهم إلى أسرارها،** الآيتان (١٣٧، ١٣٨) من (آل عمران).

٧) **والتقوى هو السبب الوحيد لقبول الأعمال عند الله تعالى،** الآية (٢٧) من (المائدة)، وذلك لأن المتقي هو الذي يدفعه تقواه أن تكون أعماله مُوافقة للشرع ومتحلِّيةً بالإخلاص، أي هو الذي يتقي في أعماله كلاً من: الإنحراف عن الشرع والبدعة، والشرك والرياء.

٨) **والتقوى هو الذي يجعل أهل الإيمان يتجنَّبون موالاة الكفار،** الآية (٥٧) من (المائدة).

٩ و١٠) ولا يتحلَّى بالتقوى على حقيقته، إلا من يمتلك رجاحة العقل، ونتيجة التقوى هي الفلاح والفوز الأخروي، الآية (١٠٠) من (المائدة).

١١) ويجعل التقوى صاحِبَهُ، منتهجاً نهج الرسول ﷺ وسالكاً صراط الله المستقيم، وتاركاً الأديان والمناهج الأخرى كلّها، الآية (١٥٣) من (الأنعام).

١٢) والتقوى يستر عورات صاحبه ويحفظه من السوء، مثله مثل اللّباس للبدن، الآية (٢٦) من (الأعراف).

١٣) والتقوى سبب لفتح الله الكريم أبواب البركات والخيرات المعنوية والمادية على المجتمعات، الآية (٩٦) من (الأعراف).

١٤) والتقوى يجعل الإنسان سريع التذكر لله تعالى، وشديد التبصّر بمكائد الشيطان في وساوسه، لذا قلّما يظفر الشيطان منه بشيء، الآية (٢٠١) من (الأعراف).

وهذه الآية دليل على أنَّه ليس من شرط التقوى أن يكون الإنسان محفوظاً دَوْماً من كيد الشيطان وشرِّه، بل قَدْ يخطيء ويخطأ، ولكن لا يتمادى في الغي، بل يرجع سريعاً.

١٥) والتقوى هو الذي يجعل العاقبة الحسنى مضمونة للإنسان المتقي، الآية (٤٩) من (هود) والآية (١٣٢) من (طه)، والعاقبة الحسنة تشمل الدنيا والآخرة كليهما.

١٦) وانما يصير الإنسان ولياً لله تبارك وتعالى، بالتقوى، الآيتان (٦٢، ٦٣) من (يونس) والآية (٣٤) من (الأنفال)، وكلما كان العبد أكثر تحقيقاً للتقوى، كلّما كان أكثر ولاية مع الله تعالى.

١٧) والتقوى هو الذي يجعل الإنسان مُعظِّماً لشعائر دين الله تبارك وتعالى، الآية (٣٢) من (الحج)، وتدل هذه الآية على أن محلّ التقوى ومركزه الذي يثبت فيه أصله، هو القلب، مثله مثل الإيمان، ومثل التعبّد لله تعالى.

١٨) والتقوى هو الغاية المطلوبة والحكمة المقصودة من الطاعة وأعمالها المتنوعة، وهو وحده الذي يعبأ الله تعالى به، الآية (٣٧) من (الحج).

١٩) وأهل التقوى هم وحدهم المُتَّعِظون بآيات الله البيِّنات، الآية (٣٤) من (النور).

٢٠ و٢١ و٢٢) والتقوى سبب لنزول السكينة في القلب، ومانع من استيلاء حَمِيَّة الجاهلية على القلب، ولا يوفق الله العليم الحكيم له، إلاّ من هو حقيق به وأهل له، الآية (٢٦) من (الفتح).

٢٣ و٢٤) والتقوى يجعل صاحبه متأدباً مع رسول الله ﷺ - ومَنْ ينوب عنه بحقّ - ولا يستقر التقوى في قلب، إلاّ بعد ابتلاء الله له وتمحيصه وتصفيته، الآية (٣) من (الحجرات)، فالقلب المدنَّس لا يستأهل أن ينزل عليه ضيف التقوى الكريم!.

٢٥) والتقوى سبب كرامة العبد عند الله ومن كان لله أتقى، فهو عنده أكرم، أياً كان، من دون اعتبار بجنسه ولونه... إلخ، الآية (١٣) من (الحجرات).

٢٦) والتقوى سبب لنزول رحمة الله على العبد، الآية (١٠) من (الحجرات)، إذاً: كلّما ازداد العبد تقىً، تنزلت عليه رحمة الله أكثر فأكثر.

٢٧) والتقوى يؤهِّل الإنسانَ، بأنْ يتوّلاه الله ويتخذه له ولياً، الآية (١٩) من (الجاثية).

٢٨ و٢٩) والتقوى سبب لحصول الفرقان، وتكفير السيئات ومغفرة الذنوب، الآية (٢٩) من (الأنفال)، والفرقان حالة تنوّر للبصيرة والقلب، يميز الإنسان بها بين الحق والباطل، والخير والشر، والنافع والضار.

٣٠ و٣١) والتقوى سبب لحصول الفرج من الضيق، وإصابة الرزق من جهة لم يُحْسَب لها حساب، الآيتان (٢، ٣) من (الطلاق).

٣٢) وكذلك التقوى سبب لتيسير الأمور العسيرة، الآية (٤) من (الطلاق).

٣٣) والتقوى سبب لإعظام الله تعالى أجر العبد، الآية (٥) من (الطلاق).

٣٤) وأهل التقوى هم الذين يتذكرون الحقائق التي يجب تذكرها، بسبب تلاوة أو استماع كتاب الله، الآية (٤٨) من (الحاقة).

٣٥) والتقوى يُيَسِّر على الإنسان التزام الشريعة السَّمحاء يُسَهِّلُهُ له، الآيات (٥ إلى١٠) من (الليل).

٣٦) وعكس التقوى وضدّه، هو الإستغناء عن الله تعالى، الآية (٨) من (الليل)، وأيضاً هو نسيان الله تعالى، الآيتان (١٨، ١٩) من (الحشر).

٣٧) والتقوى هو سبب الفوز الأخروي، الآية (٥٢) من (النور)، هذا وقد فسَّر بعض المُفَسرين التقوى، بأنه هو الخشية من الله تعالى، ولكن هذه الآية دليل على خطأ هذا الرأي، إذْ ذكر الله تعالى الخشية منه والتقوى منه في سياق واحد، وكذلك الطاعة لله والرسول ﷺ، إذاً: هذه ثلاثة أشياء متغايرة، ولكن يدخل بعضها في مفهوم بعض، عند انفرادها في سياق خاص، كما بيّناه في السابق.

٣٨) والتقوى أساس صلاح ذات البين، والأخوّة بين أهل الإيمان، الآية (١) من (الأنفال)، وذلك لأن من راعى حقوق الله تعالى، فسيراعي حقوق عباده التي هي جزء من حقوق الله التي أوجبها على العباد، ولكن مَنْ لم يراعِ حقوق الله، فأحرى به ألّا يراعي حقوق عباده.

٣٩) ويجب على المسلمين التعاون فيما بينهم لتحقيق البرّ فيما بينهم، والتقوى فيما بينهم وبين ربّهم، الآية (٢) من (المائدة).

وهذه الآية دليل على أن التقوى بالإضافة إلى كونه حالة شخصية، فهو حالة اجتماعية أيضاً، يتعاون المجتمعُ المسلم فيما بينه لتحقيقه، وهذه حقيقة عظيمة لا يعلمها كثير من المسلمين، فيتصوّرون أن التقوى ليس سوى شأنٍ شخصي روحي، يخصّ صاحبه فحسب!

ولكن هذا تصور غلَطٌ، إذ طالما أن التقوى هو النتيجة التي تتمخض

عنها العبادة لله، والعبادة هي الخضوع والإستسلام المطلق ظاهراً وباطناً لله تعالى، والذي يتمثل في الإلتزام بشريعته الشاملة لكل شؤون الحياة الخاصة والعامة، وأيضاً ما دام التقوى نفسه ـ كما بيّنا ـ له ارتباط بكل ميادين الحياة، وبكل حالات الإنسان شخصاً وأسرة ومجتمعاً ودولة، فالتقوى ليس شأناً شخصياً وخاصاً فَحَسْب، بل هو بالإضافة إلى هذا، شأن جماعي أيضا، ولهذا أمر الله أهل الإيمان، أن يتعاونوا ويتكاتفوا فيما بينهم لتحقيقه، ولتحقيق البِرّ، وكلمة (البِرّ) مثل كلمة (التقوى) معناها شامل وواسع حتى يسع الدين كله، بدليل آية (البرّ) في سورة (البقرة)، وذلك عندما تأتي في سياق منفردة، ولكن هنا بما أنها جاءت مقترنة بالتقوى، فالبرّ يعبِّر عمّا يَجِبُ أن يكون عليه المسلمون فيما بينهم[1]، والتقوى يعبِّر عمّا يَجِبُ أن يكون عليه المجتمع، فيما بينه وبين الله تبارك وتعالى، والحالة السليمة للمجتمع الإسلامي، هي أن يكون أفراده أتقياء وأبراراً، أي متقين لله، وبارّين بعضهم مع بعض.

٤٠) والتقوى أساس السّدادِ وإصابة الهدف في الكلام، واستقامة الأعمال وصلاحها، الآيتان (٧٠، ٧١) من (الأحزاب).

٤١) ونختم ثمار التقوى الطيبة وآثاره المباركة، بأنَّ التقوى هو وحده الذي يجعل جنّة الله ودار السلام ومحل الرِّضوان، مضمونة للعبد، وقد ذكر سبحانه وتعالى هذه الحقيقة ـ أي أن الجنّة لن تُنالَ إلّا بالتقوى ـ في سور وآيات كثيرة جداً، حيث يفهم من مجموع الأساليب التعبيرية المتعدّدة الواردة في تلك السور والآيات، أنّ: مَنْ لا تقوى له، لا نصيب ولا حظّ له في الآخرة، وَنِعَم الله ورضوانه، وهذه إشارة إلى معظم تلك السور والآيات المباركة التي جلَّت هذه الحقيقة:

١) الآية (١٥) من (آل عمران).

٢) الآية (١٦٩) من (الأعراف).

---

(١) مختار الصّحاح، ص٥٥، لفظ: ب ر ر.

٣) الآية (٥٧) من (يوسف).

٤) الآية (١٠٩) من (يوسف).

٥) الآيات (٤٥ إلى ٤٨) من (الحجر).

٦) الآية (٤٩) من (ص).

٧) الآيتان (٣٠، ٣١) من (النمل).

٨) الآية (٦٣) من (مريم).

٩) الآية (٧٣) من (الزمر).

١٠) الآية (٣٥) من (الرعد).

١١) الآية (١٥) من (محمد).

١٢) الآيتان (٥٤، ٥٥) من (القمر).

١٣) الآيات (١٥ إلى ١٩) من (الذاريات).

١٤) الآيتان (١٧، ١٨) من (الطور).

١٥) الآيات (٤١ إلى ٤٤) من (المرسلات).

١٦) الآية (١٣٣) من (آل عمران).

١٧) والآيات (٣٣، ٣٤، ٣٥) من (الزمر).

وبناءً على ما مرَّ:

قد تبيَّن لنا بجلاء أن التقوى فعلاً هو ينبوع الفضائل كلّها، وهو سبب ينال به الإنسان فرداً ومجتمعاً خير الدنيا والآخرة، وبقدر ما يحقق الناس التقوى في أنفسهم فرداً ومجموعاً، يؤهلهم تقواهم لنيل بركات الله المادية والمعنوية في الدنيا والآخرة، ولكن يجب أن نَتَنبَّهَ إلى حقيقة أن ذلك التقوى الذي من شأنه ما ذكرناه، هو التقوى الحقيقي الذي وضَّحْنا مفهومه في ضوء آيات كتاب الله، ولا شك أن هذا المفهوم الشرعي الحقيقي

الشامل، يختلف كثيراً عمّا ارتسم في أذهان الناس، من مفاهيم محرَّفة مبهوتة الألوان.

وفي ختام هذا المبحث الثاني (التقوى من الله تعالى) أذكّر بحقيقة وهي:

بما ان التقوى هي الثمرة الجامعة الشاملة لعبادة الله تعالى - كما ذكرنا سابقاً - والنتيجة التي تتمخَّض عنها، إذن:

فالتقوى وثماره وآثاره جميعاً أيضاً، من ثمار العبادة وآثارها المباركة في حياة الإنسان فرداً ومجتمعاً، ونختم هذا الموضوع بالآية الكريمة التي بدأنا بها وهي:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١﴾ [البقرة].

وبهذا ننهي الحديث عن الفصل الأول، وننتقل بإذن الله وتوفيقه إلى الفصل الثاني، الذي يتحدَّث عن المظهر الثاني من مظاهر الإهتداء الفردي بهدى الله تعالى.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑







الفصل الثاني

الإستمساك بكتاب الله الكريم


لە تۆڕە کۆمەڵایەتییەکان لەگەڵتانین
Stay in touch on social media
نحن معكم عبر مواقع التواصل الاجتماعي
MediaAmeerOffice
AliBapir/عەلی باپیر
AliBapirw/عەلی باپیر
AliBapir1
archive.org/details/@alibapir
AliBapir/عەلی باپیر
AliBapir
Google Play
App Store
www.alibapir.net
کوردی - عربي - English
AliBapir / عەلی باپیر
ڕاگەیاندنی مەکتەبی ئەمیر



وسنُفَصِّلُ القول عن موضوع هذا الفصل، في المباحث الخمسة الآتية:

١. **معنى الإستمساك بكتاب الله تعالى الكريم، وكيفيَّتُهُ.**

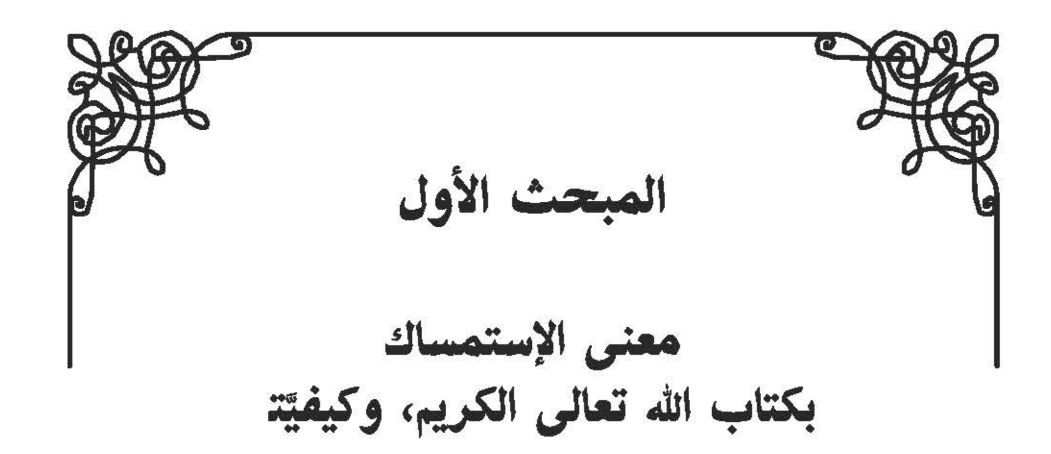
٢. **أهمية الإستمساك بكتاب الله الحكيم.**

٣. **حكم الإستمساك بكتاب الله العظيم.**

٤. **حكمة الأمر بالإستمساك بكتاب الله العزيز.**

٥. **تنبيهات حول اتباع كتاب الله المجيد والإستمساك به.**

❑❑❑❑❑❑



المبحث الأول

معنى الإستمساك
بكتاب الله تعالى الكريم، وكيفيّته

قال سبحانه وتعالى مخاطباً نبيه محمداً ﷺ:

﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾ [الزخرف]، والإستمساك يعني التمسّك بقوة وأخذ الشيء بشدّة، كي لا ينفلت من اليد[1]، والمقصود به هُنا: التمسّك بكتاب الله بجِدٍّ، ولا يتم هذا إلّا بِسَبْعَةِ أشياء مجتمعة، وهي:

١ ـ **الإيمان بكتاب الله وأنه كلامه المبارك الذي أنزله بواسطة جبريل على خاتم النبيين محمد ﷺ**، كما قال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء].

٢ ـ **تلاوته وترتيله**، كما قال تعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ...﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وقال: ﴿...وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤].

٣ ـ **الإستماع إليه باهتمام ـ عندما يُتلى ـ**: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ [الأعراف].

---

(١) مختار الصحاح، ص٥٣٨، لفظ: م س ك.

٤ - التدبّر فيه والسعي لفهمه فهماً صحيحاً سليماً: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ . . .﴾ [ص: ٢٩].

٥ - التذكّر والإتعاظ به: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ القمر، [القمر: ٢٢ - ٣٢ - ٤٠].

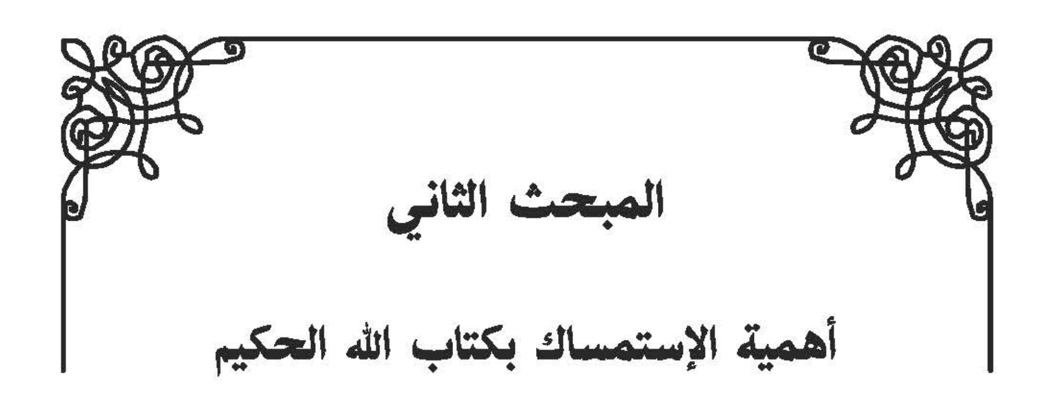
٦ - جعله نِبراساً للحياة، وفي كل المجالات: معرفة، وعقيدة، وعبادة، وخلقاً، وآداباً، ومعاملة، وسياسة... إلخ: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنعام].

٧ - ومن ثم اتبّاعُهُ وتحكيمه على النفس، وتطبيق أحكامه على كل جوانب الحياة: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأعراف]، ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأنعام].

وأرى أن أروع تعبير لتفسير معنى الإستمساك بكتاب الله هو التعبير الذي استعملته عائشة أم المؤمنين الصديقة بنت الصدّيق رضي الله عنهما إذ قالت في جواب مَن سألها عن خلق رسول الله ﷺ: (فإن خلق نبي الله كان القرآن)[1]، إذاً فالتمسك والإستعصام بكتاب الله الحكيم هو أن يُطَبِّعك القرآن بِطابعه، ويَصْبِغَك بصبغته - حسب طاقتك - كما كان رسول الله ﷺ.

* * *

(١) هذا هو نصُّ الحديث: «عَنْ سَعْدِ بنِ هِشَامٍ، فَقُلْتُ: يا أُمَّ المُؤْمِنِينَ! أَنبِئِيني عَنْ خُلُقِ رَسُولِ الله ﷺ! قَالَتْ: أَلَسْتَ تَقْرَأُ القُرْآنَ، قُلْتُ بَلَى. قَالَتْ فَإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ الله ﷺ كَانَ القُرْآنَ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ برقم: (٧٤٦).



المبحث الثاني

أهمية الإستمساك بكتاب الله الحكيم

إن الإستمساك بكتاب الله، بالمفهوم والكيفية اللَّذَيْنِ وضَّحْناهما، هو أساس الإيمان والإسلام والعبادة والتقوى، إذْ كتاب الله هو الذي يُعلِّمنا الإيمان ويُرشدنا إليه، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى]، وكذلك هو الذي يرسم لنا معالم الإسلام، ويبيِّن لنا أركانه وفرائضه، كما قال تعالى: ﴿...ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ ﴿٣﴾﴾ [المائدة]، وهو الذي يعلِّمنا العبادة بشعائرها وشرائعها، كما قال تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾﴾ [الزمر]، وأيضاً كتاب الله هو الذي يبصِّرنا بالتقوى، وكيفيته، وميادينه، وأوصاف أهله، كما قال تعالى مخاطباً نبيه الخاتم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴿٢﴾﴾ [الأحزاب]، وقال تعالى مُعْلناً أنه هو الذي يبيِّن التقوى وما يرتبط به: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ [التوبة]، وقال في نفس الموضوع: ﴿...وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٨٢﴾﴾ [البقرة].

أي: واتقوا الله، والله هو الذي يعلمكم بواسطة كتابه ووحيه، كيف تتّقونه، لأنه بكل شيء عليم[1].

وجديرٌ بالذكر أن كل الآيات المباركة التي يأمر فيها الله تعالى البشر عموماً، وأهل الإيمان خصوصاً، بالإيمان بكتاب الله أو تلاوته وترتيله، أو تدبّره، أو الإستماع له، أو التذكر به، أو اتّباعه، والتي أشرنا إلى بعضها في المبحث الأول، وكذلك الآيات التي يأمر فيها الله تعالى الناس عموماً والمؤمنين خصوصاً، بإطاعته وإطاعة رسوله ﷺ، كل تلك الآيات مجلية لأهمية الإستمساك بكتاب الله تعالى، وهذه معظم الآيات التي تأمر بإطاعة الله تعالى وإطاعة رسول الله ﷺ:

١ - ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٣٢)﴾ [آل عمران].

٢ - ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٣٢)﴾ [آل عمران].

٣ - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ﴾ [النساء].

٤ - ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا (٦٩)﴾ [النساء].

٥ - ﴿... وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١].

---

(١) واستدلال بعض أهل التصوف بهذه الجملة المباركة على أن التقوى بديلٌ عن التعلُّم، وأنَّ من اتَّقى الله تعالى، سَيُغْنيه عن اكتساب العلم، خطأٌ، اذ لو كان المقصود بالجملة القرآنية المباركة ما زَعَمُوا، لكانت الجملة هكذا: (واتقوا الله يُعلِّمْكُم الله)، ومن المعلوم أن من مقتضيات التقوى: طلَبُ العلم من مَظانِّه*.
* مظانّ: جمع مَظِنّة، ومَظِنّة الشيء: موضعه ومألَفُه الذي يُظَن كونُهُ فيه.
مختار الصحاح، ص٣٥٩، لفظ: ظ ن ن.

٦ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ٢٠﴾ [الأنفال].

٧ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٢٤ . . .﴾ [الأنفال].

٨ ـ ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ . . .﴾ [الأنفال: ٤٦].

٩ ـ ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٧١﴾ [التوبة].

١٠ ـ ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٥٤﴾ [النور].

١١ ـ ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا ٣٦﴾ [الأحزاب].

١٢ ـ ﴿. . .وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧١].

١٣ ـ ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ ٣٣﴾ [محمد].

١٤ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١﴾ [الحجرات].

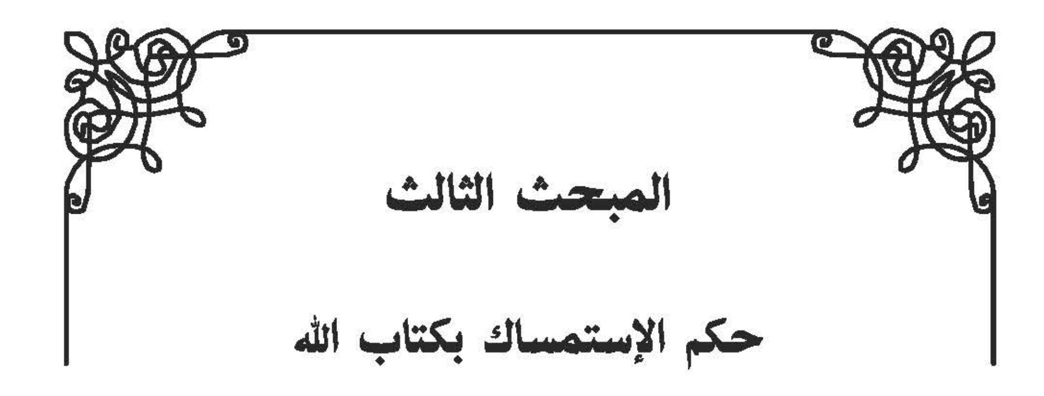
١٥ ـ ﴿. . .وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٤].

وانما يدلّ الأمر بإطاعة الله ورسوله ﷺ، على الإستمساك بكتاب الله

العظيم واتباعه، لأن إطاعة الله تبارك وتعالى، تتمثل في اتِّباع كتابه، وإلّا فكيف وفي ماذا وبماذا نطيعه؟! وكذلك إطاعة الرسول ﷺ تتمثّل في التمسّك بكتاب الله الذي هو منهاج النبي الخاتم، وشريعته التي أمره الله تعالى بإتِّباعها والسير عليها، كما قال: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الجاثية]، وقال: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا...﴾ [المائدة: ٤٨].

وسنة رسول الله ﷺ بأنواعها الثلاثة: (قولاً وفعلاً وتقريراً) ليست سوى مبيِّن لكتاب الله، وشرح وتوضيح لكيفية تطبيقه وتنزيله على أرض الواقع، كما قال تعالى: ﴿...وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

❑❑❑❑❑❑



المبحث الثالث

حكم الإستمساك بكتاب الله

يتجلّى بوضوح من الآيات التي مرّ ذكرها في المبحث السابق، أنَّ حكم الإستمساك بكتاب الله بكل ما يشتمل عليه لفظ (الإستمساك) من معانٍ والتي وضّحناها في المبحث الأول، هو الوجوب والحتم الذي يقابله الكفر والخروج عن الجادة، وذلك للأدلّة التسعة الآتية:

أولاً: عَدَّ سبحانه وتعالى إطاعة الله ورسوله، سبباً لنيل رحمته، كما في الآية (١٣٢) من (آل عمران) والآية (٧١) من (التوبة)، وجلي أنه لا يمكن إطاعة الله ورسوله، من دون الإستمساك بكتاب الله.

ثانياً: وأيضاً جعل الله تعالى الإطاعة له ولرسوله، سبباً للفوز العظيم، كما في الآية (٧١) من (الأحزاب).

ثالثاً: بل في الآية (٥٩) من (النساء)، جعل سبحانه وتعالى الإطاعة له ولرسوله، شرطاً لحصول الإيمان، وكذلك في الآية (١) من (الأنفال) وواضح أن وجود المشروط مرهون بوجود الشرط، فإذا انتفى الشرط، انتفى المشروط.

رابعاً: وَعَدَّ سبحانه وتعالى المتولّيَ عن طاعته هو ورسوله، في عِداد الكافرين، كما في الآية (٣٢) من (آل عمران).

امساً: وجعل الإستجابة له ولرسوله ـ والتي تتمثل في اتّباع كتاب الله ـ سبباً للحياة التي عكسها الموت، كما في الآية (٢٤) من (الأنفال)، والمقصود بالحياة، هو الحياة المعنوية المتمثلة في الإيمان، وكذلك الموت، هو الموت المعنوي المتمثل في الكفر.

سادساً: وجعل سبحانه وتعالى مخالفة أمره وأمر رسوله ﷺ ضلالاً واضحاً، كما في الآية (٣٦) من (الأحزاب).

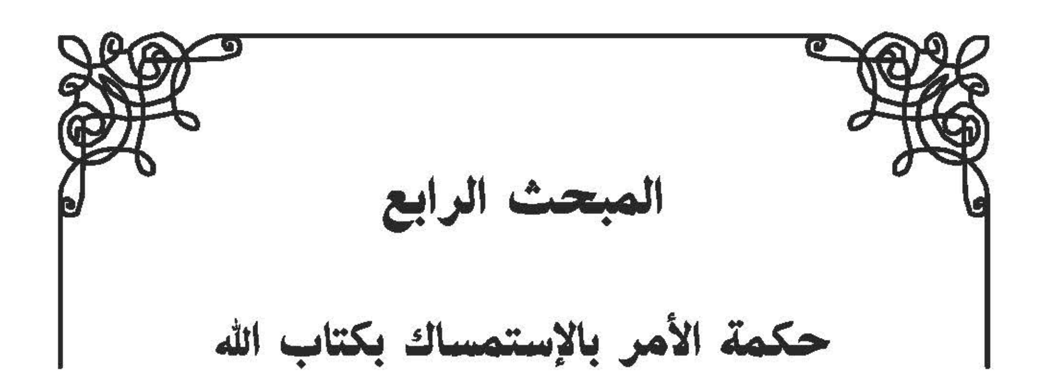
سابعاً: وجعل تبارك وتعالى إطاعة أمره وأمر رسوله، سبباً لقبول الأعمال وحفظها، كما في الآية (١٤) من (الحجرات).

ثامناً: كما وَعَدَّ عَدَم الإطاعة له ولرسوله، سبباً لبطلان الأعمال واضمِحلالها، كما في الآية (٣٣) من (محمد).

اسعاً: وأخيراً وليس آخراً، عَدَّ سبحانه وتعالى عدم التقدّم عليه وعلى رسوله، أو عدم تقديم قول وعمل ورأي على الله ورسوله[١] ـ أي كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ـ (تقوىً) ومعلوم أن خلاف التقوى هو الفجور والإنحراف، كما في الآية (١) من (الحجرات).

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) وذلك حسب القراءتين: (تَقَدَّموا) و(تُقَدِّموا)، لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾.



المبحث الرابع

حكمة الأمر بالإستمساك بكتاب الله

والحكمة في ذلك هي: أن وحي الله المتمثل في كتابه الكريم، هو السبب الوحيد للهداية والرشد والإستقامة، أي لا يمكن للإنسان فرداً وجماعة من دون التمسك بكتاب الله واتباعه، أن يحقق لنفسه حياة يكون فيها على هدىً ورشاد واستقامة، بل يظل في ضلال وغيّ وانحراف، مهما بلغ من العلم الظاهري والتحضّر المادي ما بلغ، ما لم يعتصم بحبل الله المتين، وما لم يهتد بهدى كتابه المبين، كما قال تعالى:

١ ـ ﴿... قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰۗ ...﴾ [البقرة: ١٢٠].

٢ ـ ﴿... قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ ...﴾ [آل عمران: ٧٣].

٣ ـ ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾﴾ [الجن].

٤ ـ ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ...﴾ [الإسراء: ٩].

٥ ـ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾ [التكوير].

نعم إن حكمة الأمر بالإستمساك بكتاب الله الحكيم والتأكيد عليه، هي أن الهدى والرشاد والإستقامة، لن تُنال إلّا باتباعه والتسليم لأوامره وتوجيهاته، وما لم يتمسّك الإنسان فرداً ومجتمعاً، بذلك النور الربّاني، فسيبقى في دياجير الظلام لا محالة، ولهذا خاطب الربّ الجليل سبحانه وتعالى الناس عموماً، وأهل الإيمان خصوصاً، بهذا الخطاب المبارك الذي

لمؤه اللطف والرحمة والكرم: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾﴾ [الحديد].

والإنسان عندما يتأمل واقع المجتمعات البشرية الناكبة عن صراط الله المستقيم، ويراها غارقة في مستنقعات الضلالة، من حيث التصورات والمعرفة حول الوجود، ومن حيث الموقف عن الله تبارك وتعالى ووحيه المحفوظ الوحيد، ومن حيث الأخلاقُ والقِيَمُ، ومن حيث الحكمُ والسياسة... إلخ، ثم يقارن بين تلك الأوضاع المزرية المخزية، والمستوى الرفيع السامق الذي يدعو اليه كتاب الله، البشرية، يشاهد بعين اليقين، مِصْداقَ ما قلنا، حيث يرى بأن البشرية ومجتمعاتها المتعدّدة، بالرغم مِمّا وصَلَتْهُ من رُقيٍّ ماديٍ وتحضرٍ وتمدنٍ وتقدّم تكنولوجي، تعاني من أشد أنواع الجاهلية، والردّة الى الأخلاق البهيمية، في كلِّ نواحي حياتها المعرفية والخلقية والروحية والإجتماعية والسياسية والإقتصادية.

أما معرفياً فأكثر ثلاثة أرباع البشرية يعبدون غير الله تعالى (أي الأصنام) بدءاً ببوذا، الذي يعبده الصينيون واليابانيون وغيرهم، ومروراً بالبقر وأنواع الحيوانات والنباتات التي يعبدها الهندوس وشعوب أخرى، في مختلف بقاع العالم، ووصولاً إلى المسيح ابن مريم عليهما السلام الذي يعبده النصارى مدّعين أنه (ابن الله)! تعالى الله عما يقول الظالمون عُلواً كبيراً.

وأما خلقياً وروحياً واجتماعياً، فحدِّثْ ولا حَرَج، عمّا وصلته البشرية من حضيض ودرك أسفل، وما العري والتبرّج الفاضح، والشذوذ الجنسي بأنواعه، وانتشار المواد المخدِّرة بأنواعها، وتفكك العائلة، والإنغماس في الشهوات... إلّا مظاهر من التفسُّخ الخلقي، والخواء الروحي، والفساد الإجتماعي الذي وصلته البشرية.

وأما سياسياً، فكفى بالبشرية تعاسة وشقاءً أن يهيمن على مصيرها ـ ظاهرياً ـ بعض الدول المستكبرة المتفقة فيما بينها على تقسيم الغنائم،

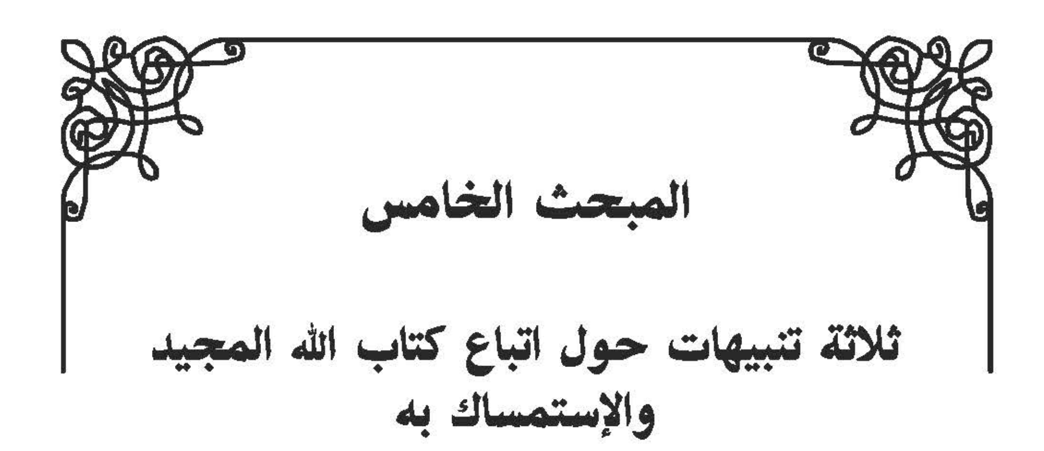
وملأ الجيوب، من غير أي حساب لدين أو خلق أو قيم!

وأما اقتصادياً فتزداد الهُوَّةُ يوماً بعد يوم، ما بين المُتْرَفين الظلمة والفقراء والمضطهدين اتساعاً، حيث تدلّ الإحصائيات أن معدَّل دخل الإنسان الغربي عموماً، يساوي أكثر من سبعين ضعفاً لنظيره في المجتمعات الفقيرة، وفي الوقت الذي يمتلك (١٪) من أفراد المجتمعات المترفة، أكثر من نصف الثروة العالمية، يعيش أكثر من ربع العالم ـ أي أكثر من مليار ونصف (١,٥٠٠,٠٠٠,٠٠٠) ـ في حالة فقرٍ، ويموت منهم سنوياً بالآلاف!!

ولا شيء يوقف هذا التدهور الشامل والسريع على كافة الأصعدة، إلّا التمسك بكتاب الله الحكيم، الذي يهدي البشرية بالمعنى الكامل للهداية ـ معرفياً وإيمانياً وعبادياً وخلقياً واجتماعيا وسياسيا واقتصادياً ـ إلى الحياة الرشيدة المستقيمة المتوازنة، التي تشهد العقول السليمة والفطر الصحيحة، بأنها هي أقوم حياة حتى بالمقاييس الدنيوية!

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑





المبحث الخامس

ثلاثة تنبيهات حول اتباع كتاب الله المجيد والإستمساك به

أولاً: لا يمكن اتّباع كتاب الله، من دون فهمه فهماً صحيحاً، والفهم الصحيح لكتاب الله، متوقف على العقل والعلم والتقوى:

نعم إن اتباع كتاب الله، هو روح الإستمساك به ولا يتسنّى الاتباع، إلّا بعد الفهم الصحيح، والفهم الصحيح لكتاب الله ومقداره، متوقف على مقدار قوة عقل الإنسان، ومقدار علمه ورسوخه فيه، وكيفية تقواه، أي إن الإنسان كلّما كان أرجح عقلاً، وأغزر علماً، وأوسع معرفة، وأكمل تقوى، كلما كان أقدر على فهم كتاب الله الحكيم، فهماً صحيحاً سليماً، والدليل على ما قلنا هو قوله تعالى:

أ - ﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾﴾ [الرعد].

ب - ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾ [البقرة].

ج - ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص].

هذا بالنسبة لتوقف فهم كتاب الله على رجاحة العقل.

وأما بالنسبة لتوقفه على العلم والمعرفة، فيقول سبحانه وتعالى:

أ) ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٦﴾ [سبأ].

ب) ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ۝٤٣﴾ [العنكبوت].

وبالنسبة للزوم التقوى، لِفهم كتاب الله، قال سبحانه وتعالى:

أ) ﴿الم ۝١ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة].

ب) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ۝٢٩﴾ [الأنفال].

وبناءً على ما مرَّ ذكره، نقول:

طالما أن درجات العقل والعلم والتقوى عند الناس مختلفة، فدرجات فهمهم لكتاب الله أيضاً، تكون مختلفة، وكتاب الله الكريم يسع الناس كلَّهم، على مختلف طبقاتهم ودرجاتهم، ويبقى فيه من الأنوار والأسرار والحقائق، ما لا يعلمه سوى مُنزِّله الحكيم جلّ شأنه.

ثانيا: العلاقة بين الكتاب والسنة:

يتصوّر كثير من الناس أن العلاقة بين القرآن العظيم والسنة النبوية، مثل العلاقة بين المتن والشرح! ولكن هذا التصور لا يصح على إطلاقه، وذلك لأن رسول الله ﷺ لو كان يرى كتاب الله متناً يحتاج إلى شرح وتفسير، لَشرَحه لنا كُلَّه ولَفسَّره لنا، ولكن لا نجد في السنة النبوية من شرح وتفسير لكتاب الله المبين، إلّا تعليقات أو توضيحات قليلة جداً على بعض الآيات المباركات!

إذن: تُرى ما هي كيفية علاقة الكتاب والسنة؟!

بعد التأمل والتدبّر في هذه المسألة، اقتنعت بأن العلاقة بين كتاب الله العظيم وسنته نبيه الكريم، هي مثل العلاقة بين الآلة والكتلوك (الدليل) المرفق معها!

وذلك لأن الرسول ﷺ بيّن لنا في سنته الحكيمة، كيفية العمل بكتاب الله، وكيفية تنزيله على أرض الواقع، وهذا هو المقصود بقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل]، وتبيين الرسول ﷺ لكتاب الله، كان بعمله المتواصل وأفعاله الحكيمة وتطبيقاته، أكثر منه بأقواله، فهو على سبيل الله المثال: كان يصلي أمام أنظار أصحابه في المسجد على المنبر، ثم يقول لهم: «**صلوا كما رأيتموني أصلي**» رَوَاهُ البُخَارِيُّ برقم: (٧٢٤٦)، وَمُسْلِمٌ برقم: (٦٧٤)، وأيضاً حجّ واعتمر أمامهم في سنة حجة الوداع، وكان يقول في خضمّ مناسك الحج العمرة وأعمالها: «**لتَأْخذُوا مَنَاسِكَكُمْ، فَإِنِّي لَا أَدْرِي لَعَلِّي لَا أَحجُ بَعْد حجَّتِي هَذِهِ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ برقم: (١٢٩٧)، وهكذا بقية أعمال الإسلام من شعائر وشرائع وسلوكيات، من ذكر ودعاء وذبح وصيام وجهاد وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر، وقضاء وإقامة حدود، وتصرُّفات يومية، من أكل وشرب وجلوس ومشيٍ وسكون وكلام... إلخ.

وبناءً عليه نقول:

إن تبيين الرسول ﷺ لكيفية إعمال كتاب الله وتنزيله على الواقع، لم يكن شاملاً ومستغرقاً لكل كلام الله المبارك، بل كان مقتصراً على الجوانب التي تحتاج إلى التبيين والتوضيح، وهي الأشياء التي أجمل ذكرها، ولم تُبيِّن كيفياتُها، فتكفَّلت السنة النبوية بتفصيلها وشرحها، وانما وَضَّحْتُ هذه المسألة، كي لا يظن ظان بأن كتاب الله المبين، لا يمكن فهمه إلّا على أساس تبيين الرسول ﷺ وتفسيره، كيف وقد سمّى سبحانه وتعالى كتابه مبيناً: ﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾﴾ [الدخان]، ووصفه بأنه سهّله للذكر والفهم: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر]، ثم وكما قلنا سابقاً لو كان المقصود بقوله سبحانه وتعالى: ﴿...وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل]، توضيح كُلِّ كتاب الله وتفسيره، لقام رسول الله ﷺ بما أمره الله تعالى به خير قيام، ولكن لم يُفَسِّرْ رسول الله ﷺ كتابَ الله التفسير المعهود الذي يتبادر إلى الذهن، بل كُلُّ ما قام به هو: تطبيقه لكتاب الله من خلال سيرته العملية، بكلتا

مرحلتيها المكية والمدنية، كُلُّ توجيهٍ، وكل أمرٍ ونهيٍ وحكمٍ، في مرحلته، وفي وقته المناسب، إذن هذا هو التبيين الذي أُمِرَ بهِ رسولُ الله ﷺ لكتاب الله، والذي قام به كما أمر الله به، خير قيام وعلى أكمل وجه.

والآن نحن عندما نقرأ كتاب الله العظيم ونتأمّله ونتدبّره، نَراهُ مبيناً وواضحاً من حيث مفرداته وجمله ومقاصدهُ، ولكن عندما نريد أن نواجه به الواقع ونتحرك به، ونغيّر به الأوضاع ونُصْلِحَها، نرانا بأمسّ الحاجة إلى السنة النبوية الحكيمة، التي ترشدنا وتهدينا إلى كيفية العمل والتحرك والفعل المناسب والموقف المكافيء، في كل ظرْفٍ وفي كل مرحلة، من خلال مسيرة العمل والجهاد الإسلامي.

ثالثاً: لا يمكن اتِّباع كتاب الله اتِّباعاً كاملا، إلّا عند وجود مجتمع إسلامي يملك أمر نفسه:

نعم إن اتباع كتاب الله اتباعاً كاملاً، والذي يتمثل في الأخذ به كلّه، وتطبيقه على الحياة بكافة جوانبها المتعدّدة، لا يمكن تحقيقه فردياً، وانّما يستلزم اتباعه اتباعاً كاملاً، وجودَ جماعةٍ ثم مجتمعٍ إسلامي يملك أمر نفسه، ويقف على قَدَمَيْه، ولهذا لم يأمر سبحانه وتعالى المسلمين باتباع كتابه وتطبيق أحكامه، إلّا بعد أن مكنَ لهم في الأرض وصاروا مجتمعاً، وأصبحت لهم شوكة ودولة، لذا نرى أن كل الآيات التي تأمر بتحكيم كتاب الله، وتأمر بإطاعة الله ورسوله ﷺ هي الآيات التي نزلت في المدينة، أي بعد أن صار للمسلمين مجتمع ودولة في ظل دينهم، وهذه بعض الآيات في هذا المجال:

أ - ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۝١٠٥﴾ [النساء].

ب - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۝٥٩﴾ [النساء].

ج - ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ۝٦٥﴾ [النساء].

ولكن في المرحلة المكية، كان الأمر باتِّباع الوحي المتمثل في كتاب الله مُوَجَّهاً في الأعم الأغلب لرسول الله ﷺ فَحَسْب، وذلك لأنه لم يكن يملك إلّا أمر نفسه فقط، ولم يتكوّن لَهُ بَعْدُ مجتمعٌ أعطاهُ قِيادَهُ وملَّكه زمام أمره، بحيث يمكنه تطبيق كتاب الله عليه، وهذه بعض الآيات في هذا المجال:

أ) ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [الأنعام].

ب) ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الجاثية].

ج) ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [يونس].

وهذه هي حكمة عدم إنزال الله تبارك وتعالى السور الحاوية على الأحكام والتشريعات المتعلقة بمختلف جوانب الحياة السياسية والإجتماعية والإقتصادية في مكة، وذلك لأن دين الله الحكيم دين واقعي، أي: يراعي الواقع ويتعامل معه كما هو، ويغيّره ويصلحه تدريجياً وبمراحل، وحيث لم يكن وجود للمجتمع الإسلامي في مكة، لم ينزل الله الحكيم الأحكام والتشريعات التي يتطلب تنفيذها، وجودُ مجتمع ذي شوكة ومالك لأمر نفسه.

وهناك آيات في السور المكية، يأمر فيها سبحانه وتعالى بصيغة الجمع اتِّباع كتابه، مثل قوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأعراف]، وقوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأنعام]، وواضح عند التأمل في السياقات التي وردت فيها هذه الآيات، أن المقصود بها هو الناس جميعاً والمراد باتباع الكتاب، هو الإيمان به والتسليم لحقائقهِ، وليس المقصود بها المسلمين فقط.

ولكن ما مرَّ ذكره، لا يعني أن المسلمين ما لم يتمتّعوا بوجود مجتمع إسلامي مالك لزمام أمره، هم في حِلٍّ عن اتباع كتاب الله والإلتزام بأحكامه

التي يمكنهم الإلتزام بها! وذلك لأن الله تعالى قال: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ. . .﴾ [التغابن: ١٦].

وقال رسول الله ﷺ: «وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ: البُخَارِيُّ برقم: (٧٢٨٨)، وَمُسْلِمٌ برقم: (١٣٣٧)، وأيضاً من القواعد الشرعية المتفق عليها بين العلماء كافة: (لا يسقط الميسور بالمعسور) وانما كان قصدنا من توضيح الحقيقة التي مرّ ذكرها، هو أنّه مادام المسلمون مأمورين باتباع كتاب الله اتباعاً كاملاً، ثم لا يتسنّى لهم هذا الإتباع إلّا بأن يتمتّعوا بوجود مجتمع إسلامي مكين مالك لأمر نفسه، إِذن: فالسعي لإيجاد ذلك المجتمع، فرض عليهم جميعاً، ويأثمون بالتقصير فيه، وذلك لأن: (للوسائل حكم المقاصد) و(ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب)، قاعدتان شرعيتان، اتفق عليهما العلماء قاطبة.

نعم، كما أن الصلاة لا تجوز إقامتها إلّا بطهارة ووضوء، لذا يجب كل منهما على الذي يريد إقامة الصلاة، إذ هما شرطان لازمان لِصحتها، كذلك طالما أن اتباع كتاب الله والإلتزام به كاملاً، لن يتأتّى إلّا في حالة كون المسلمين مجتمعاً متماسكاً، لِذا يجب على المسلمين، حيثما كانوا، أن يجعَلوا أنفسهم، بحيث يتمكنون من إقامة دين الله تبارك وتعالى باتباع كتابه الكريم، وإذا ما قصروا في هذا الأمر، فهم آثمون ومعاقَبون.

وجديرٌ بالذكر أن كون المسلمين مجتمعاً متماسكاً مالكاً لأمر نفسه وواقفاً على قدميه، واجبٌ عليهم أيضاً في حدّ ذاته، وذلك لوجود آيات وأحاديث كثيرة جداً، تأمر أهل الإيمان بالوحدة والأخوة والتآلف، وتنهى عن التفرق والتشرذم والتنازع، ولسنا الآن بصدد ذلك البحث، وانما أردنا فقط التنبيه عليه، كي يعلم من لا يعلم، أن وجوب كون المسلمين مجتمعاً متماسكاً متآخياً متآلفاً، شيء عميق الجذور ومرتبط بأصل الدين والإيمان والتوحيد، وليس شيئاً طارئاً يجب عليهم في مرحلة من مراحل وجودهم فحسب.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑



الفصل الثالث

الإِتِّباعُ لرسول الله ﷺ


MediaAmeerOffice
له تۆڕە کۆمەڵایەتییەکان لەگەڵتانین
Stay in touch on social media
نحن معكم عبر مواقع التواصل الاجتماعي
AliBapir/عەلی باپیر
AliBapirw/عەلی باپیر
AliBapir1
archive.org/details/@alibapir
AliBapir/عەلی باپیر
AliBapir
Google Play
App Store
www.alibapir.net
English - عربي - کوردی
AliBapir / عەلی باپیر
ڕاگەیاندنی مەکتەبی ئەمیر



إنَّ اتباع رسول الله ﷺ هو المظهر الثالث، من مظاهر اهتداء الإنسان بهدى الله، والتزامه بشريعته في خاصة نفسه، وسنوضح هذا الفصل الثالث في المباحث الستة الآتية بإذن الله:

١. **معنى اتّباع الرسول ﷺ وكيفيّتُهُ.**

٢. **حكم اتباع الرسول ﷺ وأهميته.**

٣. **اتباع الرسول ﷺ مثل الإستمساك بكتاب الله له جانبان: فردي وجماعي.**

٤. **أتباع الرسول الصادقون وورّاثه الكاملون، هم الذين يتمثّلون سنتهُ كاملاً، وبكل جوانبها.**

٥. **لا يمكن اتباع الرسول ﷺ كما ينبغي، إلّا بعد فهم كتاب الله والإستمساك به.**

٦. **مجالات اتباع الرسول ﷺ وميادينه.**

وهذه الحقائق الست، تَهبها إيانا، الآياتُ المباركات الآتية، فلنتدبَّرها:

١ ـ ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [آل عمران].

٢ ـ ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ﴿٦٤﴾﴾ [النساء].

٣ ـ ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ﴿٨٠﴾﴾ [النساء].

٤ ـ ﴿... ۞ وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف].

٥ ـ ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف].

٦ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنفال].

٧ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأنفال].

٨ ـ ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٧﴾﴾ [التوبة].

٩ ـ ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾ [النور].

١٠ ـ ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور].

١١ ـ ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفرقان].

١٢ ـ ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب].

١٣ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾﴾ [الحجرات].

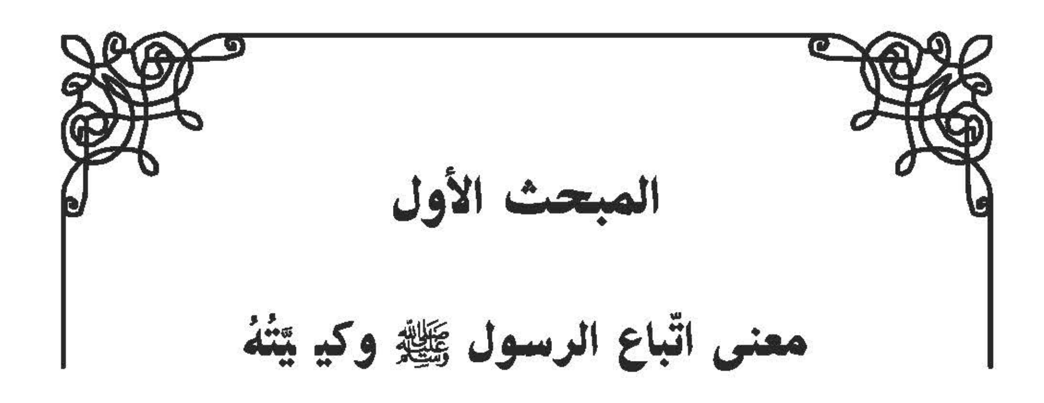
١٤ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾﴾ [الحجرات].

١٥ ـ ﴿...وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

والآن لنشرعْ في سرد وتوضيح الحقائق الست، التي توضِّح اتِّباعَ الرسول ﷺ، كلٌّ منها في مبحث مُستقل:

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑





المبحث الأول

معنى اتّباع الرسول ﷺ وكيفيّتُهُ

معنى اتباع الرسول ﷺ هو الإقتداء والتأسّي به وتتبّع خطاه والسّير وفق سيرته، وكيفيته هي أن نتخذ سنّته وطريقته المباركة نِبراساً لنا، وننسج على مِنوالها في كل شؤون حياتنا الشخصية والجماعية، أي: معرفة وإيماناً وعبادة وخلقاً ومعاملة وجهاداً وسياسة... إلخ.

وذلك لأن الله تعالى لم يبعث نبياً من أنبيائه، ولم يرسل رسولاً من رسله، إلّا لِيُتَّبَع ويُطاع ويُقْتَفى أَثَرُهُ، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴿٦٤﴾﴾ [النساء]، والحكمة الكبرى من جعل الله تبارك وتعالى رسله وأنبياءه من البشر، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ﴿١٠٩﴾﴾ [يوسف]، نعم حكمة جعل الله تعالى أنبياءه ورسله رجالاً، ومن البشر فَحَسْبُ، هي أن يتمكن الناس من الإقتداء بهم، والسّير بسيرهم، في كيفية إمرار مرحلة حياتهم الدنيوية، وفقاً لمرضاة الله تبارك وتعالى، وذلك كي تتم حجة الله البالغة على الناس جميعاً، ولا يبقى لهم عذر، في عدم التعبّد لله تعالى، وعدم العيش حسب منهج الله الذي يحقق لهم سعادة الدنيا وفلاح الأخرى، كما قال جل شأنه: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ [النساء].

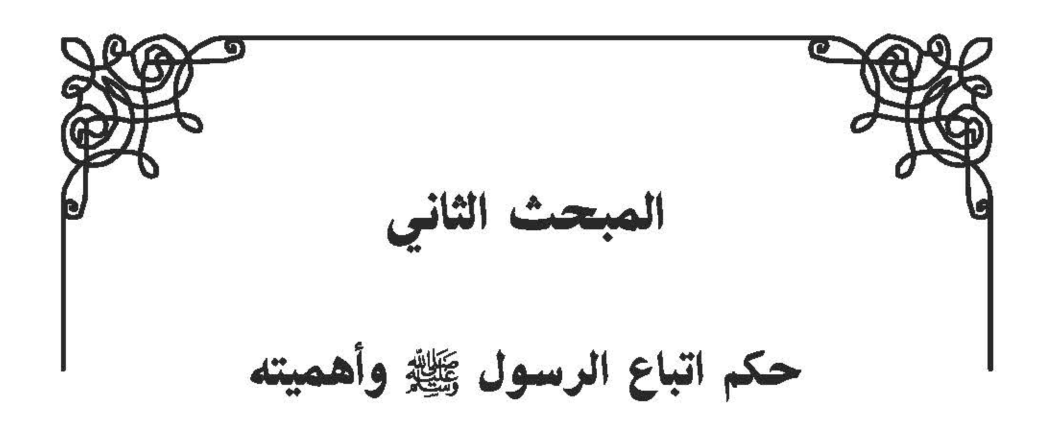
ولو أن الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام كانوا ـ كما كان يطالب

بذلك جهلاً أو عناداً أهل الكفر عموماً ـ من الملائكة، مثلاً، لَما أمكن للبشر الإقتداء بهم والسّير بسيرهم، وكيف يقتدي الناس بملائكة لا يأكلون ولا يشربون ولا ينامون ولا يتناكحون... إلخ؟! ولهذا نبّه سبحانه وتعالى على هذه الحقيقة في أكثر من آية، فقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ...﴾ [الفرقان:٢٠]، وقال: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَذُرِّيَّةٗ...﴾ [الرعد: ٣٨].

وقد كان الأنبياء والرسل كلُّهم، أكمَل الناس بَشَريَّةً، روحاً وعقلاً وجسماً وعاطفة، وخصوصاً خاتم النبيين (محمد) ﷺ الذي أرسله الله الحكيم كي يكون سراجاً منيراً للبشرية كافة، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، يُنير لهم طريق الحياة القويمة المستقيمة، التي تحقق رضى الله تبارك وتعالى، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا ﴿٤٧﴾﴾ [الأحزاب].

هذا وسيتوضّح معنى وكيفية اتباع الرسول ﷺ، أكثر فأكثر في غضون المباحث الأخرى، ولهذا نكتفي هنا بهذا القدر، وإلّا فإن للمسألة جوانب أخرى تَجبُ الإشارةُ إليها وستأتي.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑



المبحث الثاني

حكم اتباع الرسول ﷺ وأهميته

حكم اتباع الرسول النبي الأمي ـ مثله مثل سائر الأنبياء الكرام ـ عليه وعليهم الصلاة والسلام، هو الوجوب الذي يقابله الكفر والخروج من الملّة، وليس الوجوب الذي هو في مقابل النّدب والتطوع، وكثير من الآيات الّتي أوردناها في أول هذا الفصل، تدلّ على هذا أوضح الدلالة وأجلاها، فلنتأملها:

أولاً: أما الآية (٣١) من (آل عمران): ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ...﴾، فيجعل فيها سبحانه وتعالى اتباع الرسول ﷺ، دليلاً على اثبات وجود محبة الله في قلب العبد، وعِلاوةً على هذا، سبباً لمحبة الله للعبد ومغفرته له، إذن: من لم يتبع الرسول ﷺ فلا يُصَدَّقُ في دعوى محبّته لله تعالى، ومن كان كذلك، فلا يوجَدُ في حَقِّه سَبَبٌ يوجب محبة الله ومغفرته له، وواضح أن بديل محبة الله، ليس سوى غضبه، وليس بديل مغفرته، سوى عقابه!

ثانياً: وأما الآية (٣٢) من (آل عمران): ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾، فيعلن فيها الله تعالى بوضوح: أنّ من أعرض عن طاعة الرسول التي هي الجزء المهم من اتباعه، وتَولّى عنها، فهو يدخل في سلك الكافرين الذين لا يحبهم الله تعالى.

ثالثاً: وأما الآيتان (١٥٦، ١٥٧) من (الأعراف) فيبيِّن فيهما الله تعالى بأنه يختصُّ برحمته المتقين المؤتين للزكاة، والمؤمنين بآياته، والتابعين

للرسول الأمي: ﴿... ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ...﴾، وعليه: مَنْ لم يكن متّبِعاً للنبي الأمي، فهو محروم من رحمة الله الواسعة التي وسعت كل شيء.

رابعاً: وأما الآية (١٥٨) من (الأعراف): ﴿... فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾، فتدل على أنَّ من لم يتبع الرسول النبي الأمي، فهو محروم من الهداية، وليس بديل الهداية سوى الضلال!

خامساً: وأما الآيتان: (٢٤، ٢٥) من (الأنفال) فيبيِّن فيهما سبحانه تعالى أن الإستجابة لله وللرسول ﷺ هي سبب حياة أهل الإيمان، ولكن خلافها سبب للفتنة العامة التي لا تقتصر على الظالمين، بل تشمل الجميع من جرّاء مخالفة الرسول ﷺ.

سادساً: وأما الآية (٦٣) من (النور) فيهدّد الله تعالى فيها المخالفين لأمر الرسول ﷺ بشيئين: الفتنة (في الدنيا)، والعذاب الأليم (في الآخرة) ويفهم من السياق أن المقصود بالفتنة هنا، هو الكفر والإرتداد، أو المقصود بها هو تَسَلُّط الكفار على المسلمين، وربّما هذا الوجه الثاني في معنى الفتنة أقوى من الأول، وذلك لأن تسلّط الكفار على المسلمين، من جرّاء الحيدة عن سنة الرسول ﷺ يقابل العذاب الأليم الأخروي، وكلاهما عذاب، أحدهما هنا، والآخر هناك.

سابعاً: ومما يدّل على حكم اتباع رسول الله ﷺ وأهميته وخطورة التولي عنه، الآيات (٢٧، ٢٨، ٢٩) من (الفرقان) إذْ يبيِّن فيها الله العزيز

كيف أن الإنسان الذي انحرف عن سبيل الرسول، واتخذ غيره خليلاً، يعضُّ يديه يوم القيامة حسرة وندامة، ولكن لات حين مندم!

ثامناً: والآية (٢١) من (الأحزاب): ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾، يفهم منها بوضوح أن كل من كان راجياً لرحمة الله وفضله، وآملاً في نجاة اليوم الآخر، وكثير الذكر لله تعالى، فرسول الله ﷺ هو قدوته المثلى، وعليه مَن لم يتخذ الرسول أسوة له، فهو لا يحسب في عداد أولئك الموصوفين بتلك الأوصاف الثلاثة.

تاسعاً: والآية (١) من (الحجرات) تدل على أن من لم يَمشِ خلف رسول الله ولم يقتف أثره - بل تقدّمه وقَدَّم على توجيهاتِهِ رَأْيَهُ - فهو مِمَّن لم يتق الله تبارك وتعالى.

عاشراً: والآية (٢) من (الحجرات) تدل على أن أدنى إساءة أدب مع رسول الله - كرفع الصوت على صوته - يُحْبِطُ عَمَلَ الإنسان، فكيف مخالفة أمره ورفض طريقته وسنته، الذي هو أكبر اساءة أدب!!

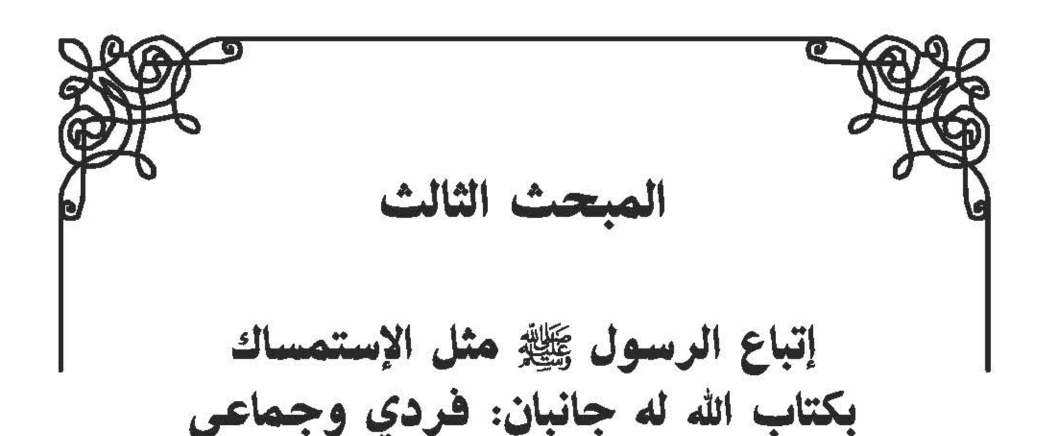
الحادي عشر: وأخيراً تدل الآية (٧) من (الحشر) على أن مَنْ لم يستن بسنة الرسول ﷺ أخذاً وتركاً، أو أمراً ونهياً، فهو لم يتق الله تعالى، وهو معرَّض لعقاب الله الشديد.

وكل آية من الآيات التي سبق ذكرها في حدّ ذاتها - فكيف بمجموعها - برهان جلي على حكم اتباع رسول الله ﷺ وأهميته، وعلى أن عدم اتباعه بإطلاق[1]، دليل صريح على كفر صاحبه، وعدم صدقه مع الله تعالى بالعبودية، وقديماً قال الشاعر:

تعصي الإله وأنت تزعم حبّه	لعمرك هذا في المقال بديع
لو كان حبك صادقاً لأطعته	فإنَّ المُحِبَّ لمَن يحب مطِيع

□ □ □ □ □ □

(١) إنما قيَّدنا (عدم اتّباعه) بكلمة (بإطلاق) لأن عدم اتباع الرسول ﷺ في جزئية ما، لا يعتبر كفراً، اللّهم إلا إذا وافق تلك الجزئية، الإنكارُ والرفضُ.



المبحث الثالث

إتباع الرسول ﷺ مثل الإستمساك بكتاب الله له جانبان: فردي وجماعي

نعم كما أَنَّ اتِّباع كتاب الله والإستمساك به، مسؤولية فردية وجماعية في آن واحد، كذلك اتِّباع الرسول ﷺ، مسؤولية مزدوجة، تتوجّه إلى كل من الفرد والمجتمع في وقت واحد، وذلك لأن هناك أشياءَ وجوانب في سنة النبي ﷺ بوسع الإنسان أن يلتزم بها في خاصة نفسه، وذلك مثل الإيمان والعبادة الشخصية ـ بمعناها الخاص ـ وتزكية النفس والخلق الحسن، ولكن فيها أيضاً أشياء وجوانب كثيرة جداً، لا يمكن الإلتزام بها وتَمَثُّلها إلّا بصورة جماعية، وذلك كأداء الشعائر الجماعية من صلاة جماعة، وحج وعمرة، وجمعة، وصلوات العيدين، والكسوفين، والإستسقاء، وكذلك الدعوة والتعليم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة الحدود، وتحقيق العدل، والجهاد ... إلخ.

وهذا سرُّ كثرة ورود الأمر باتباع الرسول ﷺ بصيغة الجمع، إذْ سلوك سنة النبي ﷺ وطريقته كما ينبغي، لن يتأتّى إلّا في حال اجتماع المسلمين وانتظام أمورهم، ونكتفي هنا بإيراد هذه الآية المباركة:

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْۚ

﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف].

ففي هذه الآية المباركة يعرِّف الله الحكيم تبارك وتعالى، الرسولَ المتبوع ﷺ، وأتباعَه المؤمنين، بجملة أوصاف توجب اجتماع المسلمين لاتباع الرسول النبي والإستنان بسنته، إذا ما أرادوا بجدّ الأخذ بطريقته ﷺ، والذي لا يُحْسَبون في عداد أهل الإيمان بدونه.

أما أوصاف الرسول ﷺ، فهي هذه الستة:

١ ـ يأمرهم بالمعروف.

٢ ـ وينهاهم عن المنكر.

٣ ـ ويحل لهم الطيِّبات.

٤ ـ ويُحرِّم عليهم الخبائث.

٥ ـ ويضع عنهم إصرهم.

٦ ـ والأغلال التي كانت عليهم.

وجلي أن قيام الرسول الكريم بهذه الأعمال الستة، واتصافه بهذه الأوصاف الستة، يتطلَّب وجود جماعة مؤمنة أو مجتمع مؤمن، وإلا فمن الذي يَأْمُرهُ، ومن الذي يَنْهاهُ؟، ولمن يُحِلُّ، وعلى مَن يُحرِّم؟ وعمَّن يضع الأثقال، وعمَّن يفك الأغلال والقيود؟!

وأما أوصاف الأتباع المؤمنين، فهي هذه الأربعة:

١ ـ آمنوا به.

٢ ـ وعزّروه (أي: وَقَّرُوهُ وعَظَّموه)[1].

٣ ـ ونصروه.

(١) مختار الصحاح، ص٣٧٨، لفظ: ع ز ر.

٤ ـ **واتبعوا النور الذي أنزل معه.**

وإذا أمكن للإنسان أن يؤمن برسول الله ﷺ كفرد، فمن المحال أن يقوم بتعزير الرسول ونصره ـ والمقصود به تقوية طريقته ونصرها وتثبيتها في الواقع ـ واتباع النور الذي أنزل معه ـ وهو كتاب الله ـ بمفرده، بل لا بدّ من القيام الجماعي بالإضطلاع بتلك المسؤوليات الجسام!







المبحث الرابع

أتباع الرسول ﷺ الصّادقون، وورّاثه الكاملون، هم الذين يتمثّلون سنَّتَهُ كاملاً وبكل جوانبها

أجل لا يُعَدُّ الإنسانُ من أتباع الرسول الصادقين، ومُتَّبِعي سنته حق الإتباع، حتى يكون تابعاً له في كل شيء، ومقتدياً به ومقتفياً لأثره في الدقيق والجليل، ومُتَّبِعاً لسنَّته بحذافيرها، وهذا يقتضي مِنّا أن نعرِّف بالسنة النبوية ونوضِّح مفهومها، فنقول باختصار:

عرَّف العلماء رحمهم الله تعالى (السُّنَّة) بقولهم:

(السنَّة في اللغة تَعني السيرة والطريقة المتَّبعة[1]، وفي الإِصطلاح الشرعي هي: أقوال النبي ﷺ وأفعاله وتقريراته).

ويمكن أن نعرِّف السنَّة النبوية بالقول:

(هي الطريقة والكيفية التي تديَّن بها الرسول الكريم، وتعبَّد بها الله تعالى، باتِّباع دينه وتطبيق شريعته المتمثلة في كتابه الحكيم، سواء في خاصَّةِ نفسه، أو أسرته، أو الجماعة المؤمنة، والمجتمع المسلم الذي تولّى أمرهما).

ويبدو من هذا: أن كلمة السنة ليس يضيق مفهومها عن التعريف

(١) مختار الصحاح، ص٢٨٤، لفظ: س ن ن، والتعريفات للجرجاني، ص١٢٤.

الجزئي الذي أخذ به الفقهاء أو بعضهم فحسب، بل ويضيق أيضاً عن المعنى والتعريف الذي أخذ به علماء السنة النبوية أيضاً، وهذا إجمال يحتاج إلى إيضاح:

معلوم أن الفقهاء أو الكثير منهم عرَّفوا السنَّة بجزء من مفهومها، وهو المفهوم الذي يقابل الفرض والواجب، والذي يعبّر عنه أيضاً بالنفل والندب والتطوع، فمثلا يقال: ان ركعتي تحية المسجد، سنة، والسنة ـ بهذا المفهوم ـ هي ما يؤجر الإنسان على فعلها، ولا يأثم بتركها، بخلاف الواجب أو الفرض الذي يؤجر على فعله، ويأثم بتركه، كالصلوات الخمس المفروضة.

وواضح أن هذا المفهوم للسنة، لا يطابق معنى السنة الحقيقي، وانما هو معنى اصطلاحي اصطلح عليه الفقهاء[1].

وعلماء السنة والحديث عرَّفوا السنة ـ كما قلنا سابقاً ـ بأنها عبارة عن أقوال الرسول ﷺ وأفعاله وتقريراته، أي أحاديثه التي تلفظ بها، وأفعاله التي قام بها، وما قيل أو فُعِل بحضرته، وأقَرَّهُ وصوَّبه، وهذا التعريف واسع وشامل لا يشذ عنه شيء من سنة رسول الله ﷺ، ولكن قلنا بأن هذا التعريف يضيق عن أن يشمل المفهوم الحقيقي لسنة رسول الله ﷺ، لأن أهل الحديث والأثر يستثنون منه كتاب الله المبارك، ويضعون (السنّة) في مقابل (القرآن)، وإنما يقصدون بمحتويات السنة، كُلَّ ما صدر من النبي الأمي صلوات الله وسلامه عليه، من الأقوال والأعمال والتقريرات، سوى القرآن!

وأنا أرى ـ والله هو العليم الحكيم ـ أن هذا تضييقٌ لمفهوم السنة الواسع الشامل وتحديد له، وذلك لأن كتاب الله الحكيم لا أنه غيرُ مُستَثنى من سنة رسول الله ﷺ وطريقته فَحَسْب، بل هو أصلها وأساسها وعمودها الفقري أيضاً، وذلك:

---

(١) أُنظر: معجم المصطلحات والألفاظ الفقهية، د. محمود عبدالرحمن عبدالمنعم. ج٢ ص٢٩٨، ٢٩٩.

أولاً: لأن كتاب الله المبارك، يمثل الجوهر والأساس لأقوال الرسول وأحاديثه الشريفة، سواء بسبب تلاوته المباشرة له في الصلوات والخطب وغيرها، وهي الوظيفة الأساسية له، كما قال تعالى: ﴿... يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ...﴾ [آل عمران: ١٦٤]، [الجمعة: ٢]، وقال: ﴿...يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ...﴾ [البقرة]، وقال: ﴿... يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا ﴿١٥١﴾﴾ [البقرة]، وقال: ﴿...لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴿٣٠﴾﴾ [الرعد]، وتلاوته لكتاب الله هي المقصودة بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [النجم]، أو بسبب استلهامه منه والإستنباط والإقتباس.

ثانياً: وأيضاً لأن كتاب الله الكريم، كان هو الخميرة لكل تصرّفات الرسول ﷺ وأعماله، كما عبَّرت عن ذلك أروع تعبير، أُمُّ المؤمنين (عائشة) الصديقة بنت الصديق ﵄، بقولها إجابة عَمَّنْ سألها عَنْ خلق الرسول ﷺ: **«كَانَ خُلق نَبيّ الله ﷺ، القُرْآن»** رَوَاهُ مُسْلِمٌ برقم: (٧٤٦).

إذن:

كتاب الله تعالى هو صلب سنة رسول الله ﷺ وروحها السارية فيها وأساسها، ولهذا من الخطأ ـ حسبما أرى ـ أن نجعل السنة النبوية في مقابل كتاب الله تعالى، وكأنهما شيئان متغايران وككفتي الميزان! بل الحق هو أن السنة شاملة للكتاب، والكتاب هو روحها ولبها وأساسها، وليست السنة النبوية سوى كيفية اتباع رسول الله لكتاب الله المبارك، والطريقة التي طبّق بها كتابَ الله العظيم.

وبناءً على ما تقدم ذكره، نقول:

إنه لا يُعَدُّ تابعاً صادقاً لرسول الله ﷺ، ومُتَّبِعاً اتباعاً كاملاً لِسُنَّتِهِ، إلّا مَنْ يتبع رسول الله ﷺ في كل جوانب تديّنه وتعبّده لربّه، معرفة وإيماناً وعبادة وتزكية وخلقاً ومعاملة وآداباً وجهاداً وسياسة... إلخ، ويتّبع سبيله وطريقته التي رسمها لنا، بِحذافيرها، ومن دون حَذْف شيء منها، أو إضافة شيءٍ إليها، إذْ رسول الله الخاتم، هو أحسن وأفضل قدوة وأسوة لنا، وهو خير من اتبع كتاب الله، وطبّق شريعة الله في حياته المباركة، كما أمره الله

تعالى وحدّدها له بقوله: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ...﴾ [هود: ١١٢]، وبقوله: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ...﴾ [الأنعام: ١٠٦].

ومَنْ يرث مِنْ رسول الله ﷺ دينه كاملاً، ويحافظ على سُنَّتِهِ وطريقته كاملة، ويسعى إلى الإلتزام بها في خاصة نفسه، وفي دائرة أسرته، ودائرة مجتمعه، والبشرية كلّها، كما فعل هو ﷺ، وفعل خلفاؤه الراشدون، وسار على نهجهم وخطّهم الأَئِمة المهديون والعلماء العاملون، والصلحاء المقتدون بهم، فهو يُعَدُّ بحق من أتباع الرسول الصادقين، وورّاثه الكاملين، بمقدار ما عنده من فقه واخلاص وجدّ وجهد، وأمّا الإنشغال بجانب من جوانب سنة رسول الله ﷺ، كما هو ديدن كثير من طوائف المسلمين اليوم، من عقيدة، وتزكية نفس، وتمسك ببعض المظاهر المندوبة، من إعفاء لحية، وتشمير ثوب، وسواك...إلخ، فهذه المسالك وأمثالها إنما تُعَدُّ اقتداءً جزئياً برسول الله ﷺ، واتباعاً جزئياً لِسُنَّتِهِ وطريقته الشاملة لهذه الأشياء ولغيرها.

ومعلوم أنني لا أريد التقليل من شأن هذه الإشتغالات الجزئية ببعض جوانب سنة الرسول ﷺ وطريقته، إذ كل شيء في سنة رسول الله ﷺ ذو أهمية في محلّه وبقدره، ولكن الذي قصدته:

أن الإقتداء الكامل برسول الله ﷺ والإتباع التام لسنته، هو أن نفعل نفس ما فعله الرسول ﷺ - حسبما في وسعنا - ونهتم بسنة الرسول كلّها وبكل شيء منها، حسب درجته ومكانته، طبقاً لِميزان كتاب الله وألّا نضخّم بعض الأشياء فيها على حساب الجوانب الأخرى منها.

وذلك لأن تقسيم الدين إلى أجْزاءَ وجوانب مُنفَصِمةً بعضها عن بعض، ثم توزيع تلك الأجزاء والجوانب على فرق وطوائف، وتمسك كل منها بما وَرِثَهُ، وتعصّبه له وتحزُّبه عليه، وحصره مفهوم الدين فيه، وعدم الإعتراف بما لدى غيره، نعم إن هذا هو أساس التفرُّق والتمزّق في صفوف أهل الدين قديماً وحديثاً، كما قال تعالى في وصف النصارى وسبب تفرقهم: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المائدة]. وقال تعالى بهذا الصدد أيضاً: ﴿إِنَّ

﴿ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ١٥٩﴾ [الأنعام].

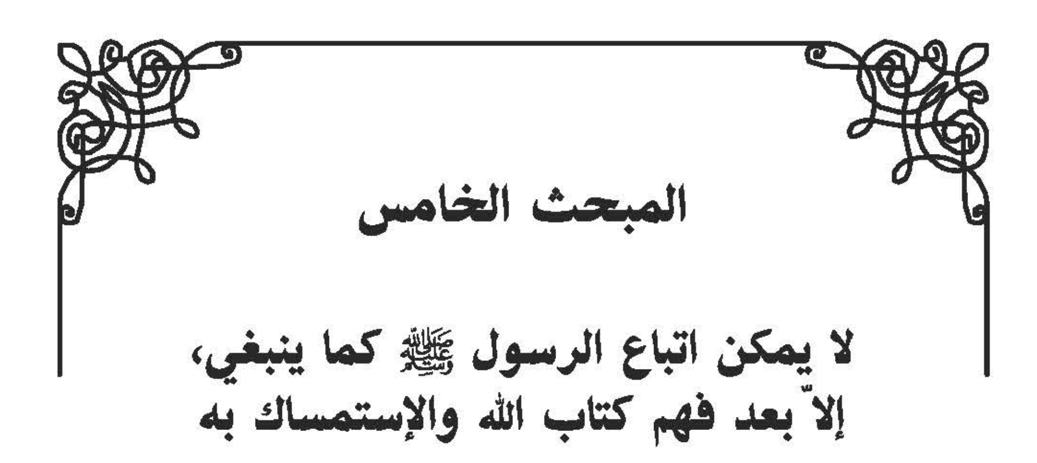
وقال: ﴿... ۞ مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٣١ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ٣٢﴾ [الروم].

وإذا كان تفريق الدين إلى أجزاء مبعثرة، ثم انشغال كل مجموعة من أهل الدين بجزء منه، هو أساس التفرق والتمزق، فإن الأخذ بالدين كاملاً وسلوك صراطه المستقيم، باتباع منهج النبي القويم، هو أساس الوحدة والأُخوَّة والألفة، كما قال تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ ١٠٣﴾ [آل عمران]، وقال: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ ٤٦﴾ [الأنفال]، وقال: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ١٥٣﴾ [الأنعام].

وسنزيد هذه المسألة جَلاءً في المبحثين القادمين بإذن الله وتوفيقه.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑





المبحث الخامس

لا يمكن اتباع الرسول ﷺ كما ينبغي، إلاّ بعد فهم كتاب الله والإستمساك به

نعم لا يمكننا اتباع الرسول ﷺ الإتباع الصحيح المطلوب، إلّا بعد الإستمساك بكتاب الله فهماً واتباعاً، وذلك على الأقل لِسَبَبين اثنين:

أولا: كما ذكرنا سابقاً وأكّدنا عليه مراراً، كتاب الله هو أَصْلُ سنّته وطريقتِهِ ﷺ، بل هو شريعة الله التي أمر باتباعها، ومنهاجه الذي فرض عليه وعلى أمته انتهاجه والإلتزام بِهِ، وقد استشهدنا على هذه الحقيقة بالآيات المباركة في السابق، فلا نعيد ما قلناه، ونكتفي هنا بهذه الآية المباركة: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا...﴾ [المائدة: ٤٨]، ففي هذه الآية الكريمة، والتي نزلت في سياق يتحدث عن كل من التوراة التي أعطيت لموسى عليه السلام، والإنجيل الذي أعطي لعيسى عليه السلام، يبيِّن سبحانه وتعالى ست حقائق:

١ - **أنه أنزل القرآن بالحق، أي: حاوياً للحق ومحققاً للحق.**

٢ - **وأن القرآن مصدِّق لكل الكتب السابقة عليه، أي يصدِّق أنها أنزلت من الله تعالى، لا أنه يصدِّق محتوياتها الحالية، إذ من المعلوم أن يد التحريف والتغيير لعبت فيها كثيراً، بالإضافة إلى النسيان، وقد وضحنا هذه المسألة في الباب الثاني عند حديثنا عن كتب الله تعالى**

في الفصل الرابع منه (أي الكتاب الخامس من هذه الموسوعة).

٣ ـ وأن القرآن العظيم مُهَيمِنٌ ورقيب على كتب الله السابقة وحاكم عليها.

٤ ـ وأن رسول الله ﷺ ـ وكذلك أمته ـ مأمور من الله تعالى أن يحكم بكتاب الله ويطبّقه على الناس.

٥ ـ وأنّه لا يجوز له ولا لغيره بحال من الأحوال، الحيدة عن حكم الله المتمثل في كتابه، والإِنحراف مع أهواء الناس ورغباتهم.

٦ ـ ثم يبيّن سبحانه وتعالى أنه جعل لكل الأمم عموماً، وخصوصاً لكل من الأمة اليهودية، والأمة النصرانية، والأمة الإسلامية، شريعةً خاصة بهم ومنهاجاً يخصّهم.

وبما أن الله تعالى لم يذكر في هذه الآية المباركة والآيات السابقة لها (من الآية ٤٣ إلى ٤٧) غير التوراة والإنجيل والقرآن (الكتاب)، إذن: فهذه الكتب هي الشرائع والمناهج التي جعلها الله تعالى للأمم الثلاث، وبناءً عليه:

فكتاب الله الحكيم هو شرعة رسول الله (محمد) خاتم النبيين وأمته ومنهاجهم، وبالتالي فهو سنته وطريقته التي أمرنا باتباعها.

ثانياً: من الواضح أنه لا يمكننا اتباع شخص ما والإقتداء به، إلّا بعد أن نعرفه ونطلع على شخصيته ومزاياه ومكانته، وكتاب الله المبارك هو الذي يُرينا شخصية رسول الله (محمد) خاتم النبيين، بل أكثر من ذلك: كتاب الله العظيم، هو البيّنة الكبرى والمعجزة العظمى، التي نتخذها أساساً للإيمان بنبوّة خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام.

وجديرٌ بالذكر أننا من دون الإعتماد على كتاب الله الحكيم لمعرفة رسول الله ﷺ، سنقع في الإفراط والتفريط في النظر إليه والتعامل معه، كما هو الواقع والحال الآن، في أوساط الفرق والطوائف التي لم تعتمد على كتاب الله الحكيم في هذا المجال.

وتجلية لهذا الموضوع المهم ـ وهو القول بأنه لا يمكننا معرفة

رسول الله وشخصيته على حقيقتها ورؤيته كما هو، إلّا في مرآة كتاب الله المباركُ ـ لنتأمل مجموعتين من الآيات المباركات، والتي يُبْرِز الله تعالى في الأولى منهما: جانباً من شخصية رسول الله الخاتم، فيُعرِّفه بشراً كسائر البشر، لا يملك شيئاً لأمر نفسه ولا غيره، بل هو عبدٌ يأتمر بأمر ربّه ويتحرك حسب توجيهات الوحي، ويتصرّف كما رسم له.

وفي الثانية منهما: يبرز الله الحكيم الجانب الآخر من شخصية خاتم النبيين، فَيُعَرِّفه من خلال ما حَباهُ به من خصائص ومزايا، تجعله أفضل الخلق وسيد الأنبياء، وأكرم الناس على الله تعالى وأحَبِّهم إليه:

المجموعة الأولى:

١) ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢﴾ [الشورى].

٢) ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ۝٨٦﴾ [القصص].

٣) ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝١٨٨﴾ [الأعراف].

٤) ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٩﴾ [الأحقاف].

٥) ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ۝١٢٨﴾ [آل عمران].

٦) ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝٣٥﴾ [الأنعام].

٧) ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠ ـ فصلت: ٦].

المجموعة الثانية:

١) ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء].

٢) ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة].

٣) ﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾﴾ [الضحى].

٤) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [الأحزاب].

٥) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾﴾ [الحجرات].

٦) ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم].

٧) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾﴾ [الأحزاب].

وبناءً عليه:

فالشخصية الحقيقية لرسول الله الأعظم ونبيه الخاتم (محمد) ﷺ، هي التي تجليها تلك الآيات المباركات، بكلتا مجموعتَيْها، وجلي أنه لا يعرف رسول الله ﷺ وشخصيته حق المعرفة، إلّا ربّه تبارك وتعالى، ولهذا فلا يمكن أن ننظر إليه ﷺ نظرة حقيقية، ونتعامل معه تعاملاً صحيحاً من غير إفراط ولا تفريط، إلّا إذا جعلنا كتاب الله لنا نِبْراساً وأساساً ومقياساً.

ومن نافلة القول أن كلا من: ١ ـ التقليل والتهوين من شخصيةِ رسول الله ﷺ

الكريم الرفيعة، وجعله دون المقام الذي حدّده الله له، ٢ ـ والغلوّ في تبجيله وتوقيره، وجعله فوق المستوى الذي عيّنه الله تعالى له، كلاهما خطأ وانحراف، فأولهما تفريط وتضييع لما ينبغي له، وثانيهما غلوّ وإفراط فيما يليق به ويجدر له، وكلاهما إساءة أدب عظيمة، يستحق صاحبهما العقوبة.

وقد ظن[١] بعض الجهّال من أدعياء العلم، أن الإفراط والغلّو في تعظيم الرسول ﷺ ممدوح أو مغتفر! وكأنهم لم يسمعوا تحذيرات رسول الله ﷺ الكثيرة بهذا الصدد، مثل قوله: «**لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، وَلَكِنْ قُولُوا: عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ**» (رَوَاهُ البُخَارِيُّ برقم: (٦٤٦٥)، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ سَمِعَ عُمَرَ رضي الله عنهما).

وقوله: «**اللَّهُمَّ لا تَجْعَل قَبْرِي وَثَنًا، لَعَنَ الله قَوماً اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**» (رَوَاهُ أَحْمَد برقم: (٧٣٥٢)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، وَقَالَ شعيب الأرناؤوط: إسنادُهُ قَوِي).

وقوله: «**اللَّهُمَّ لَا تَجْعَل قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ**» (رَوَاهُ مَالِك برقم: (٥٩٣)، عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ مُرْسَلاً، وَصَحَّحَهُ الألباني في (المشكاة) برقم: (٧٥٠).

وقوله: «**لَعَنَ الله الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**» (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ: البُخَارِيُّ برقم: (١٢٦٥)، وَمُسْلِمٌ برقم: (١٢١٢)، عَنْ عائشَةَ رضي الله عنها).

ولكن يجب أن يُعْلَم أنَّه: كما أن الإفراط في تعظيم الرسول ﷺ مذموم، بل قد يجرّ إلى الشرك الذي هو ظلم عظيم، ولا يغفره الله أبداً،

(١) والصوفية هم أكثر الناس غلواً وإفراطاً في هذا المجال، وكثيراً ما يؤدّي بهم الغلّو والإفراط في تعظيم الرسول، بل حتى غيره من شيوخهم، إلى الشرك، وأرى لِزاماً عليّ أن أشير إلى أن القصيدة المشهورة بالبُردَةِ، والتي نظّمها البوصيري في مدح الرسول! فيها غلوٌّ كثير، ومنها قوله: (ومن عُلومه علم اللوح والقلم...) حيث يجعل كلّ ما كتبه الله في اللوح المحفوظ، بعضاً من علم رسول الله ﷺ! وهذا جهل عظيم بالله!!

فكذلك التفريط في توقيره وإكرامه ـ بذريعة الخوف من الوقوع في الإفراط ـ مذموم، بل قد يجرّ إلى الكفر والخروج من الملة، أو على الأقل إلى حبوط الأعمال، كما تدل عليه الآية (٢) من (الحجرات).

والذي يَعْصِمُ الإنسانَ من الوقوع في ورطتي الإفراط والتفريط، في النظر إلى شخصية رسول الله ﷺ والتعامل معه، هو الإستمساك بكتاب الله الحكيم، وهو الميزان الدقيق الذي يضع الأمور كلها في مواضعها بلا شطط وتطفيف.

وتأسيساً على ما مرّ بيانه، نقول:

مما لا شك فيه أن دِراسة سنة رسول الله ﷺ وسيرته، مطلوبة وضرورية لكل من أراد أن يطلع على كيفية حياة رسول الله، وكيفية تطبيقه لكتاب الله وتربيته لأصحابه، وبنائه للمجتمع، وتأسيسه للدولة الإسلامية، وكذلك دراسة سنة رسول الله ﷺ مطلوبة وضرورية لغير ما ذكر من الأسباب أيضاً، وذلك مثل الإطلاع على أسباب وملابسات نزول كثير من الآيات والسور المباركة، مِمّا يساعِد الإنسانَ على فهم تلك الآيات والسور بصورة أفضل، ومثل تتّبع أخلاق الرسول الجليلة وآدابه الرفيعة، في ثنايا كتب السنة والسيرة... وغير ذلك من أغراض ودوافع شرعية.

ولكن هناك حقيقة مهمة، يجب التنبّه لها عند دراسة السنة النبوية، وهي:

أنه لن يتأتى للإنسان الفهم الصحيح لدين الله تبارك وتعالى، ما لم يبدأ بكتاب الله تعالى أولاً، ومن ثم الإنتقال منه إلى كتب السُّنّة النبوية، وذلك لعوامل كثيرة، منها هذه الخمسة:

أولاً: ان الكلام على قدر المتكلِّم، وكتاب الله هو كلام الله الذي أوحاه إلى خاتم أنبيائه، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ...﴾ [التوبة]، وجليٌّ أن النور والبهاء الذي يختص به كلام الله الخالق، لا يشاركه فيه كلام غيره، أياً كان ومهما كان، قال

جلّ شأنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾﴾ [النساء].

ثانياً: ان كتاب الله المبارك، هو وحده المتكفّل ببيان الحقائق كلّها، أي كل الحقائق التي يحتاجها العباد في حياتهم الأرضية هذه، كما قال تعالى: ﴿...وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [النحل]، وقال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف].

ثالثاً: وكتاب الله الكريم، هو وحده الذي يتضمّن الشفاء التام، لكل ما يعاني منه العباد، من أدواء وأمراض مختلفة: فكرية وروحية واجتماعية وسياسية... إلخ، كما قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس].

رابعاً: ومن جهة الإسناد: كتابُ الله كله على درجة واحدة، وهي التواتر القطعي اليقيني، لأنه بعد ما أنزله سبحانه وتعالى بواسطة ملكه الأمين (جبريل) عليه السلام، على قلب خاتم النبيين، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء]، نعم بعد تلقي رسول الله له، تلاه رسولُ الله ﷺ على عشرات، ثم مئات، ثم آلاف من أصحابه رضوان الله عليهم، وهم بدورهم أوصلوه شفاهاً وكتابة إلى آلاف من التابعين، وهكذا دواليك إلى عصرنا الحالي، ولكن من الواضح أن السنة النبوية، ليست كلها على هذه الشاكلة، بل هي أنواع ودرجات من جهة السند.

خامساً: ثم إنّه حتى إذا تجوّزنا في التعبير، واعتبرنا السنّة النبوية شرحاً والقرآن العظيم متناً ـ وهذا ليس صحيحاً على إطلاقه كما وضحنا ذلك سابقاً ـ فمن المعلوم أنه لا يمكن دراسة وفهم الشرح، إلّا بعد قراءة المتن ودراسته.

وزيادة في الإيضاح أقول:

من المعلوم أن كتاب الله الحكيم وزّع مقدار اهتمامه بالقضايا وتخصِيص المساحة اللازمة لكل منها من الآيات، على قدر أهميتها وحاجة العباد إلى معرفتها والإطلاع عليها، فمثلاً خصصت في كتاب الله الحكيم أعظم مساحة للبحث عن الله تبارك وتعالى، تعريفاً بذاته الذي ليس كمثله شيء، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، وبياناً لأسمائه الحسنى وصفاته العُلى، وايضاحاً لشؤونه من خلق وتقدير وتدبير وهداية وإضلال وإحياء وإماتة وبعث وجزاء. . . إلخ، وإيماناً به خالقاً ورباً ومالكاً، وعبادة له رباً وإلهاً وولياً وحاكماً لا شريك له في ربوبيته وألوهيته وولايته وحاكميته. . . وقد فصّلنا القول في كل هذا في الباب الأول كله، (أي الكتاب الأول) وفي الباب الثاني عموماً، وخاصة في الفصلين الأول والثاني منه (أي الكتابين الثاني والثالث من هذه الموسوعة).

والسور المكية التي تمثل قريباً من ثلثي القرآن العظيم، كلُها أو جلُها، تدور في فلك هذا الموضوع المهم، الذي عبّر عنه في القسم الأعظم من المساحة المخصصة له، من خلال قصص الأنبياء مع أقوامهم، ومن خلال الأمثال المضروبة المختلفة.

وهكذا بقية المواضيع من الإيمان باليوم الآخر، وما يتعلق به من أحداث وقضايا، والإيمان بالوحي والنبوة والأنبياء، والإيمان بالملائكة والجن، وحياة الجن والإنس على هذه الأرض والحكمة منها، والمآل الذي تؤول إليه، ثم تنظيم حياة الإنسان فرداً ومجتمعاً، من حيث المعرفة والتصور والعبادة والخلق والقيم والموازين، وتكوين الأسرة وإدارة المجتمع وترتيب شؤون الدولة من حيث الإقتصاد، والسياسة الداخلية والخارجية، والدفاع والذود عنها، وأخيراً مسؤوليتها تجاه الدعوة الإسلامية وتبليغ الناس بها، وما يستلزمه ذلك من إزالة الموانع والسدود عن طريق الدعوة من خلال التحرك السياسي والدبلوماسي وعقد المعاهدات، . . .إلخ.

فكل هذه الأمور التي أشرنا إليها بإيجاز شديد، قد وفّاها كتاب الله الحكيم، حقّها العادل، وبذل لها الإهتمام اللائق بها.

ولهذا فعندما يتشبّع الإنسان بحقائق كتاب الله، ويَتعَمّق في أغواره لمعرفة أسراره، ويتنوَّر بأنواره المباركة: يحصل لديه فهمٌ صحيحٌ شاملٌ عميق لدين الله الحق، وتتكون لَدَيه نظرة متَّزنة إلى جميع جوانب دين الله الكامل المتكامل المتوازن، بحيث لا يطغى جانب منه على جانب آخر، ولا يُضَخَّم جانبٌ منه على حساب الجوانب الأخرى، فيَتَشوَّهَ الجمالُ الفطري الرائع، والتناسق الحكيم الذي يعطيه إياه كتاب الله العظيم.

ولكن السنة المشرَّفة شأنها ليس هكذا، وذلك لأن الرسول الحكيم ﷺ، قلّما تطرّق إلى بيان وتوضيح الجوانب التي جاءت في كتاب الله المبين واضحاً وجلياً وضوح الشمس في رابعة النهار، وخصوصاً القضايا الأساسية التي أولاها كتابُ الله عنايةً خاصة، واهتم بها أشدَّ الإهتمام، من القضايا المعرفية والإيمانية، بمفهومهما الشامل الواسع الذي خصَّصنا لإيضاحهما البابين الأول والثاني (أي الكتب: الأول إلى الثامن من هذه الموسوعة).

نعم لقد تطرق رسول الله ﷺ إلى توضيح بعض المسائل الجزئية التفصيلية، ولكن لا تعدو توضيحات الرسول ﷺ تلك، أن تكون تفصيلاً لمجمل وزيادة بيان، لمسألة اقتضت حكمة الله ورودها في كتاب الله مختصرة، أو حتى إشارة وتلميحاً.

ولكن - وكما قلنا سابقاً - المجال الذي تكفَّلت السنَّةُ ببيانه والتفصيل فيه، هو مجال التطبيق العملي لدين الله الحكيم في كلا مجاليه الرئيسيين: الشعائر التعبدية، والشرائع الحياتية.

ولهذا:

فمن اشتغل بالسنَّة النبوية المشرَّفة، دراسةً وحفظاً للمتون والأسانيد، وتتبعاً وتطبيقاً لبعض مسائلها الدقيقة، قبل التضلُّع بمعرفة كتاب الله والتشبُّع بحقائقه والتنوّر بأنواره، فهو لا يتسنَّى له ذلك الفهم الصحيح الشامل، والنظرة المتزنة الكاملة لدين الله وشريعته وسنة رسول الله ﷺ وطريقته - بمفهومها الذي اخترناه - الذي يتحفنا به كتاب الله الحكيم، وهذا ليس

بسبب نقص وقصور في السنة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، بل بسبب عدم إتيان البيوت من أبوابها!

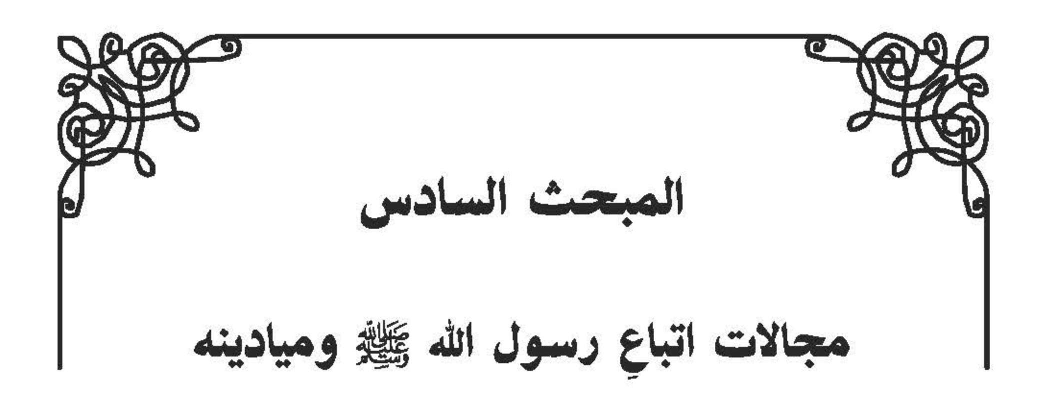
إذ هذا الترتيب المقلوب ـ أي الإشتغال بالسنة بمعناها الإصطلاحي المعروف، قبل فهم كتاب الله والتضلّع بحقائقه ـ مخالف لكل من الكتاب الحكيم، وسنة النبي الكريم معاً، أما الكتاب: فلأنّ الله تعالى لَخّصَ وظيفة رسول الله ﷺ في أربعة مواضع في كتابه الحكيم، في أربعة أُمور: (تلاوة آيات الله، وتعليم الكتاب، والحكمة، والتزكية) كما في الآيتين (١٢٩) و(١٥١) من (البقرة)، والآية (١٦٤) من (آل عمران)، والآية (٢) من (الجمعة)، وفي المواضع الأربعة كلّها قدمت تلاوة الآيات ﴿...يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ ...﴾، على الأمور الثلاثة الأخرى، إذاً: فأول عمل النبي الكريم ووظيفته الأساسية، تَتَمَّثَلُ في تلاوة كتاب الله وآياته المباركات على الناس، لِذا يجب علينا نحن أيضاً أن نبدأ بتعلّم الدين، من حيث بدأ النبي الكريم، لأنه هو أعلم الناس بدين الله وأتقاهم له وأخشاهم منه، ثم هو (أسوة) أهل الإيمان: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب]، ولا يجوز لهم الحيدة عن منهجه وسنته.

وأما السنة: فلأنها وكما بينّا في السابق: يُمَثِّلُ كتابُ الله أَصْلَها ورُوحَها، إذ ليست أقوال الرسول وأعماله، سوى شرح وبيان لبعض ما أُجمِلَ في كتاب الله ذكره، وتوضيح لكيفية تطبيقه، وتنزيله على أرض الواقع، نعم لقد نفَّذ رسولُ الله ﷺ أمرَ الله تعالى: ﴿...وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل]، على أحسن وجه وأَتَمِّه، من خلال سنته وسيرته، إذ لم تكن سنته وسيرته عبر ثلاث وعشرين سنة، بكلتا مرحلتيها المَكّية والمدنية، سوى التحرك بكتاب الله تعالى، في كلّ الميادين المعرفية والإيمانية والعبادية والخلقية والأسرية والإجتماعية والسياسية... إلخ، ومعلوم أننا بقدر ما نتشبّه برسول الله ونترسم خطاه، ونهتدي بهداه، نصل إلى ما وصل إليه من مقاصد وأهداف، طبعاً لكلٍّ حسب مستواه ودرجته.

وأودّ أن أختم هذا المبحث الخامس بهذه الملاحظة:

بما أَن اتبِّاعَ سنة رسول الله ﷺ والإقتداء به والإهتداء بهديه، ثمرة الإيمان به، وأحد مكوِّنات الإيمان به، هو محبته أكثر من كل شيء، وتوقيره وتبجيله، كما يليق بمقامه الرفيع الذي حدّده الله له في كتابه الكريم، لذا يكون اتباع الإنسان لرسول الله ﷺ، حسب إيمانه به قوة وضعفاً، فكلما قوي إيمان الإنسان برسول الله ﷺ كلّما ازداد اتباعه له واقتداؤه به واهتداؤه بهديه، والعكس صحيح أيضاً، ولهذا قدّم سبحانه الإيمان برسول الله، على تعزيره ونصره واتباعه، كما قال في وصف أتباعه المفلحين: ﴿... فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ١٥٧﴾ [الأعراف]، ثم في الطرف المقابل، كلما كمُل اتباع الإنسان لرسول الله ﷺ، كلما ازداد إيمانه به وقربه منه، إذ بين الإيمان والعمل الذي هو ثمرته وأثره، تأثير متبادل، يؤثِّر كل منهما في الآخر.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑



المبحث السادس

مجالات اتباعِ رسول الله ﷺ وميادينه

قد ذكرنا سابقاً ـ في المبحث الرابع ـ أن اتباع الإنسان لرسول الله ﷺ، واهتداءه بهديه، واستنانَهُ بسنَّته، لا يتم إلّا إذا كان شاملاً يشمل كلَّ جوانب سنة رسول الله وطريقته: معرفة، وإيماناً، وعبادة، وتقوىً، وخلقاً، وتعامُلاً، ودعوة، وأمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر، وجهاداً، وحكماً وقضاءً، والآن أودّ أن ألقي شيئاً من الضوء على هذه المسألة، في ضوء أنوار بعض الآيات المباركات، وفي كل من هذه الجوانب العَشرة التي أشرت إليها:

أولاً:ـ أما في الجانب المعرفي والتصور عن الخلق والخالق جلّ جلاله، فمن الواضح البيِّن أنه لم يكن لرسول الله النبي الأمي مصدر معرفي سوى كتاب الله ووحيه الحاوي على المعرفة اليقينية الصحيحة الوحيدة عن الوجود، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣﴾ [الشرح]، إذ المقصود بشرح صدره ﷺ وإزالة الثقل الذي جعله يعاني منه، ـ والله هو العليم الحكيم ـ هو تنوير قلبه وعقله المبارك، بالعلم والمعرفة الصحيحة عن الوجود، الذي جعله يدرك سِرَّ وحكمة هذا الوجود عموماً، ووجود الإنسان وحياته الإبتلائية الدنيوية خصوصاً، ومعلوم أن الرسول الكريم، قبل أن يشرح الله صدره بهدايته، كان يعاني أيما معاناة حول التعرّف على سرّ الوجود وحكمة الحياة، بدليل اعتكافه أياماً في (غار حراء) للتأمّل والتعبّد، ولكن ما أن لامَسَ قَلْبَهُ المبارك

نورُ كتاب الله، إلّا وأُزيحَ عن صدره وظهره ثِقَلُ تلك الهموم التي لا يُزيلُها إلا نورُ الوحي.

إذن:

كل من يتبع الرسول النبي الأمي ﷺ، إنما يستقي معرفته وتصوره عن الوجود، من المعين الذي استقاه منه رسول الله ﷺ.

ثانياً:ـ وكذلك في الجانب الإيماني، لَمْ يكن لرسول الله أيضاً مصدر ومعين آخر، سوى كتاب الله كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى].

نعم لم يكن (محمد بن عبدالله) يعرف شيئاً عن الإيمان، إلى أن اختاره الله نبياً ورسولاً، وحباه بكتابه ووحيه وروحه، فتنوّر قلبه المبارك بنور الوحي، وأصبح مصدر نور وإشعاع للبشرية كلها أيضاً.

لذا فالنبي الأمي عليه أفضل الصلوات وأتم التسليمات، هو وحدَهُ متبوع أهل الإيمان ومقتداهم في الإيمان، كما قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة].

ثالثاً:ـ وفي ميدان العبادة بكلا مفهوميها العام والخاص، والتي بَيَّنَ أصولَها وأنواعَها كتابُ الله اجمالاً، وشرح جزئياتها وكيفياتها رسولُ الله تفصيلاً، رسولُ الله الكريم بسنته المباركة، هو وحده الأسوة الذي يجب التأسّي به كذلك، ولذلك بيّن لنا نبيُّ الله عبادة الله تعالى عامة وشعائرها خاصة، من صلاة وذكر ودعاء وصيام وحج... في سنته أحسن بيان، كما سنتحدث عن ذلك في الفصل الثاني من هذا الباب (أي: الكتاب العاشر من هذه الموسوعة) بإذن الله، وقال سبحانه وتعالى بهذا الصدد: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام]، نعم إن رسول الله ﷺ هو أول مُسلمي أمته

زمناً، وأول المسلمين مطلقاً رتبة، وإسلامه ﷺ، يتمثل في عبادته الكاملة لله تعالى، والعبادة الكاملة لله تعالى تتحقق بجعل تقديم الشعائر لله فقط، والتي الصلاة والحج من أهمها، وكذلك بجعل الحياة والموت كليهما لله تعالى وحسب مرضاته، وانما يتسنّى ذلك لمن التزم شريعة الله ودينه القيم منهاجاً لحياته، فَعَلَيه عاش وعليه مات.

إذن: مَن اتبع رسول الله ﷺ، يجب عليه أن يلزم مسلكه في عبادة الله تعالى، في كلا جانبي الشعائر والشرائع.

رابعاً: ـ والجانب الآخر الذي يجب على متّبع سنّة رسول الله أن يَتَتَبَّعَ فيه خطى الرسول، هو ميدان التقوى، وقد أمر الله تعالى كلاً من رسوله الأمين وأمته بالتقوى، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴿١﴾﴾ [الأحزاب]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران]، وقد فصَّلْنا القول في التقوى، فلا نعيده هنا، ولكن نذكر بأن رسول الله ﷺ بما أنه أعلم الناس بالله تعالى وأخشاهم لله، كما قال في حديث رواه البخاري ومسلم «...**وَالله إِنِّي لأَخْشاكُمْ لله وَأَتْقاكُمْ لَهُ**» أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ برقم: (٥٠٦٣)، وَمُسْلِمٌ برقم: (١٤٠١)، لِذا فهو امام المتقين جميعاً وقدوتهم المثلى.

خامساً: ـ والخلق الحسن هو الآخر، جانب مهم من جوانب الإتّباع للرسول والإقتداء به، وقد وصفه الله تعالى بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم]، وقد ذكرنا سابقاً بأن أم المؤمنين (عائشة) رضي الله عنها عرّفت خُلُقَ الرسول بقولها، (كان خلق نبي الله القرآن)، ونحن يجب علينا أيضاً إذا ما أردنا الإتّباع الجدّي لرسول الله في خلقه العظيم، والإقتداء به في أدبه الرفيع، أن نجعل كتاب الله نُصْبَ أعيننا، وهذا ما سنبحثه بإذن الله في الفصل الخامس من هذا الكتاب، وجديرٌ بالذكر أن أكثر الناس لا يفهمون من الآية المباركة: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب]، إلّا الجانب الخلقي، وأنه يجب أن نَقْتدي برسول الله ﷺ في خلقه الرفيع، ولكن لا شك أن هذا فهم قاصر وضيق ولا دليل يسنده، حيث فالآية المباركة أطلقت القولَ: بأن رسول الله ﷺ هو أحسن أسوة

وأفضل قدوة لنا، ولم تقيّد مفهوم الأسوة بشيء، لِذا يجب إبقاؤه على إطلاقه وشموله، لكل ما هو بِرٌّ وخير، وهو دين الله كله.

سادساً: ـ والمجال السادس الذي يجب أن نتبع فيه رسول الله ﷺ، ونتخذه قدوة لنا فيه، هو مجال التعامل مع الآخرين، والتعامل أوسع مدلولاً من الخلق، من ناحية شموله لكل تصرّفات الإنسان مع الناس، وأضيق مفهوماً منه من ناحية اختصاصه بالجانب العملي والفعلي فقط.

وهناك آيات كثيرة تتعلّق بكيفية تعامل نبي الله الحكيم ﷺ مع الناس، بكل أصنافهم المتنوعة، مؤمنين وكفاراً ـ محاربين ومعاهدين ـ من المشركين وأهل الكتاب، ومنافقين، وهذه بعض الآيات بهذا الصدد، ولكن سنفصّل القول في كيفية التعامل مع الناس في الباب الرابع (أي الكتاب الثاني عشر) بإذن الله تعالى:

أ ـ التعامل مع أهل الإيمان:

١) ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران].

٢) ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة].

ب ـ التعامل مع الكفار من المشركين وأهل الكتاب:

أولاً: المحاربين أو الناقضين للعهد:

١) ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنفال].

٢) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ...﴾ [الأنفال: ٦٥].

٣) ﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ...﴾ [النساء: ٨٤].

ثانياً: الملتزمين بالعهد أو المحايدين:

١) ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾ [التوبة].

٢) ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾ [النحل].

٣) ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا ﴿٩٠﴾﴾ [النساء].

ثالثاً: المستعدين لأداء الجزية والبقاء على دينهم:

﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة].

ج ـ التعامل مع المنافقين:

١) ﴿۞ وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞۖ يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡۚ هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٤﴾﴾ [المنافقون].

٢) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ [التوبة: ٧٣، والتحريم: ٩].

سابعاً:ـ والمجال السابع لاتِّباع رسول الله ﷺ، هو مجال الدعوة

إلى الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف].

ثامناً:ـ والمجال الثامن هو مجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد عرَّف الله تعالى كلا من النبي الخاتم وأمته، بهذه الصِّفَة العظيمة، فقال: ﴿...ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ...﴾ [الأعراف]، وقال: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران].

تاسعاً:ـ وتاسع الميادين التي يجب فيها اتباع رسول الله ﷺ، هو ميدان القتال والجهاد في سبيل الله، وجديرٌ بالذكر أن الآية الكريمة المشهورة في الإقتداء برسول الله ﷺ، نزلت ضمن آيات تتحدَّث كلّها عن القتال والجهاد، وهي: ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواْۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّواْ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْۖ وَلَوْ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب].

وقد مدح ربُّ العزة جلّ جلالَه المؤمنين الذين اتبعوا الرسول إلى ميدان القتال والجهاد، مع اشتداد الأزمة وصعوبة الوضع: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ [التوبة]، إذن: فهذا ميدان ومجال آخر، من ميادين ومجالات اتِّباعِنا لرسول الله ﷺ.

عاشراً:ـ والميدان العاشر الذي يجب على أهل الإيمان اتباع رسول الله ﷺ فيه، هو مجال الحكم والقضاء، حيث أمر جلّ جلاله نَبِيَّهُ

الخاتم وأتباعَهُ المؤمنين، بالحكم بين الناس بما أنزله الله تعالى وبالقسط والعدل، فقال تعالى مخاطباً نبيه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾ [النساء]، وقال: ﴿...وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ ﴿٤٢﴾﴾ [المائدة]، وقال مخاطباً أهل الإيمان التابعين لرسول الله: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ [النساء].

وأعتقد أننا في ختام هذا المبحث السادس والأخير، أصْبحنا على وضوح أكثر من حقانية القول: بأن كتاب الله الكريم هو الأساس والعمود الفقري لِسنّة رسول الله ﷺ، إذ رأينا في كل مجالات التدين والتعبّد والتي لَخَّصْناها في عشرة مجالات، إنما يتبع رسولُ الله الكريم، كتابَ الله المبارك، ويُطَبِّق توجيهاته فحسب.

وفي ختام هذا الفصل أُنبِّهُ على ثلاث مسائل باختصار شديد:

الأولى: ان المقصودَ بتبيين الرسول ﷺ لكتاب الله تعالى، هو التفصيل والتوضيح لبعض ما أجمل ذكره، وخصوصاً القضايا العملية، مثل الصلاة والصيام والزكاة والحج، وبيان كيفية تطبيق دين الله عموماً على أرض الواقع وكيفية تغيير الواقع به وإصلاحه، وهذا هو ما فعله رسول الله ﷺ بالضبط، وليس المقصود به، أي: بالتبيين الذي أمر به في قوله تعالى: ﴿...وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل]، شرحَ وتفسيرَ كتاب الله كلّه، إذ لو كان هذا مقصوداً لله تعالى في الآية المذكورة، لقام به النبيُّ بلا شك، ثم ان كتاب الله في نفسه واضح وجلي ومفهوم عموماً، كما قال تعالى: ﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾﴾ [الشعراء]، وقال: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾﴾ [هود]، وقال: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر: ٢٢ ـ ٣٢ ـ ٤٠].

الثانية: ان حكم اتباع الرسول ﷺ والإلتزام بسنّته، يختلف باختلاف الجوانب المتعدّدة، فاتباع الرسول والسَّيرْ على سنته، في مجال الإيمان

والعقيدة، واجبٌ بل شرط لاعتبار الإنسان مسلماً ومؤمناً، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۝٢٤﴾ [الأنفال]، واتباعه في مجال الحرام والحرام، واجب، كما قال تعالى: ﴿...وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۝١٥٧﴾ [الأعراف]، ولكن الإنحراف والحيدة عنه في هذا المجال، لا يؤدِّي بالضرورة إلى خروج الإنسان من دائرة الإسلام والإيمان، إلّا إذا رافقه من الملابسات والأحوال ما يجعل عصيانه وانحرافه ذلك كفراً، واتباعه في المسائل التي هي دون الواجبات، كبعض الآداب وبعض الطاعات والعبادات المندوبة، مندوب، والمندوب لا يأثم الإنسان بتركه، ولكن يفوته أجر وثواب.

أَجَلْ، فكل فلكل نوع من أنواع السنة حكمه، ولا يصح إطلاق حكم واحد على أنواع السنة جميعاً، إلّا أن نقول: بأن اتباع السنة عموماً واجب بل شرط لاعتبار الإنسان مسلماً، ولكن لا يشْمُلُ هذا الحكم، كلَّ نوع من أنواع السنة بعينه.

الثالثة: وهناك مجال في السنة النبوية، أجمع العلماء قاطبة على أن اتباع رسول الله ﷺ فيه ليس فرضاً ولا مندوباً، وذلك مثل: أكل أنواع الأغذية التي كان رسول الله يأكلها، وكذلك الأشربة، وكذلك لبس أنواع الأَلبسة التي كان يلبسها، وكذلك النعال والأحذية وسائر الوسائل المعيشيَّة، من مركوب ومفروش وأثاث بيت، وكذلك أنواع الأسلحة التي كان يستعملها في قتاله وجهاده.

وذلك لأن هذه الأشياء لم يكن الرسول ﷺ يستعملها على وجه التعبّد والطاعة والديانة، بل على وجه العادة والضرورة المعيشيَّة، ثم إنَّها تتغير وتَختلف من زمان إلى آخر، ومن قوم ومجتمع وبيئة، إلى قوم آخر ومجتمع آخر وبيئه أخرى، إذ كما أن الله تعالى لم يرسل رسولا إلا بلسان القوم الذين بعث فيهم، كما قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۝٤﴾ [إبراهيم]، كذلك لم يرسل رسولاً ولا نبياً في قوم ومجتمع، إلّا وجاراهم في عاداتهم في الأكل واللباس وسائر أحوال المعيشة، فيما لا يتعارض مع دين الله، وعلى سبيل الفرض: لو أن

(محمداً) خاتم النبين وسيد المرسلين ﷺ بُعِثَ بدلاً من الشعب العَربيِّ، في الشعب الكردي، أو التركي، أو الفارسي، أو الأفغاني، أو الهندي، أو الإِنكليزي... إلخ، لكانت نوعية لباسه وأكله وشربه... إلخ، من نوعية ما لذلك الشعب المفترض، من عادات في اللباس والأكل والشرب... إلخ، اللّهم إلّا إذا كان في تلك الأشياء، ما يتعارض مع دين الله تعالى وأحكامه، فهوكان يَتَجَنَّبه، كما تجنب شرب الخمرة في المجتمع العربي، وكان شُربُها عادة متأصلة فيهم.

وجلي أن تلك الأشياء والعادات، إنما تختلف باختلاف طبيعة المجتمعات والشعوب، وخصوصاً من الناحية الجغرافية والمناخ، ولهذا فلا تُبْنىٰ عليها الأحكام، إلّا إذا كان الشيء في ذاته محرَّماً، فهذه مسألة أخرى، غير ما نحن بصدد بحثه[١].

وبهذا ننهي الحديث عن هذا الفصل الثالث، وننتقل بإذن الله إلى الفصل الرابع، وهو (تزكية النفس).

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑



(١) أنظر في هذا المجال كتاب: (الإِحكام في تمييز الفتاوىٰ عن الأحكام وتصرُّفات القاضي والإِمام)، للقرافي.



الفصل الرابع

تزكية النفس


لە تۆڕە کۆمەڵایەتییەکان لەگەڵتانین
Stay in touch on social media
نحن معكم عبر مواقع التواصل الاجتماعي
MediaAmeerOffice
عەلی باپیر/AliBapir
عەلی باپیر/AliBapirw
AliBapir1
archive.org/details/@alibapir
عەلی باپیر/AliBapir
AliBapir
Google Play
App Store
عەلی باپیر / AliBapir
www.alibapir.net
English - عربي - کوردی
ڕاگەیاندنی مەکتەبی ئەمیر



ان تزكية النفس، هي المظهر الرابع من مظاهر الإهتداء الفردي بهدى الله تعالى والإلتزام الشخصي بشريعته، وهي النتيجة والثمرة الطبيعية لكل من العبادة لله والتقوى منه، والإستمساك بكتابه، والإتّباع لرسوله صلوات الله وسلامه عليه.

وسنفصل القول عن تزكية النفس في أربعة مباحث:

1. **معنى تزكية النفس.**
2. **مكانة تزكية النفس وثمرتها.**
3. **كيف تتم تزكية النفس، وما هي وسائلها؟!**
4. **توضيحات حول مدارس تزكية النفس وطرق التصوّف.**

وكعادتنا سندرج الآيات المباركات التي تناولت موضوع التزكية، أو وردت فيها كلمة التزكية بمختلف صيغها، ثم في ضوء أنوارها، نكتب المباحث الأربعة:

١ ـ ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٢٩﴾ [البقرة].

٢ ـ ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ١٥١﴾ [البقرة].

٣ - ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران].

٤ - ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾﴾ [النساء].

٥ - ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [التوبة].

٦ - ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾ [الكهف].

٧ - ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾﴾ [مريم].

٨ - ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾﴾ [مريم].

٩ - ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾ [طه].

١٠ - ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [المؤمنون].

١١ ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [النور].

١٢ - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [النور].

١٣ - ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [النور].

١٤ ـ ﴿... إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [فاطر].

١٥ ـ ﴿... إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾ [النجم].

١٦ ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾ [الجمعة].

١٧ ـ ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [النازعات].

١٨ ـ ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾﴾ [عبس].

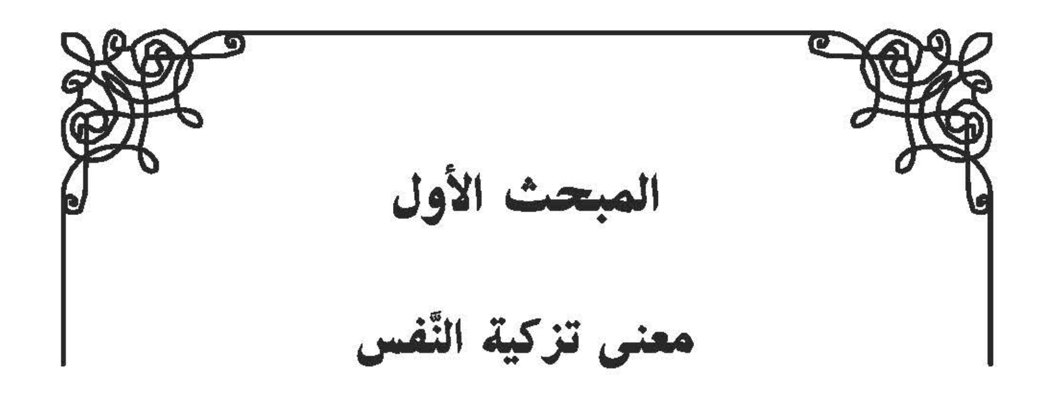
١٩ ـ ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾﴾ [عبس].

٢٠ ـ ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى].

٢١ ـ ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس].

٢٢ ـ ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [الليل].

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑



المبحث الأول

معنى تزكية النَّفس

أما لغوياً فكلمة (التزكية) من (زكى يزكو زكاة وتزكية) يقال: (زَكى الزَّرعُ) إذا نما وترعرع، وبالإضافة إلى معنى النمو والرشد، تفيد كلمة الزكاة والتزكية معنى التطهير والتشذيب، وكذلك الصَّلاح أيضاً، ولكن يبدو أن النمو والرُّشد، هو المعنى الأصلي والأغلب لكلمة التزكية في أصل اللغة[1]، وأما في اصطلاح كتاب الله، فلنتأمل هذه الآيات ـ في بداية سورة (الشمس) ـ التي تتحفنا بالمفهوم القرآني لكلمة التزكية:

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝١ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ۝٢ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ۝٤ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ۝٥ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۝١٠﴾ [الشمس]، وانما اخترت هذه الآيات لنعرِّف في ضوئها (تزكية النفس) لأنها ـ في نظري ـ أكثر الآيات إبرازاً لأهمية تزكية النفس، وأكثرها إيضاحاً وتحديداً لمفهومها ومعناها وثمرها وأثرها.

حيث يقسم الله تبارك وتعالى بأحد عشر شيئاً من مخلوقاته، ومن ضمنها النفس ـ ثم يبيِّن المقسم عليه ـ فأمّا المخلوقات الأحد عشر المقسم بها، فهي:

---

(١) مختار الصّحاح، ص٢٤٨: ز ك ا، وانظر: (المعجم الوسيط) ص٣٩٦، ٣٦٧.

١ و٢. الشمس وضَوؤها ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾.

٣. القمر عندما يتبع الشمس في طلوعه وحركته ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢﴾.

٤. النهار عندما يُجَلِّي الأرض بضيائه ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣﴾ والسياق هو الذي يَدلُّ على أن الضمير في (جلّاها) يعود إلى الأرض، إذ لا ينعكس ضوء النهار إلّا على سطح الكرة الأرضية.

٥. الليل عندما يَغْشى بظلامه الأرض ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤﴾.

٦ و٧. السماء وبانيها، وهو الله الخالق جلّ جلاله ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥﴾.

٨ و٩. الأرض وطاحيها سبحانه وتعالى ﴿وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦﴾ **والطحو هو البسط والمدّ**[١].

١٠ و١١. النفس ومسويها تبارك وتعالى ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧﴾.

ومن الواضح أن عدّ النفس في عداد هذه المخلوقات العظيمة، دليل على عظم شأنها عند بارئها وخطورة مسؤوليتها!

ثم يُعَرِّف الله تعالى النفس البشرية، بأخصّ خصائصها وأهَمِّها وأخطرها بقوله: ﴿فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨﴾ وكلمة ﴿فَأَلۡهَمَهَا﴾ وان كانت هي في الأصل بمعنى التعليم الباطني[٢]، ولكن هنا تعني أن الله تعالى فطر النفس البشرية، وجَبَلها على كل من الفجور والتقوى، أي جعل فيها الإستعداد لفعل كل من الشرِّ والخير.

ثم يذكر سبحانه وتعالى جواب القسم، أو المقسم عليه بقوله: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ أي: من جعل نفسه زكيةً، فقد أفلح وفاز وسَعِد، ولكن من جعلها متدسيةً، فقد خاب وخسر وشقي.

والآن لنتأمل هذه الآيات، ولنقترب شيئاً فشيئاً من تحديد معنى

---

(١) مختار الصّحاح، ص٣٤٤، لفظ: ط ح ا.

(٢) مختار الصّحاح، ص٥٢٣، لفظ: ل هـ م

التزكية في اصطلاح كتاب الله المبارك، وسنرتب حصيلة التأمل في سبع نقاطٍ متسلسلة:

١) **يقسم سبحانه وتعالى بأحد عشر شيئاً من مخلوقاته وآياته الباهرة، ومن ضمنها (النفس)، على أن كل من (زكى) نفسه فهو (مفلح)، وكل من (دسى) نفسه فهو (خائب).**

٢) **ويعبِّر سبحانه عن خلقه وإيجاده للنفس بلفظ التسوية (سوّاها)، والتسوية هي خلق الشيء وجعله سوياً تامّاً لا نقص فيه[1]، ومعلوم أن مخلوقات الله من حيث كونها مخلوقة لله، كلّها تامة الخلق لا نقص بها، كما قال تعالى:** ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ...﴾ [السجدة]، وقال: ﴿...صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ...﴾ [النمل]، وقال: ﴿... ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الملك]، وقال: واصفاً كل خلقه بالتسوية: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾﴾ [الأعلى]، ولكن أبرزت النفس هنا وخُصّت بذكر التسوية، لأن الحديث مُنْصَبٌّ عليها وحدها في هذا المقام.

٣) **ثم يذكر سبحانه وتعالى إقدارَهُ النفس وتمكينَهُ إيّاها، من فعل كل من الفجور والتقوى، وهذا إشارة إلى أن أهم مظاهر التسوية والخلق التام في النفس البشرية، هو امتلاكها لتلك الخاصية الفريدة (تمكنها من فعل الخير والشرّ).**

٤) **وانما عبر عن فَطْرِ النفس البشرية، وجَبْلِها على استطاعة الشرّ والخير بلفظ الإلهام، لأن الإلهام عبارة عن العلم الَّلدُنّي، أو الغَريزيّ الذي يحصل للإنسان أو لغيره، من غير أن تكون له يد في تحصيله، وكذلك جَبْلُ الله تعالى النفس على التمكُّن من فعل الخير والشر،**

---

(١) المَصدر السابق، ص٢٨٩، ٢٩٠، لفظ: س و ا.

شيء خَلْقِيٌّ فِطْرِيٌّ، ليس للإنسان فيه يد ـ والله هو العليم الحكيم ـ.

٥) وانما استعملت كلمتا (الفجور) و(التقوى) بدلاً من الشرِّ والخير وأمثالهما، لأن التقوى كما ذكرنا سابقاً، هو ثمرة وخلاصة الإيمان والعبادة، والفجور هو حصيلة الكفر والفسق والعصيان، أي: كما أن التقوى جِماعُ خصال الخير كلها، كذلك الفجور مجمع الرذائل قاطبة.

٦) واختيار هاتين الكلمتين المتعاكستين والمتضادتين: (الفجور والتقوى) للتعبير عن حالتي الرفعة والسمّو، والهبوط والتسفّل، للنفس البشرية، يدل على أن التقوى هو القِمَّةُ السامقة التي بوسع النفس الَّتي تريد الإِرتفاع، ـ ان سعت وبذلت الجهد اللازم ـ أن تبلغها في مسيرة حياته الدنيوية الإبتلائية، كما أن الفجور هو الدَرَكُ السافل الذي تصِلهُ النفس التي ترغب في الهبوط.

٧) إذن: فالتزكية للنفس عبارة عن انماءِ جانب التقوى والخير فيها، وبالتالي نموّها وزيادتها بسبب التقوى، وذلك بمزاولة كل ما يؤدِّي إلى تقوية التقوى وانمائه، والذي هو بمثابة فسيلة مغروسة في أَرضية النفس، وأيما نفس نمى فيها التقوى وترعرعت شجرتُها، فلا بدّ من أن يضمر فيها جانب الفجور والشر وينكمش، وبالتالي يحصل للنفس التطهّر من الفجور والشر، بموازاة النمو في التقوى والخير.

وأدلّ دليل على أن التزكية في النفس، هي نمو وترعرع التقوى والخير فيها، هو أن الله تعالى كما أنه قارن بين (التقوى والفجور) كنقيضين، كذلك قارن بين (التزكية والتدسية)، ومما لا شك فيه أَنَّ التدسية هي الإِخفاء والسَتْر[1]، بدليل قوله تعالى: ﴿أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ ﴿٥٩﴾﴾ [النحل].

أي: أم يُخْفيه في التُراب ويئده حياً؟ إذاً طالما أن معنى التدسية هو الإخفاء، فمعنى التزكية التي هي ضدُّ التدسية وعكسها، هو الإِظهار والإِنماء

(١) مختار الصّحاح، ص١٩١، لفظ: د س س.

والإبراز، والنفس البشرية، كما أنها تزداد وتنمو وتتسامى بتقوية التقوى وازدهاره فيها، كذلك تضمر وتنكمش وتذبل بتقوية الفجور فيها، مثلها مثل الجسد الذي يَنْمو ويزداد بالغذاءِ الصحيح، ويضعف وَيهِنُ باستشراء الداء والمرض فيه، أو انتشار السموم فيه.

وممّا يدل على أن تزكية النفس، هي تمكّن التقوى فيها واتصافها بالتقوى، أو إبراز التقوى المودَع فيها بالقوة، إلى حالة الفعل، ومن حالة البذر إلى حالة النبات والزرع، هو قوله تعالى: ﴿... فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ [النجم]، حيث ينهى الله تعالى ـ قوماً ـ أن يدَّعوا الزكاة والزكاء لأنفسهم، ثم يقول: ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ أي هو أعلم بمن حصلت له زكاة النفس بسبب التقوى، وذلك لأن الله تعالى جعل التقوى هنا مرادفاً للتزكية، اذ إنه سبحانه وتعالى بدل أن يقول: ﴿فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن تزكّى﴾، قال: ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾، وذلك للدلالة على أن التقوى هو ثمرة التزكية.

هذا وأنا أرجح أن المعنى الأصلي للتزكية ـ في اصطلاح القرآن ـ هو النمو والصلاح والنضوج للنفس، بسبب تمكُّن التقوى ورسوخه فيها، ولكن الطهارة لازمته التي يستلزمها لزوماً حتمياً، وذلك لأنه كما ان شروق الشمس يستلزم اضمحلال الظل وذهابه، كذلك تَمَكنُ التّقوى في النفس، يؤدي إلى تقليل الفجور وذهابه، وبالتالي تطهّر النفس منه، ودليلي على هذا الرأي هو قوله تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا...﴾ [التوبة]، حيث جعل سبحانه وتعالى لأخذ الزكاة أَثريْنِ في الذين تؤخذ منهم، هما: تطهرهم بها، وتزكيتهم بها، لِذا فالطهارة غير الزكاء، والتزكية لا تَغْني التطهير، وإلّا لما احتيجَ معها إلى استعمال لفظ (التطهير) أيضاً.

ولكن كما قلنا: بما أن التزكية في النفس بسبب تمكن التقوى فيها يستلزم انحسار ظل الفجور واضمحلاله، وبالتالي تطهّر النفس من رجسه، قلنا: بأن الطهارة لازِمة للتزكية، لزوم الظل للشيء.

ونلخص تعريف تزكية النفس فنقول:

تزكية النفس: هي إنماءُ بذرة التقوى المودعة فيها، ثم التمكين لها

فيها إلى أن تَنشأ وتترعرع وتُثمِر، وفي الوقت نفسه: قَلْع جذور الفجور فيها وتطهيرها منها.

وبناءً على ما مرّ ذكره:

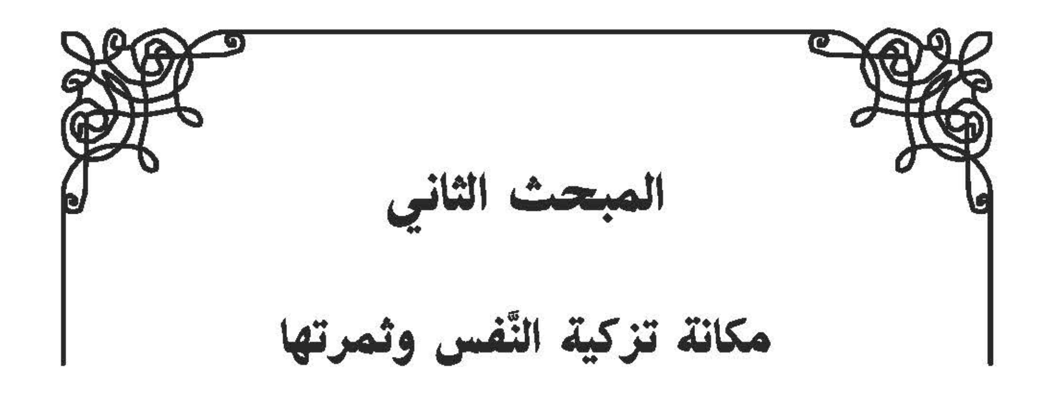
فالنَّفْسُ الزَّكيَّةُ، هي النفس التقية الخيرة، كما أن النفس المُتَدسيَّةُ الدَّنِسَة، هي النفس الفاجرة الشرِّيرة.

وجديرٌ بالذكر أن كلمة (التزكية) مثلها مثل كلمات: (الإيمان، العبادة، التقوى، الطاعة، البرّ) إذا انفردت في سياق، يتسع مفهومها حتى يشمل الدين كلَّه، إيجاباً (بأداء الطاعة) وسلباً (باجتناب المعصية)، ولهذا ربط الله تعالى بها (الفلاح) المطلق، كما رَبَطَهُ بكلٍّ من الإيمان والتقوى والبرّ، فقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾ [الشمس]، وقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤﴾ [الأعلى].

ولكن عندما ترد في سياق مقترنة بغيرها، يَتَخصَّص معناها ومفهومها وينحصر في الجانب المعنوي والخلُقي ـ بمعناه العام ـ في الإسلام.

هذا وسيزداد مفهوم تزكية النفس وضوحاً وجلاءً، بعد عرض المباحث الأخرى.





المبحث الثاني

مكانة تزكية النَّفس وثمرتها

تَظْهَرُ مكانة تزكية النفس، وتتبدّى ثمارها وآثا ُها الطيّبة المباركة، فيما ربط الله بها من نتائج عظيمة، ورتَّبَ عليها من آثار جليلة، كما يبدو بجلاء في الآيات التي أوردناها في بداية هذا المبحث، وسنسعى لإدراج أهمها في الفقرات السبع الآتية:

الأولى: التزكية هي إحدى الوظائف الأربع، التي بُعِثَ بها رسول الله الخاتم ﷺ:

كما نصَّتْ عليه كل من الآيتين (١٢٩) و(١٥١) من (البقرة)، والآية (١٦٤) من (آل عمران) والآية (٢) من (الجمعة).

الثانية: من تحقق بالزكاء النفسي، ضُمِنَ له الفلاحُ المطلق المتمَثِّل في دخول الجنّة:

كما نصّت عليه كل من: الآيتين (٧٥، ٧٦) من (طه)، والآيات (١ إلى ٤) من (المؤمنون)، والآية (١٤) من (الأعلى)، والآية (٩) من (الشمس).

والفلاح هو نيل المقصود، وقد عرّفه (راغب الأَصفهاني)[1] بقوله:

(١) مفردات ألفاظ القرآن، ص٦٤٤. وعَرَّفه (مختار الصحاح) بقوله: (الفلاح: الفوزُ والبقاء والنجاة) ص٤٤٤، لفظ: ف ل ح.

(الفلاح: هو بقاء بلا فناء، وسرور بلا غم، وعِزّ بلا ذل، وغنىً بلا فقر) ولهذا اختص الفلاح المطلق بالآخرة وبدخول الجنّة، إذ لا تَتَحقَّقُ هذه الأشياء الأَربعة إلا هناك.

الثالثة: وجعل الله التزكية الأثر الأهم، لاتّباع دينه وأنبيائِه عليهم الصلاة والسلام:

كما تدل عليه الآيات (١٥ إلى ١٩) من (النازعات) والتي تتحدث عن إرسال الله تعالى (موسى) عليه السلام إلى فرعون، والآيات (١ إلى ٤) و(٥ إلى ٧) من (عبس) والتي تتحدّث عن حادثة (عبدالله ابن أم مكتوم) رضي الله عنه وذهابه إلى النبي ﷺ والإستماع إليه وإِعراض النبي عنه، بِسَببِ إنشغاله بدعوة بعض أشراف قريش إلى الإسلام[1].

الرابعة: وجعل الله تبارك وتعالى حصول الإنسان على الزكاء النفسي نتيجة تفضّل الله عليه ورحمته إياه:

كما يدل عليه قول الله تعالى: ﴿...وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ﴿٢١﴾﴾ [النور].

الخامسة: كما وعَدَّ الله تعالى الزّكاء النفسي، نقيضاً لاتّباع خطوات الشيطان:

كما تدل عليه الآية (٢١) من (النور) أيضاً.

السادسة: ووصف الله تعالى كلاً من (يحيى بن زكريا) و(عيسى بن مريم) عليهما السلام، بزكاء النفس:

كما تدل عليه الآية (١٣) والآية (١٩) من (مريم).

وجديرٌ بالذكر أن (يحيى) و(عيسى) عليهما السلام، لم يُنْسَبْ إليهما

---

(١) أُنظر: لباب النقول في أسباب النزول، ص٢٥٤، رقم: ١١١٨، وقال: محققه عبدالرزاق المهدي: أخرجه الترمذي: ٣٣٣١، وابن حبان: ٥٣٥ والحاكم: (٢/ ٥١٤)، والواحدي: ٨٤٥.

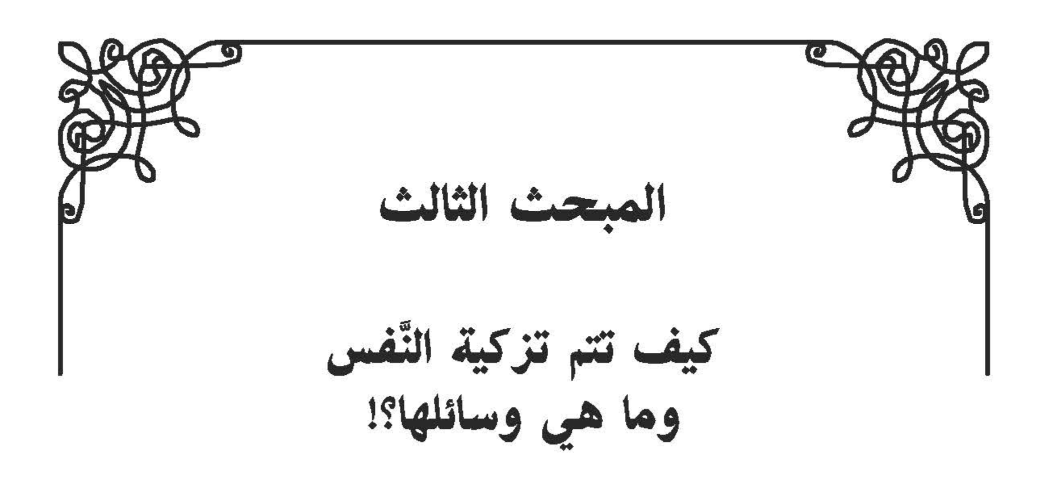
في القرآن أي خطأ أو هفوة، مما نسب إلى غيرهم من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وهذه فضيلة فيهما بفضل الله، ولكن ليست دليلاً على امتيازهما على غيرهما، إذ قد توجد فضيلة في المفضول لا توجد مثلها في الأفضل.

وربما الحكمة في وصفهما ـ من بين الأنبياء ـ بزكاء النفس، هي بسبب عَدَم تلبُّسهما بأي خطأ، وذلك تنبيهاً على أنه كلما ازدادت تزكية النفس في الإنسان، ازداد بعداً عن الأخطاء، وقد ذكرنا سابقاً في الفصل الخامس من الباب الثاني (أي الكتاب السادس من هذه الموسوعة) أن ما نسب إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من الأخطاء، والتي سميت بالمعصية: ﴿...وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه]، أو بالذنب: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ...﴾ [الفتح]، أو مما يدل على كونه خطأً، السِّياقُ ومختلفُ الصيغ التعبيرية، هي كلها ـ أي تلك الأخطاء ـ أخطاء اجتهادية ليست إلّا، وانما اعْتُبِرتْ أخطاءً، وسُمِّيَتْ معصيةً أو ذنباً، بالنسبة لمقام أنبياء الله الرفيع، ومسؤوليتهم العظيمة والخطيرة.

السابعة: وبسبب ما للزكاء النفسي من أهمية ومكانة كبرى، فقد وبَّخ الله الحكيم، كلَّ من ادعاه من غير استحقاق، واعتبره افتراءً عظيماً:

كما تدل عليه الآية (٣٢) من (النجم) والآيتان (٤٩ و٥٠) من (النساء)، وواضح أن الإدِّعاء المجرّد بامتلاك الزكاء النفسي، دليل على خبث النفس وعدم زكائها، إذ لا يكون الإنسان زَكيَّ النفس إلّا بعد كونه تقياً صالحاً، وادِّعاء التقوى والصلاح، يُنافي التقوى والصَّلاح!!





المبحث الثالث

كيف تتم تزكية النَّفس وما هي وسائلها؟!

سنبحث هذا المبحث الثالث في مطلبين اثنين، هما:

١ - كيف تتم تزكية النفس؟!

٢ - ما هي وسائل تزكية النفس؟!

المطلب الأول:
كيف تتم تزكية النفس؟!

والجواب على هذا السؤال يقتضي منا التعريف بالنفس أولاً، وذلك بعد أن عرفنا معنى التزكية في السابق، فنقول:

(النفس) اسم للجانب المعنوي وغير المرئي من الإنسان، وبما أن الإنسان مكوّن من شيئين، هما جسد ترابي، وروح ربّاني، ولا ثالث لهما ـ كما وضحنا ذلك في ضوء كتاب الله المبارك في الفصل الثالث المخصص للبحث عن الإنسان، في الكتاب الأول ـ، إذاً: فالمقصود بالنفس هو الروح، أي الشِّقُّ المعنوي والربّاني من الإنسان، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الحجر] و[ص: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء]، ويبدو من الآيات المباركة، أن الروح إنما تُسمّى نفساً بعد تلبُّسها بالبدن، واضطلاعها بتكاليف الحياة الأرضية، وتلبية الغرائز والمطالب الجسدية، ونكتفي لإثبات هذا بإيراد هذين الدليلين:

الأول: عرّف الله تعالى ـ إجابةً على السؤال الموجّه إلى رسول الله ﷺ عن الروح ـ الرُّوحَ كحقيقة ربّانية مجرّدة، من غير أن ينسب إليها مدحاً أو قدحاً، ولكن وصف النفس بأوصاف كثيرة مدحاً وقدحاً، كما سنذكرها بعد قليل، وهذا دليل على أن الروح بما أنه لا يتأتى منها خير أو شرّ في هذه الحياة الأرضية، ما لم تكن متلبِّسة بالبدن، لِذا فلا توصف بِزَيْنٍ أو شَيْنٍ، ولكن بعد أن تتلبّس بالبدن، وتتخذه وسيلة لتحقيق ما تصبو إليه من مآرب،

فعندئذ يوجه لها المدح أو الذّم، بحسب ما تتصف به من حالات، وتزاول من أعمال وتصرُّفات.

الثاني: وصف الله تعالى النفس بأنها تذوق الموت وتعانيه، في أكثر من آية، مثل قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴿١٨٥﴾﴾ [آل عمران]، وقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنبياء]، وقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [العنكبوت]، وقال تعالى واصفاً كيفية توفية الملائكة أنفس الكفار: ﴿...وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأنعام].

وواضح أن الموت ليس سوى مفارقة الروح للجسد، إذاً: فالروح التي بعد تلبّسها بالبدن، سميت نفساً، هي التي تحسّ بمرارة الموت وتتذوقه وتعاني منه.

والآن إذ عرفنا ما هي النفس، فلْنَشْرَعْ ببيان كيفية عملية تزكية النفس، فنقول مختصرين:

قد ذكرنا في السابق عند توضيحنا لآيات بداية (الشمس) أن الله تبارك وتعالى قد عرَّف النفس بقوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾﴾ [الشمس]، بأهم مظاهر تسويتها وتمامية خلقها، وهو تمكّنها من كُلٍّ من الصعود على مدارج التقوى، أو الهبوط في دركات الفجور، وعليه: فالتزكية عبارة عن محاولة الإنسان العُروجَ على مدارج التقوى والطاعة، وبمقدار ما تنجح محاولة الإنسان هذه، تتم له عملية تزكية نفسه، وبين نقطة البداية والغاية التي تنتهي إليها عملية التزكية، درجات كثيرة جداً.

وقد أشار سبحانه وتعالى إلى تلك الخاصية المهمة والخطيرة في النفس البشرية (أي خاصية الصعود والنزول) في أكثر من آية، منها قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾﴾ [التين]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا

خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ [الإنسان].

وقد بينّا سابقاً - في الفصل الثالث من الكتاب الأول - ان امتلاك الإنسان تلك الخاصية الفريدة، هي التي أهلته لأن يوكل الله إليه وظيفة الخلافة على الأرض - والله هو العليم الحكيم - إذ المخلوقات الأخرى:

أ) إمّا تستطيع الصعود فحسب - باختيارها -، وهم الملائكة الذين لن يتأتى منهم غير الطاعة.

ب) وإما تستطيع الهبوط فحسب - باختيارها - وهم الشياطين الذين لا يفكرّون بغير الشرّ والمعصية، اقتداءً بأبيهم إبليس الملعون (ولكن الجن المؤمنين مستثنون من هذا).

ج) وإما لا تستطيع أيّا من الصعود والهبوط الإرادي، وهي الحيوانات والنباتات والجمادات.

هذا وقد وصف الله تعالى النفس بثلاثة أوصاف، يُمكن أن تستنبط منها عناوين ثلاث مراحل، من مراحل عملية تزكية النفس، وهي:

١ - ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥٣﴾ [يوسف]، وهذا قول يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام، قاله عند ملك مصر بعد ثبوت براءته، ممّا اتهم به زوراً وظلماً، وخروجه من السِّجن.

٢ - ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾ [القيامة].

٣ - ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨ فَٱدْخُلِي فِي عِبَٰدِي ۝٢٩ وَٱدْخُلِي جَنَّتِي ۝٣٠﴾ [الفجر].

أَجَلْ في ضوء هذه الآيات المباركات يمكننا القولُ: إنَّ النفس لها ثلاث حالات متدرِّجات، أو إنَّ عملية تزكية النفس والسير إلى الله تعالى على مدارج التقوى، لها ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: وذلك قبل البدء بمحاولة التزكية، وقبل معالجة

الإنسان نفسه مزكّيا اياها بالطاعة، فهي في هذه المرحلة (أمّارة بالسوء) أي كثيرة الأمر بالسوء، وشديدة الإلحاح للسّير بصاحبها نحو هاوية المعصية، راغبة في التسفّل واتّباع الهوى.

المرحلة الثانية: وذلك بعد الشروع بمحاولة التزكية، وقطع أشواط من الطريق، ولكن قبل الوصول إلى الغاية، فهي في هذه المرحلة (لَوّامة) كثيرة اللوم والعتب على نفسها، بسبب السقوط في هوة المعصية والتقصير في الطاعة، فهي في حالة سير وصعود، ولكن تَعْرِضُ لها في طريقها عثرات وسقطات، فتشعر بالخسارة، فتندم وتُعاتِبُ نَفْسَها.

المرحلة الثالثة: وذلك بعد بلوغ نهاية المطاف النسبيّ في السّير إلى الله والعروج على مدارج التقوى، فهي في هذه المرحلة (مطمئنة) أي ثابتة مستقرة مستقيمة على طاعة الله تعالى، قد ذهب عنها التذبذب بين داعيتي الصعود والهبوط، والخير والشر، بَلْ هي مصمّمة على الصعود والعروج في مدارج التقوى والطاعة، لا تحيد عن قَصدها قَيْد أنملة!

وبناءً على ما مرَّ ذكره، يمكننا تلخيص جواب سؤال: (كيف تتم تزكية النفس؟!) بالقول:

إن عملية تزكية النفس تتم عبر سعي الإنسان ومحاولته إخضاع نفسه لكل ما تطالب به شريعة الله تعالى من التزامات، إيجاباً بفعل المأمورات، وسَلْباً باجتناب المحظورات، إلى أن يصل بنفسه إلى مرحلة الإطمئنان وتصير نفسه نفساً مطمئنة بذكر الله مستسلمة لأمره، راضية بقدره، وهذا ـ أي الإلتزام بالشريعة فعلاً لما أَمَرَتْ به، وتركاً لما نَهَتْ عنه ـ هو التقوى بعينه، كما ذكرنا سابقاً في الفصل الأول من هذا الكتاب.

فالتزكية عمل يقوم به الإنسان باختياره وفي ذات نفسه، ولهذا أضاف الله تبارك وتعالى عملية التزكية إلى الإنسان الذي يقوم بها في أكثر من آية، كما في الآية (٧٦) من (طه): ﴿...وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾:، والآية (٤) من (المؤمنون): ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾﴾، والآية (١٨) من (فاطر): ﴿...وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ...﴾، والآية (١٨) من

(النازعات): ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾، والآية (٣) من (عبس): ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾﴾، والآية (٧) منها أيضاً: ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾﴾، والآية (١٤) من (الأعلى): ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾﴾، والآية (٩) من (الشمس): ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾﴾.

ولكن يجب ألّا يغيب عن بالنا، أن القيام بالتزكية وان كان فعلاً انسانياً، ولكن لا يتسنّى للإنسان القيام به وتتميمه، إلّا إذا رافقه فضل الله وتوفيقه وغَشِيَتْهُ رحمته، كما قال تعالى: ﴿...وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ ﴿٢١﴾﴾ [النور]، وقال: ﴿...بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾﴾ [النساء.

ويتمثل فضل الله ورحمته تجاه عبده، في تحصيل الزكاة لنفسه، في أَمْرَين:

أ ـ هدايته لطريق التزكية عن طريق وحيه.

ب ـ عنايته وتوفيقه لتسهيل نيل الزكاة.

ومما يجدر ذكره هنا هو أنه بقدر ما يكون القيامُ بتزكية النفس عملياً، ممدوحاً ومأموراً به، بخلافه يكون الإدعاءُ بامتلاك زكاء النفس قولياً، مذموماً ومنهيا عنه، ولهذا أمر الله تعالى بتزكية الإنسان نفسه عملياً في أكثر من آية، ولكن نهى عن ادعاء امتلاك زكاء النفس قولياً، كما قال تعالى: ﴿... فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾ [النجم]، وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ ﴿٤٩﴾﴾ [النساء.

والآن الى المطلب الثاني:

المطلب الثاني:
ما هي وسائل تزكية النفس؟!

ويمكننا القول إجمالاً: بأن وسائل تزكية النفس، هي كل ما يحقّق التقوى في الإنسان، وذلك لأن التقوى هو أساس التزكية، والتزكية ثمرته ونتيجته، إذن: كل ما يؤدِّي إلى تحصيل التقوى في الإنسان، فهو في نفس الوقت يؤدِّي إلى اتِّصافه بتزكية النفس أيضاً، وبما أننا قد فصَّلنا القول في الطرق المؤدية إلى التقوى، والمجالات التي يتحقق فيها التقوى في المبحث الثاني من الفصل الأول من هذا الكتاب، فلا داعي للبحث فيها هنا، ولكن سنشير إلى بعض وسائلها المهمة التي أشير إليها في ثنايا الآيات المباركة التي أدرجْناها في أول هذا الفصل، والتي تتحدث عن التزكية، وهي هذه الوسائل التسع:

الوسيلة الأولىٰ: الإِطِّلاعُ على آيات الله المباركات، تلاوة أو سماعاً:

وهذه الوسيلة العظمى هي أساس تزكية النفس وخميرتها الَّتي لا يمكن وجودها بدونها، والدليل على هذا هو أن الله تبارك وتعالى ذكر في أربعة مواضع من كتابه الحكيم ـ قد أشرنا إليها سابقاً ـ أنه بعث رسوله النبي الأمي ﷺ لتحقيق أهداف أربعة:

أ ـ تلاوة آيات الله على الناس ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾.

ب ـ تزكيتهم ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾.

ج ـ تعليمهم الكتاب ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

د ـ تعليمهم الحكمة ﴿ٱلْحِكْمَةَ﴾.

والملاحظ أن الله تعالى قدّم ذكر تلاوة الآيات في المواضع الأربعة كُلِّها، على ذكر الأهداف الثلاثة الأخرى، ولكن قدَّم ذكر التزكية على تعليم الكتاب والحكمة في ثلاثة مواضع، وقدَّم ذكر تعليم الكتاب والحكمة عليها في موضع واحد، وهذا يدل ـ حسبما أفهم ـ أن تلاوة آيات الله هي أساس ضروري لا بدّ منه لكلٍّ من: (التزكية) و(تعليم الكتاب) و(الحكمة) وأنه لا يمكن أن توجد هذه الثلاثة إلّا بعد وجود ذلك الأساس، ولكن (التزكية)، (وتعلّم الكتاب والحكمة) يمكن أن يسبق أَحَدُهُما الآخر، بخلاف تلاوة ـ أو سماع ـ الآيات التي لا بدّ أن تسبقها وتكون أساساً لها جميعاً.

والحكمة في ذلك هي ـ والله هو العليم الحكيم ـ:

أن المعرفة الصحيحة بالخالق جلّ جلاله وبخلقه، لا بُدَّ أن تسبق التديُّن عموماً والإيمان خصوصاً، كما بيّنّا ذلك في السابق، ولهذا رتّبنا أبواب الكتاب[1] بالشكل الذي تراه، حيث جعلنا (المعرفة الصحيحة بالخالق والخلق) الباب الأول، ثم الإيمان، ثم الإلتزام بالشريعة...

وأيضاً لا بدّ أن يسبق الإيمانُ العبادةَ والطاعةَ والإلتزام، وأنّى يكون للإنسان المعرفة الصحيحة، والإيمان الحق، إلّا في ضوء أنوار آيات كتاب الله المبارك!

وأرى أن المقصود بقوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ ليس ـ كما قال المفسّرون كلهم أو جلّهم رحمة الله عليهم ـ هو تعليم رسول الله ﷺ الناس أو أمته، آياتِ كتاب الله، وسنّته الشريفة!

وذلك لأن تفسير هذه الجملة: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ بهذا المعنى، يجعل تعليم الكتاب والحكمة تكراراً لتلاوة الآيات!

---

(١) هذا في الطبعة الأولى، أما في الطبعة الثانية فَغَيّرنا عنوان (الكتاب) إلى (الموسوعة) ووزّعناها على اثني عشر كتاباً، في ثلاثة وستين (٦٣) فصلاً.

بل المقصود بهذه الجملة ـ والله هو العليم الحكيم ـ هو أن الناس بعد سماع تلاوة آيات الله، وحصول المعرفة الصحيحة، والإيمان الحق لهم في ضوء أنوارها، وبعد أن تتزكّى نفوسهم، وهذا كله يحصل لهم على الصعيد الفردي لكل منهم، يحتاجون في المرحلة التالية من تدينهم ـ وهي مرحلة التدين الجماعي ـ أن يُطْلِعَهم الرسولُ ﷺ على الشريعة والأحكام التي يحتوي عليها كتاب الله وآياته المباركات أولاً ـ وهذا هو تعليم الكتاب ـ، ثم التحرّك الإجتماعي والسياسي السديد الرشيد على أساس الشريعة، وترتيب أمورهم وفق أحكامها الحكيمة، وتعاملهم فيما بينهم ومع غيرهم وفقها ـ وهذا هو المقصود بتعليم الحكمة ـ.

وذلك لأن الإهتداء الفردي بهدى الله تعالى يتم عبر: المعرفة الصحيحة، والإيمان الحق، وتزكية النفس، ولكن الإهتداء الجماعي بهدى الله تعالى، يتم عبر: الفهم السليم للشريعة، والإِلتزام الصحيح والممارسة الحكيمة لأحكامها وتوجيهاتها.

وانما فسَّر المفسّرون (الحكمة) بسنة الرسول ﷺ، لأن التطبيق الصحيح لشريعة الله تعالى، والإِلتزام الرشيد الحكيم بأحكامها، حسب الظروف والأحوال والملابسات المختلفة، إنما تبيِّنه سنة رسول الله ﷺ الحكيمة، ويوضِّحه تطبيقه الصحيح للشريعة وأحكامها.

وخلاصة القول:

أن الإِطلاع على آيات كتاب الله الحكيم تلاوة أو سماعاً، ثم التنور بأنوارها والتشبّع بحقائقها، هو أساس تزكية النفس، إذا ما أريد بها أن تكون شرعيَّةً وصحيحة، وموافقه لسنة رسول الله ﷺ، وأما الخرافات والبدع والخزعبلات التي سمّاها البعض (تزكية)، فهذه لنا عنها حديث خاص في المبحث الرابع بإذن الله تعالى.

الوسيلة الثانية: الإيمان:

نعم إِنَّ الإيمان هو ثاني الوسائل ـ من حيث الترتيب الوجودي لا

الرُّتْبي - التي تتوقف عليها تزكية النفس في دين الله الحق، والدليل على هذا هو:

أولا: ان تلاوة الآيات من قبل الرسول ﷺ تتضمّن - كما ذكرنا من قبل - توضيح الإيمان وحقائقه، وهذا مذكور في الآيات الأربع المشار إليها سابقاً.

ثانياً: الآيتان (٧٥، ٧٦) من (طه) حيث ذكر الله تعالى فيهما الإيمان والعمل الصالح، ثم قال: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ وعليه فالإيمان أساس للتزكية.

ثالثاً: الآيات (١ إلى ٤) من (المؤمنون)، حيث وصف الله المؤمنين بالفلاح، ثم عرّفهم بالخشوع في الصلاة، وتجنّب اللغو وفعل الزكاة، والمقصود بالزكاة هنا هو التزكية، بدليل كلمة (فاعلون) إذ التزكية هي التي تُفعَلُ، أما الزكاة المالية فَتؤَدّى وتُعْطى.

الوسيلة الثالثة: الخشية من الله تعالى:

والخشية من الله تعالى واستشعار جلاله وكبريائِه واستغنائِه وعظمته، وسيلة عظيمة أيضاً من وسائل التزكية، وهي وان كان الإيمان يشتمل عليها ويستلزمها، كما يستلزم الإيمان كل الوسائل الأخرى أيضاً، ولكن تَفرّد بالذكر تنويهاً بشأنها.

والدليل على كونها من وسائل التزكية هو قوله تعالى: ﴿... إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفۡسِهِۦۚ... ﴿١٨﴾﴾ [فاطر].

الوسيلة الرابعة: إقامة الصلاة:

وإقامة الصلاة أيضاً من وسائل تزكية النفس، كيف وهي أعلى وأعظم الطاعات الشخصية على الإطلاق، ولها أنواع كثيرة من فرض ونفل، وهي تشتمل على أنواع كثيرة من العبادة، من ذكر الله تعالى عموماً، وقراءة

كتاب الله خصوصاً، والقيام والركوع والسجود، والتحيات، والصلاة على رسول الله ﷺ، والدعاء، والصلاة هي العبادة الوحيدة التي لا يقبل من أحد عذر في تركها، في حالة صحة أو مرض، وغنىً أو فقر، وشباب أو شيخوخة، وحضر أو سفر، وأمن أو خوف... إلخ، ما دام الإنسان لم يفقد وعيه، فيجب على المسلم أن يصلي على أي حال، قياماً أن أمكنه القيام (لقراءة الفاتحة والقرآن، والركوع) وإلّا فجلوساً، وان لم يمكنه الجلوس أيضاً، فعلى جَنبٍ، أو مستلقياً كيفما استطاع.

والدليل على كون الصلاة من وسائل التزكية، هو الآية السابقة، الآية (١٨) من (فاطر) لأن الله تعالى خصَّ الإنتفاع بتذكير رسول الله ﷺ بالخائفين من ربهم والمقيمين الصلاة، ثم ذكر أن المتزكّي تعود إليه هو وحده فائدة التزكية: ﴿... إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ...﴾ [فاطر]، وذلك تنبيهاً على أن التزكية إنما تحصل للعبد بخشيته لربّه واقامته للصلاة.

الوسيلة الخامسة: ذكر الله تبارك وتعالى:

وذكر الله تعالى بأنواعه المختلفة الكثيرة التي سنشير إليها فيما بعد، من أكثر الوسائل تأثيراً في تزكية النفس، ان لم يكن أكثرها تأثيراً على الإطلاق، وذلك لأن لَهُ ارتباطاً ما بكل الوسائل الأخرى، فهو أعمُّ الوسائل وأعم الطاعات والعبادات وجوداً، والدليل على أن الذكر من أهم وسائل التزكية أو أهمها، هو:

أولاً: قد قلنا سابقاً بأن الإطلاع على آيات الله المتلوة، هو أساس التزكية، وتلاوة آيات الله هي نوع من الذكر، بل هي أعلى أنواع الذكر، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر].

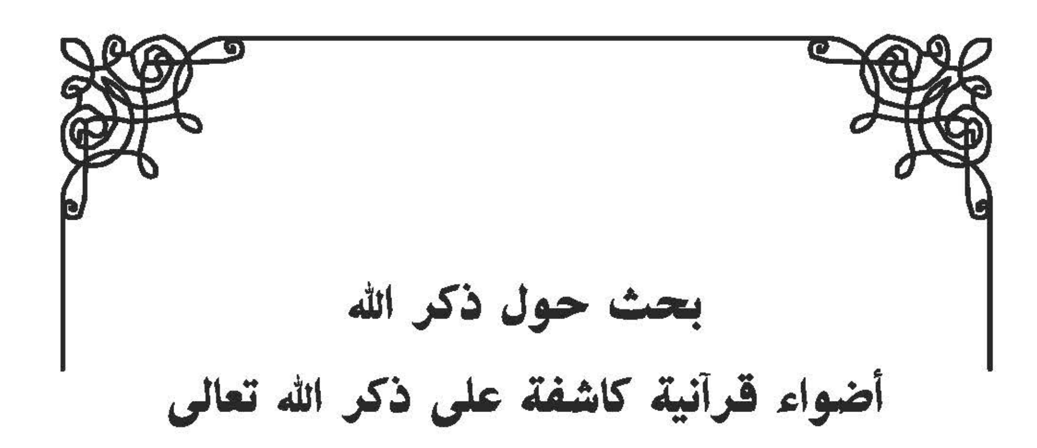
ثانياً: وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾

[الأعلى]، حيث ذكر سبحانه وتعالى أن المتزكي هو المفلح، ثم نبَّه على أهم وسائل التزكية، وهما الذكر والصلاة.

هذا وقد ذكرنا سابقاً: أَن النفس المطمئنة هي النفس التي قطعت مراحل التزكية، وارتقت في مدارج الطاعة والتقوى، فبلغت حدّاً من التعبد لله والقرب منه والأُنس به، بحيث حصلت لها السكينة والطمأنينة والإستقامة، وقد بيَّن سبحانه وتعالى أن القلب الذي هو مركز النفس ومحرِّكها، إنما يَطمئن بذكر الله تعالى، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد]، وهذا أبلغ برهان على الدور العظيم الذي يؤدّيه الذكر في مجال التزكية، ولهذا أرى من الضروري أنْ أُنبِّه على بعض المسائل المهمة المتعلقة بالذكر، في ضوء بعض آيات كتاب الله الحكيم، وذلك بغية تجلية المفهوم الحقيقي لذكر الله تعالى، الذي أصابه تشوّه وتَشَوُّشٌ كثير، من جرّاء الإِبتعاد به وفيه، عن مفهومه ومحتواه الحقيقي الشرعي.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑





بحث حول ذكر الله

أضواء قرآنية كاشفة على ذكر الله تعالى

وسنُسلِّط ضوء كتاب الله على ذكر الله، في النقاط الأربع الآتية:

١ ـ ما هو الذكر؟

٢ ـ أَهَمِّيَّةُ ذكر الله تعالى.

٣ ـ أنواع ذكر الله تعالى.

٤ ـ كيف نذكر الله تعالى؟

١) ما هو الذكر؟!

كلمة الذكر في اللغة تَعني: جعل شيء ما على البال وفي القلب، وعدم نسيانه والغفلة عنه، وقد يشارك القَلْبَ اللسانُ في عمله هذا، أو ينفرد به القلبُ(١).

وفي المفهوم القرآني ـ وكتاب الله يستعمل الكلمات والمفردات على أصل معانيها اللغوية، مضيفاً إليها بعض المفاهيم الأخرى ـ خُصَّت كلمة الذكر بذكر الله تعالى، إذ قلّما استعملت هذه الكلمة في كتاب الله، وكذلك في سنة رسول الله ﷺ، إلّا وقصد بها ذكر الله تعالى.

وذكر الله يعني جعل الله تبارك وتعالى على البالِ وفي القلب، سواء رافقه تلفّظ اللّسان أم لا، وهذا يعني: ألّا يُنسى الله تعالى ولا يُغفَلَ عنه، كما قال جلَّ شأنه:

١ ـ ﴿... وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ...﴾ [الكهف: ٢٤].

٢ ـ ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [الأعراف].

٣ ـ ﴿... وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

فهذه الآيات الثلاث تدل على أن الذكر ـ أي ذكر الله تعالى ـ هو ضدّ النسيان وضدّ الغفلة، وأن موطنه الأصلي هو القلب.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

---

(١) مختار الصِّحاح، ص٢٠٥، ٢٠٦، لفظ: ذ ك ر.

٢) أهمية ذكر الله تعالى:

وتتجلّى أهمية ذكر الله العظيم، والرّ ّ الكريم تبارك وتعالى، في أشياء كثيرة، منها:

أولاً: أنه أعم العبادات وجوداً وأشملها ارتباطاً بسائر العبادات، إذ ما من نوع من أنواع العبادة والطاعة، إلّا وللذكر به ارتباط، بل إنما تقبل العبادات والطاعات ـ بعد موافقتها للشرع ـ بِقدر ما فيها من ذكر الله تبارك وتعالى واستشعارِ عَظمته ومراقبته، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾﴾ [طه]، وهذا يفهم منه أن الصلاة هي أرقى وأعلى أنواع العبادة لله تعالى، ولكن الهدف منها أو لبها وروحها هي ذكر الله تعالى!

وكذلك قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [النساء]، وهذا يعني أيضاً أن الغاية من الصلاة هي ذكر الله تعالى، واستشعار ربوبيته وصفاته وأسمائه، إذ أقوال الصلاة كلّها ذكر الله تعالى ومخاطبة له ومناجاة معه، وقد منعنا الله تعالى عن الصلاة في حالة وجود مانع، وهو السكر ـ وكذلك غيره، كما يفهم من نصوص أخرى ـ يحول دون علمنا ووعينا بما نقوله فيها!

ولهذا عَد سبحانه وتعالى ذكر الله أكبر من تلاوة الكتاب، ومن الصلاة أيضاً، فقال: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [العنكبوت]، وذلك لأن ذكر الله تعالى هو الروح الساري في كل أنواع العبادة

والطاعة، وبالتالي فتلاوة كتاب الله والصلاة، إنما تقرِّبان العبد من الله تعالى وتُزَكِّيانه، بقدر ما فيهما من روح الذكر!

ومن الواضح أن كل أنواع العبادة ـ بمفهومها الحقيقي الشامل ـ يجب أن تسبقها النية (أي قصد وجه الله تعالى وابتغاء رضوانه بها) كي تقبل، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ۝٥﴾ [البينة] ـ، وقال رسول الله ﷺ: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ: البُخَارِيُّ برقم: (١)، وَمسْلِمٌ برقم: (١٩٠٧).

والنية هي إحضار ذكر الله تعالى في القلب، وتَوَجه القلب في القيام بما يقوم به إلى الله تعالى، قاصداً نيل رضوانه وثوابه[1].

وقد أمر الله تبارك وتعالى بذكره، بعد أَداء شعائر العبادة الثلاث الكبرى: الصلاة، وصيام رمضان، والحج والعمرة، إذ قال تعالى:

أ) ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْۚ...﴾ [النساء: ١٠٣].

ب) ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝١٨٥﴾ [البقرة].

ج) ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًاۗ ...﴾ [البقرة: ٢٠٠].

د) وكذلك أمر الله تعالى أهل الإيمان أن يُكْثِروا من ذكر الله حتى في خضمِّ القتال والعراك، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن، ص٨٣١.

﴿فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنفال]، ومدح سبحانه المؤمنين الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله تعالى، فقال: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ ...﴾ [النور: ٣٧].

ثانياً: أن الله تعالى لم يأمرنا بطاعة من الطاعات، إلّا وحدّد لها مقداراً ـ وَقّتها بوقت معين ـ سواء في كتابه مباشرة أو من خلال سنة رسولِهِ ﷺ ـ، إذ كل من الصلاة والصيام والزكاة والحج والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والحكم بالعدل ... إلخ، له مقدار، أو وقت محدّد، أو كيفية معيَّنة، وذلك باستثناء ذكر الله تعالى الذي فرضه الله تعالى وأمر به أمراً عاماً، فلم يحدّد له وقتاً أو مكاناً، ولم يعيِّن له مقداراً أو كيفية، بل أطلقه من كل القيود، سوى كونه شرعياً وفي إطار الشريعة الحكيمة.

إذ نرى أن الله تعالى أمر عباده المؤمنين، بأن يذكروه ذكراً كثيراً، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾﴾ [الأحزاب]، وهذا يعني أن يذكروه في كل الأوقات.

وأمرهم أن يذكروه قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم: ﴿... فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴿١٠٣﴾﴾ [النساء]، وهذا يعني أن يذكروه في جميع الحالات.

ثالثاً: ومما تتجلى فيه أهمية ذكر الله تعالى ومكانته العظمى، هو أن الله تعالى ربط به نتائج جليلة وثماراً كبيرة:

١) منها ربط الفلاح به، كما قال تعالى: ﴿... وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥].

٢) ومنها ربط ذكر الله تعالى للعبد به، كما قال: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ...﴾ [البقرة: ١٥٢].

٣) ومنها ربط صلوات الله وملائكته على الذاكرين به، وإخراجه إياهم من الظلمات إلى النور، كما قال جلَّ وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾ [الأحزاب].

٤) ومنها ربط مغفرة الله تعالى وأجره العظيم به، كما قال تعالى: ﴿... وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب].

٥) ومنها أنه سبب طمأنينة القلب، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد].

والطمأنينة[١] حالة تعتري القلب، من جرّاء استشعار القلب القرب من الله تعالى والإنس به، بسبب الطاعة والذكر، فَتُحْدِثُ فيه السكونَ والثَّباتَ والإستقرار والإستقامة على الطاعة، إيجاباً بفعل المأمورات، وسلباً باجتناب المحظورات، وكذلك تُحْدِثُ فيه الإقتناعَ العقلي التام والرضى القلبي الكامل، بكل ما يفعله الله تعالى، وبكل ما يجري به القدر من جهة ارتباطه بمشيئة الله التي لا يصدر منها إلّا ما هو مَبْنِيٌّ على العلم المطلق، والحكمة التامة، والعدل الذي لا تشوبُهُ شائبة الظلم أبداً، هذا ولا يَعْرِفُ الطمأنينة حق المعرفة إلّا من ذاقها، فَمن ذاقها عَرفَها بقدر تَذَوُّقِهِ لَها.



(١) مفردات ألفاظ القرآن، ص٥٢٤.

٣) أنواع ذكر الله تعالى:

وللذكر أنواع كثيرة، وهذه إشارة إلى أَهَمِّها، وهي ثمانية أنواع أساسيّة:

١ ـ تلاوة كتاب الله تعالى:

نعم إن تلاوة كتاب الله المبارك، أوّل أنواع الذكر وأرقاها وأعظمها، بل كتابُ الله تعالى هو أساس الذكر، كما هو أساس التزكية، وأساس العبادة والتقوى، وأساس كل خير وبركة.

والذكر أحد أسماء كتاب الله تعالى، قال تبارك وتعالى: ﴿...وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ...﴾ [النحل]، وقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر].

وقد تحدثنا عن كتاب الله المجيد وكيفية تلاوته، في الفصل الرابع من الباب الثاني (أي الكتاب السادس من هذه الموسوعة) فلا داعي للإعادة، ولكن أقول:

أولاً: ان تلاوة كتاب الله المبارك، هي أعظم الوسائل تأثيراً في تزكية النفس وخصوصاً في الصلوات، وبالأخص في صلاة الليل، كما قال الله الحكيم مخاطباً نبيه الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦﴾ [المزمل]، و﴿نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ﴾ هي الصلاة التي تنشأ وتصلّى بالليل.

ثانياً: بما ان كتاب الله العظيم حاوٍ لكل أنواع الذكر، فالتالي له يأتي

بكل أنواع الذكر، وذلك بالإضافة إلى الأنوار والبركات التي يُتْحِفُ بها كتابُ الله تاليَهُ، والتي لا توجد في شيء آخر أبداً.

ثالثاً: ومن الواضح أن أصحاب رسول الله رضوان الله عليهم، كانوا أصحَّ الناس فهماً لدين الله، وأعبد الناس لربِّهم جلّ جلاله، وتلاوة كتاب الله ليلاً ونهاراً، كانت الوسيلة الفضلى لذكرهم لله تعالى، كما هو ثابت في سيرة الرسول ﷺ وسيرة صحابته ﷺ، حيث وصفوا بأنهم: (ولهم دويّ كدويّ النّحل) أي: من كثرة ذكرهم لله تعالى، وتلاوتهم لكتابه الكريم.

٢ ـ التسبيح والتحميد:

ومن أنواع الذكر التي أمر بها كتاب الله وأكّد عليها، بمختلف الصيغ التعبيرية، هو (تسبيح الله تعالى) و(حمده والثناء عليه).

وتسبيح الله تعالى يعني تنزيهه وإبعاده عن كل ما لا يليق بجلاله وعظمته من النقائص والعيوب، و(حمده) يعني الثناء عليه بما هو له أهل، وذكر أسمائه الحسنى وصفاته العلى، وتذكّر آلائه التي لا تعدُّ ولا تُحصى.

وهذه بعض الآيات في هذا المجال:

أ) ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ [الواقعة].

ب) ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ [الأعلى].

ج) ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الروم].

د) ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ...﴾ [الحجر: ٩٨].

هـ) ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾﴾ [الصافات].

ويبدو لي ـ والله هو العليم الحكيم ـ أن أرقى مقام يمكن أن يصله العبد في معرفته بالله وعبادته له، وأفضل تعبير يمكن أن يعبّر به عن إظهار عبوديته لله تعالى والإقرار بخالقيته وربوبيته وألوهيته، يَتمثّل في تنزيه الله

تبارك وتعالى وتقديسه، والثناء عليه وحمده، وذلك لأن نهاية مطاف معرفة العبد بربِّه، وحصيلة عبوديَّته له وقربه منه، هي يقينه التام الذي لا يخالجه شك ولا ريب، بأن الله تبارك وتعالى منزّه عن كل نقص، وله الكمال المطلق.

وجديرٌ بالذكر أن تنزيه الله تعالى عن جميع النواقص، وتقديم المحامد كلها له، يَتَّسِعُ مفهومها حتى يشمل:

ذاته، وأسماءَهُ، وصفاته، وشؤونه، وأفعاله، وأقداره، وأحكامه، ومخلوقاته ... الخ.

فنقول: إنَّه سبحانه وتعالى:

أولاً: لا نقص البتة، لا في ذاته ولا في اسم من أسمائِه، ولا في صفة من صفاته، ولا في شأن من شؤونه، ولا في فَعل من أفعاله، ولا في قدر من أقداره، ولا في حكم من أحكامه، ولا في مخلوق من مخلوقاته.

ثانياً: بل له الكمال المطلق في كل شيء، أما ذاتُهُ فـ﴿...لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ ﴿١١﴾﴾ [الشورى]، إذ ليس سواه غير مخلوقاته.

وأما أسماؤهُ فكلّها حُسنى: ﴿...لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ [طه].

وأما صفاته فكلّها ُعليا: ﴿... وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ [الروم].

وأما شؤونه: فـ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرحمن]، وأفعاله كلُّها جديرة بالتأمُّل: ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ ﴿٤٥﴾﴾ [إبراهيم].

وأقداره: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر]، فكلّها حكيمة عادلة، كيف، وانما يُجْرِي سبحانه وتعالى شؤونه وأفعاله وأقداره، وفقاً لعلمه المحيط، وحكمته ورحمته التي وسعت كل شيء، وعدله الذي لا يشوبه ظلم، وبالتالي فتكون شؤونه وأفعاله وأَقدارُهُ، على قدر علمه وحكمته ورحمته وعدله.

وأمّا أحكامه (أي أحكامه التشريعية) فهي ناشئة من كلامه وكلماته، وكلماته كلها صادقة وعادلة، أصدق ما يكون الكلام وأعدله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام]، نعم كلمات الله المباركة تامة في صدقها خبراً، وتامة في عدلها حكماً.

وأمّا مخلوقاته فهي أيضاً من جهة كونها مخلوقةً لله تعالى، كلّها مخلوقة بحق وحكمة: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴿٣﴾﴾ [الأحقاف]، ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ﴿٢٧﴾﴾ [ص]، وأيضاً كلها مخلوقة بإتقان: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴿٨٨﴾﴾ [النمل]، وعلى أحسن ما يكون المخلوق: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿٧﴾﴾ [السجدة]، ولا يوجد في شيء منها نقص أبداً: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الملك]، وما نراهُ نقصاً في مخلوقات الله تعالى، فهو إمّا يبدو كذلك بسبب قصور نظرنا، أو حسب مقاييسنا، أو إنما نشأ وطرأ ذلك النقص بسبب تدخل أهواء شياطين الجن وطواغيت الإنس.

وإنما أردت بهذا الإستطراد الذي شابته كثير من العجلة، التنبيهَ على سعة مفهوم تسبيح الله وحمده، وأختم هذا الإستطراد بقولي:

يكون تسبيح الإنسان لله تبارك وتعالى وحمده له، وثناؤهُ عليه، على قدر معرفته بالله وإيمانه به وعبادته لَه وتقواه منه، إذاً: فلا يظننَّ ظان أن رسول الله ﷺ كان عندما يقول: (سبحان الله) أو (الحمد لله) أو (سبحان الله وبحمده)، كان يفهم من هذه الكلمات المباركات، ما نفهمه نحن من مفاهيم ومعاني فَحَسْبُ! كلّا، بل كلٌّ ينزِّه الله تعالى ويقدِّسه وَيَحْمَدُه ويُثْني عليه، بقدره وبِحَسبِ ما عنده، من معرفة الله تعالى، وإيمانٍ بِه، وعبادةٍ له، وتقوىً منه!

٣ ـ الدعاء:

والدعاء أيضاً نوع من أنواع ذكر الله تعالى، وهو نوع له خصوصية ينفرد بها من بين الأنواع الأخرى، وهي أَنَّ الدعاء خطاب مباشر مع الله

تبارك وتعالى، وطلب منه وسؤال ومناجاة، وهذه بعض الآيات حول الدعاء، وبعض ما يتعلق به من آداب:

أ) ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر].

ب) ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة].

ج) ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف].

ويمكننا فهم الحقائق السبع الآتية عن الدعاء، من الآيات المدرجة أعلاه:

الأولى: دعاء الله تعالى والطلب منه، واجب على العباد، إذ هو من أخص العبادة الواجبة لله تعالى، والدليل على هذا هو قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ﴾ [غافر]، وكذلك قوله تعالى على لسان عباده: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة]، أي: كما ان العبادة خاصة بالله، ولا يجوز فعلها لغير الله، كذلك الدعاء والإستعانة، والذي هو أخص أنواع العبادة، لا يجوز توجيهه لغير الله تبارك وتعالى.

الثانية: استجابة الله تعالى لدعاء العبد، مضمونة وأكيدة، لقوله تعالى: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر]، ولكن يجب أن يكون واضحاً لنا أن استجابة الله تعالى لِدُعاء العبد، مشروطة بشروط، سنشير إليها فيما بعد، وأيضاً استجابة الله تعالى، ليس معناها أن الله تعالى سيجيب طلب كل شخص، كما طلبه هو، وسيحقق له مطلبه! إذ الإستجابة ليست لها صورة واحدة محدّدة فقط، بل المقصود بإجابة الله، هو أن الله تعالى سيعطي الداعي جزاء دعائه في الدنيا أو في الآخرة، أو في كليهما، ولكن كما يراه هو سبحانه مناسباً، وحسب حكمته ولطفه، إذ ربما يسأل العبد شيئاً لا

يعرف انه ضرر محض له، أو ربما يدعو لِشَيءٍ، ولكن هناك ما هو له خير وأفضل[1]!

الثالثة: والدعاء هو أخص أنواع العبادة، ومن لم يدعُ الله تعالى تكبّراً عليه، فهو يدخل جهنَّم ذليلاً حقيراً، والدليل على هذا هو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر].

الرابعة: والله تبارك وتعالى قريب من عباده الطائعين السائلين، قُرباً خاصاً يليق به سبحانه وتعالى، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة]، وهذا يفهم منه أن العبد كلّما أظهر فقره وحاجته لله تعالى، وسأله بلسان الحال أو المقال، كلّما كان الله تعالى أقرب منه، فهو سبحانه بقدر ما هو بعيد عن المتكبّرين عن عبادته، قريب من المستسلمين له والمفتقرين إليه.

الخامسة: ويدل قوله تعالى: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة]، على شرف الدعاء، وعلى أن من لم يدع الله تعالى، لا تُضْمَنُ لَهُ الإجابةُ من الله الكريم، لأنه قال: ﴿إِذَا دَعَانِ﴾!.

السادسة: ولكن لإجابة الله دعاء العبد، شرطان أساسيان:

أ ـ إستجابة العبد لربّه، أي طاعته له، والتزامه بدينه وشريعته.

ب ـ إيمانه به سبحانه وتعالى.

لأن الله تعالى قال: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِي وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة]، أي: إنني أستجيب دعاءَهم، ولكن إذا أرادوا استجابتي، فليحققوا في أنفسهم هذين الشرطين، وهما: الإستجابة لي، والإيمان بي، ومعلوم أن

---

(١) كما يدلّ عليه هذا الحديث: عَن عُبَادَة بْن الصامِت ﷺ أن رَسُول الله ﷺ قال: (مَا علَى الأرْض مُسْلِم يَدْعُو الله تَعَالَى بِدَعْوَةٍ إلّا آتاهُ الله إيّاها، أَوْ صرف عَنْهُ مِنَ السُّو مِثْلَهَا، مَا لَمْ يَدْعُ بِإثْم، أَوْ قَطِيعَةِ رَحِم)، فَقَالَ رجُلٌ مِنَ القَومِ: إذاً نُكثِرُ قَالَ: (الله أَكْثَرُ)، رَوَاهُ التِرمِذِيُّ برَقم: (٣٥٧٣)، وَقَالَ: حَدِيثٌ حسن صحيح، وَرَوَاهُ الحَاكِمُ مِن روايةِ أَبي سعيدٍ وزاد فِيهِ: (أَوْ يَدَّخِرُ لَهُ مِن الأَجْر مثْلَها) مستدرك الحاكم: (١/٤٩٣).

الإِستجابة لأمر الله واتباع دينه، ثمرة الإيمان به، ولكن قُدِّمَتْ عليه تنويهاً بشأنها، كما في قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران]، إذْ معلومٌ أن الإيمان بِالله سابق على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجُوداً ورُتْبةً، ولكن قدّما عليه، للتنبيه على أن الإيمان الحق، هو الذي يُثْمِرُ في صاحبه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر!

إذن:

فبقدر ما يتصف العبد بالطاعة لله تعالى والإيمان به، يكون كريماً على الله تعالى ويستجيب دعاءه، متى يشاء وكيفما يشاء سبحانه وتعالى.

السابعة: ومن الآداب المهمة في الدعاء أن يدعو الدّاعي ربّه:

أ) **بتضرّع وتذلّل وخشوع.**

ب) **بصوت خفي (إذ هذا أدعى للتضرّع والخشوع، ولكن هناك حالات استثنائية).**

ج) **خائفاً منه وطامعاً في رحمته وفضله، أو خائفاً من عدم قبول دعائه، بالنظر إلى التقصير في توفير شروط الإِستجابة، وطامعاً في قبوله بالنظر إلى كرم ربّه!**

وتُؤخذُ هذه الآداب الثلاثة من الآيتين (٥٥، ٥٦) من (الأعراف).

كما ويؤخذ من سورة (الفاتحة) التي هي أعظم دعاء وأفضل مناجاة بين العبد وربّه، أدبٌ عظيم آخر من آداب الدعاء، وهو أن يُقَدِّم الداعي على دعائه، الحمد لله، والثناءَ عليه تعالى، إذ في الفاتحة يبدأ العبد بذكر اسم ربّه، ثم حمده، ثم الثناء عليه، ثم تمجيده، ثم الإِقرار له بالعبودية، والإِستعانة به وحده، ثم بعد ذلك يبدأ دعاءه، وهو طلب الهداية إلى صراط الله المستقيم...، ومعلوم أن مراعاة هذه الآداب أيضاً شرط لقبول الدعاء، ولكن نحن لم نجعلها شرطاً مستقلاً، لأن الإيمان بالله تعالى والإِستجابة لهُ يَتَضمَّنانِهِ.

٤ ـ الإستغفار:

والإستغفار (أي طلب العبد غفران الله تعالى لذنوبه وتقصيراته) نوع آخر من أنواع الذكر، ولِلإستغفار شأن مهم في مجال التعبد لله عموماً، ومجال التزكية خصوصاً، وهذه بعض الآيات المباركات، التي تُبيِّنُ بعض خصوصيات هذا النوع العظيم من ذكر الله الكريم:

أ ـ ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [النساء].

ب ـ ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنفال].

ج ـ ﴿. . .فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾﴾ [نوح].

د ـ ﴿. . . ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ. . .﴾ [هود: ٥٢].

هـ ـ ﴿. . .فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود: ٦١].

و ـ ﴿واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيك ودود﴾ [هود: ٩٠].

ز ـ ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ [المائدة].

ح ـ ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾﴾ [غافر].

ط ـ ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴿٣﴾﴾ [النصر].

ي ـ ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾﴾ [هود].

وتهبنا هذه الآيات الكريمات، الحقائق التسع الآتية، حول (الإستغفار)،

أي: طلب العبد مغفرة الله تبارك وتعالى:

الأولى: مهما اقترف العبد من الذنوب، سواء ممّا يتعلق بالناس أو بما بينه وبين الله، وهو ما اصطلح عليهما العلماء بـ(حق الناس) و(حق الله)، فهو إذا ما استغفر الله تعالى صادقاً، وأناب إليه حقاً، فإنه يغفر له سُوءَه وظلمه، ويتغمّده برحمته الواسعة، وهذا ما صرَّحت به الآية (١١٠) من (النساء): ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ وأنا أرى أن هذه الآية المباركة هي أرجى آية في كتاب الله الرحمن جل شأنه، كما ذكرته ووضحته في السابق.

الثانية: والإستغفار سبب لعدم نزول عذاب الله العزيز، إذ الإستغفار يُثمِرُ غفرانَ الله تعالى ورحمته، وحيثما وجدت مغفرته ورحمته، فلا مجال للغضب والعذاب والعقاب، وصرَّحت بهذه الحقيقة الآية (٣٣) من (الأنفال): ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ حيث جعل سبحانه عذابه محجوزاً عن المشركين المسيئين بسببين:

أ ـ وجود رسول الله ﷺ، فيهم.

ب ـ استغفارهم.

الثالثة: والإستغفار ـ بالإضافة إلى التطهير الأخروي من الذنوب ـ سبب لنزول بركات الله المتعدّدة من صحة الجسم وسعة الرزق، وكثرة الخيرات وازدياد النسل، كما يدل عليه كلام كل من نَبِيَّي الله تعالى الكريمين: (نوح) و(هود) في خطابهما مع قومهما، كما حكاه الله تعالى علينا في الآيات (١٠، ١١، ١٢) من (نوح)، والآية (٥٢) من (هود).

الرابعة: ولكن الإستغفار الحق، هو الذي تعقبهُ التوبة والرجوع الفعلي إلى الله تعالى، إقلاعاً عن الذنب، وشروعاً بالطاعة، وجبراً لما فات، كما يدلّ عليه، قول كلٍّ من (هود) و(صالح) و(شعيب) عليهم السلام في الآيات: (٥٢) و(٦١) و(٩٠) من (هود): ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ و﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ و﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾.

وذلك لأن العبد إذا كان جادّاً ي طلبه المغفرة من ربّه، سيصدِّق قولَهُ بفعله، وإلّا **فلا قيمة لكلام لا يتبعه عمل، إذْ ما جَدْوى لقلقة اللسان والكلام الفارغ غير النابع من أعماق القلب!**

الخامسة: والله سبحانه وتعالى قريب من العبد المستغفر التائب، ومجيب لدعائه ونداءه، وهو رحيم به يرحمه، ودود له يودّه ويحبُّه، وهذا ما يدل عليه، كلام كلٍّ من (صالح) و(شعيب) في الآيتين (٦١ و٩٠) من (هود): حيث يقولان: ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ و﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾.

السادسة: ومهما كان ذنب العبد عظيماً وخطيئته جسيمة، فالله الكريم الحليم تبارك اسمه، يحبُّ أن يستغفره ويتوب إليه كي يغفر له ويتوب عليه، ويتغمّده برحمته وإحسانه، كما يدل عليه قول الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ [المائدة]، وهذا الخطاب المتضمن لذلك العتاب اللطيف الذي يذيب حتى القلب القاسي الذي كالجلمود، موجّه إلى النصارى الذين جعلوا عيسى وروح القدس (جبريل) عليهما السلام، شريكين لله تعالى في الخالقية والربوبية والألوهية جميعا[1]!! إذ الآية (٧٤) جاءت بعد قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة]، وقوله: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [المائدة]، في الآيتين (٧٢ و٧٣)، ولكن على الرّغم من هذه الحماقة العظيمة، والإفتراء الشنيع، والظلم الفظيع، إذ لا حماقة أعظم، ولا إفتراء أشنع، ولا ظلم أفظع، من نسبة

---

(١) يمكنك للإطلاع على تلك الحماقات للنصارى قراءة كتاب: (التفسير التطبيقي للعهد الجديد) البالغ أكثر من ألف (١٠٠٠) صفحة، حيث يصرِّح الكتاب متناً وشرحاً وفي مواضع كثيرة جداً، بأن (عيسى بن مريم) عليه السلام هو ابن الله حقيقة، وانه يشكل هو وروح القدس مع الله تعالى، الأقانيم الثلاثة التي يتكون منها الله تعالى!! سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً، وانظر على سبيل المثال (شرح الثالوث) و(دور الثالوث في الخلاص) و(عقيدة الثالوث)، في ص ٩٦٩، ٩٧٠ من الفهرس.

الولد أو الشريك إلى الله الخالق الباريء المصوِّر الذي ليس كمثله شيء! نعم على الرغم من هذا، يدعوهم الرب الحليم إلى التوبة والإستغفار، كي يغفر لهم ويرحمهم!

فسبحانك يا ربِّي! ما أرحمك وأحلمك وأكرمك!

السابعة: وكما أن أعظم وأرقى ما يصله العبد المؤمن من مقام، بالنسبة لمعرفته بربِّه وعبوديته له وقربه منه، هو التسبيح له وتقديم الحمد والثناء، كذلك أسمى ما يبلغه العبد من حال ومقام، بالنسبة لعلاقته بربِّه وأدائِه لحقوقه العظيمة عليه، هو شعوره بالتقصير تجاهَهُ، ومن ثم استغفاره منه وطلب عفوه ورحمته، ولهذا أمر الله تعالى نبيه الخاتم (محمداً) ﷺ، بهذه الأشياء الثلاثة مجتمعة في موضعين في كتابه الحكيم، وهما: الآية (٥٥) من (غافر)، والآية (٣) من (النصر): ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٥٥﴾﴾ [غافر]، و﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾﴾ [النصر].

نعم حقاً:

أن أعلى مقام وأسماه، في علاقة العبد بربِّه الكريم العظيم جل جلاله، هو شعوره بالقصور والتقصير تجاهه، ومِنْ ثَمَّ طلب عفوه ومغفرته ورضوانه، وكما أن الإنسان كلَّما ارتقى على مدارج الإيمان والعبادة والتقوى، واقترب من الله تعالى: ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [العلق]، ازداد معرفة واقتناعاً ويقيناً بنزاهة الله تبارك وتعالى وقَداسته وجلاله وكبريائه وكماله، ذاتاً وصفات وأسماءً وشؤوناً وأفعالاً وأقداراً وأحكاماً، كذلك كلما ازداد معرفة بالله تعالى وكونه سبّوحاً وقدّوساً وحميداً ومجيداً، ازداد شعوره بقصوره وتقصيره تجاهه، ومن ثم أوغل في الإستغفار والتوبة والإنابة إليه!

وهذا هو السرُّ في كثرة استغفار الأنبياء، وتوبتهم وإنابتهم إلى الله واعترافهم بتقصيرهم، وخصوصاً خاتمهم وأفضلهم وسيدهم (محمد) ﷺ وعليهم أجمعين، وقد يظن الجاهل بهذا السرِّ العظيم، أن الأنبياء عليهم

الصلاة السلام ربما ارتكبوا ذنوباً كثيرةً، بسبب ما يرى ويسمع من كثرة استغفارهم لربهم وانابتهم إليه! ولكن الأمر ليس كما ظن، بل هو كما قلنا برهان على علوّ مقام أولئك الصفوة المختارة من البشرية، وإدراكهم لعظمة الخالق جل جلاله وعظم حقوقه، ومن قصورهم وتقصيرهم في العبادة والطاعة - مع أنهم كانوا في القمة - بالقياس إلى ما لله تعالى من جلال وعظمة وكبرياء، ولما له من حقوق عظيمة على عباده!

الثامنة: وتُلَخصُ الآيات (١، ٢، ٣) من (هود) حكمة انزال الله تعالى كتابه الكريم وإحكامه آياته، ومن ثم تفصيلها وتوضيحها، في أَمْرَيْن هما: توحيد الله تعالى في العبادة، ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ﴾، والإستغفار من الله والتوبة إليه ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ [هود]، والحكمة في هذا حسبما أرى، هي: أن العبادة لله تعالى هي الحكمة التي من أجلها خلق الله الجن والإنس: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات]، لِذا فحق لهذه الغاية العظيمة أن ينزل الله تعالى كتبه ويرسل رسله لتحقيقها، ولكن بما أن البشر، وكذلك الجن، بل وغيرهم أيضاً كالملائكة، مهما اجتهدوا لا يمكنهم أن يعبدوا الله تعالى حق عبادته التي تليق به، لذا لِزَم أن يكون الإستغفار منه والتوبة، إليه صِنواً للعبادة والطاعة القاصرة - بالنسبة لمقام الله - كي ينجبر النقص بالإستغفار والإعتذار، ويُصبح للعبادة وجه للقبول عنده.

التاسعة: والإستغفار - مع العبادة لله تعالى - سبب لتمتيع الله الناس بالحياة الدنيا وإفضاله عليهم، كل على قدره، وحسب استعداده، وبذله للجهد، كما يدل عليه قوله تعالى، ﴿... يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ ۝٣﴾ [هود]، ولكن بخلاف ذلك، الطغيانُ على الله تعالى ونسيانهُ، سببٌ للهلاك والدمار والبوار، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمۡ فَرِيقَانِ يَخۡتَصِمُونَ ۝٤٥ قَالَ يَٰقَوۡمِ لِمَ تَسۡتَعۡجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِۖ لَوۡلَا تَسۡتَغۡفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ۝٤٦﴾ [النمل]، أَجَلْ، كما أن الإستغفار يجلب للعباد الرحمة والبركة والخير،

كذلك الإستكبار على الله تعالى والطغيان عليه، سبب للمصائب والبلايا (السيئة)، وكما قال تعالى في مكان آخر: ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْاْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُواْ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ [الفجر].

هذا وموضوع الإستغفار له ذيل طويل، ولكن نكتفي منه بهذا القدر.

٥ ـ التكبير (الله أكبر):

كما قال تعالى لنبيه الكريم: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾ [الإسراء]، وواضح أن المقصود بتكبير الله تعالى المأمور به في الآية الكريمة، هو قول: (الله أكبر).

و(الكبير) من أسماء الله الحسنى وكذلك (العظيم)، والمراد بـ(الله أكبر) أي: الله تعالى أكبر وأجلّ وأعظم من كل الحيثيّات اللائقة به من غيره مطلقاً، إذْ لا وجود لغيره، سوى مخلوقاته، والخالق جلّ شأنه أعلى وأجل وأعظم وأكبر من مخلوقاته مطلقاً.

٦ ـ التفريد بالألوهية والتوحيد (لا إله إلّا الله):

وقد ورد تفريد الله تعالى بالألوهية وتوحيده، في آيات كثيرة وبصيغ تعبيرية شتّى، إذ كما قلنا في الباب الثاني في الفصل الثاني منه، (أي في الكتاب الثالث) إنَّ توحيد الله تعالى وتفريده في الألوهية وإفراده بالعبادة، هو قُطْبُ رَحى رسالات الله ودعوة الأنبياء جميعاً عليهم الصلاة والسلام، وهذه بعض الآيات وردت فيها كلمة التوحيد الكبرى:

أ ـ ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة].

ب ـ ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾﴾ [آل عمران].

ج ـ ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴿١٩﴾﴾ [محمد].

د ـ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الصافات].

هـ ـ ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنبياء].

٧ ـ الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ:

كما قال جلّ شأنه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [الأحزاب].

وانما تُعتبر الصلاة والسلام على رسول الله، نوعاً من أنواع ذكر الله، لأنه يجري فيها ذكر الله تعالى، عندما نطلب من الله العظيم أن يصلي ويسلّم على نبيه الخاتم (محمد) صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

٨ ـ ذكر الله تعالى في مختلف الحالات:

١) عند رؤية شيء يعجَب به:

ففي هذه الحالة تقول: **(ما شاء الله لا قوّة إلّا بالله)**، وذلك لقوله تعالى على لسان الرجل الصالح المحاور لصاحب الجنتين المغرور: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ ﴿٣٩﴾﴾ [الكهف]، ومعنى هذه الجملة: ما شاء الله كان، ولا قوّة إلّا بالله في تحصيل النعم، والغرض من هذا الذكر هو إرجاع النِّعمِ إلى المُنْعِمِ جلّ جلاله، وعدم الغرور بها.

٢) عند ذكر إرادة فعل عمل مّا:

وفي هذه الحالة تقول: **(ان شاء الله)** كما قال تعالى مخاطباً ومؤدباً لرسوله الحبيب (محمد) ﷺ، عندما ُجهتْ إليه ثلاثة أسئلة، ووعد السائلين أن يجيبهم عليها غداً، آملاً أن يأتيه الوحي بأجوبتها، وناسياً قول (إن شاء الله): ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟ىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾ [الكهف].

وحكمة ذلك الذكر المبارك، هي: أن الأمور كلّها مرهونة بمشيئة الله تعالى، فما شاءه وأراده كان، وما لم يشأه فلن يكون، مهما بذلت الجهود.

٣) عند رؤية الأعداء أو سماع تهديدهم ووعيدهم:

وفي هذه الحالة يُنْدَبُ الذكر المبارك الذي حكاه الله تعالى عن أصحاب رسول الله ﷺ ورضوان الله عليهم، وذلك في أعقاب غزوة أحد لما سمعوا تهديد المشركين بالعودة إليهم والهجوم على المدينة: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران]، ومعنى ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ أي: ان الله تعالى كافينا، وهو خير مَنْ نوكِّل إليه أمورنا.

٤) عند تولِّي الناس وإِعراضهم عن الدعوة أو عن الحق:

وفي هذه الحالة تقول: ﴿حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ [التوبة]، وذلك لأن الله تعالى قال لنبيه: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ﴾.

٥) عند المصائب والبلايا:

وفي هذه الحالة تقول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾، لأن الله تعالى أثنى على الذين يقولون هذا الكلام، عندما تصيبهم مصيبة، ووَعَدَهُمْ وعوداً عظيمة، فقال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [البقرة].

ولكن يجب التنبّه إلى حقيقة مهمة، وهي:

ليس المقصود بقول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ هو مجرد التفوّه به، تى يكون كل متفوِّهٍ ومتلفِّظٍ بهذا الذكر، وكذلك بالأذكار الأخرى، مستحقاً لوعود الله الحسنى، بل المقصود بهذه الأذكار، هو أن تكون بحق معبّرة عمّا هو مستقرّ في فؤاد الإنسان ومتغلغل في سويداء قلبه، من الإعتماد على الله تعالى، والوثوق به، والسرور بثوابه، والإيمان بِمَعيَّتِهِ ونُصْرَتِهِ وولايته ووكالته، وبقدر ما تكون هذه الأذكار نابعة من القلب، يكون قائلها صادقاً فيها وصادقاً مع الله، ووعود الله تعالى الدنيوية والأخروية كلها مرتبطة بأهل الصدق، كما قال تعالى: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ ﴿٢٤﴾﴾

[الأحزاب]، وقال: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ (١١٩)﴾ [المائدة].

ومعنى جملة ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ باختصار هو:

الإقرار بالمملوكية لله في الدنيا، وبالرجوع إليه في الأخرى، أي: الإقرار بأن مبدأ وجودنا منه سبحانه وتعالى، ومصيرنا إليه، ومن استيقن هاتين الحقيقتين العظيمتين بحق، هانت عليه المصائب والبلايا وهذا شيء واقعي ومجرّب.

٦) عند ركوب المركوب (من الدوابّ والآليات من سيارة وقطار وسفينة وطائرة...):

ويندب في هذه الحالة قول: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ وذلك لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ (١٢) لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ (١٣)﴾ [الزخرف].

٧) عند ركوب السفينة خاصةً، وكذلك الطائرة:

ويُقالُ في هذه الحالة: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وذلك لأن الله تعالى قال حاكياً قول نوح عليه السلام عند ركوبه السفينة في أيام الطوفان العظيم: ﴿۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (٤١)﴾ [هود].

٨) عند النزول من المركوب، أياً كان نوعه:

ويندب في هذه الحالة هذا الذكر المبارك: ﴿رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ وذلك لأن الله تعالى قال لنوح عليه السلام أن يقول هذا الكلام عند نزوله وهبوطه من السفينة: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ (٢٩)﴾ [المؤمنون].

٩) وعند وجدان نعمة وحصولها:

يندب قول: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى﴾، لأن سليمان عليه السلام لما أحْضَرَ له

الذي عنده علم من الكتاب، عَرْشَ ملكة سبأ في طرفة عين، قال: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [النمل].

فهذه تسع حالات مختلفة، ويمكن الإتيان بأذكار أخرى لحالات أُخرى، ولكن نكتفي بهذا القدر، إذ لم يكن قصدنا استقصاء كل الحالات والأذكار المخصوصة بها في كتاب الله المبارك، بل أردنا التنبيه فحسب، على كيفية الإرتباط بالله تبارك وتعالى، عن طريق ذكره، وفي مختلف الحالات.

وجديرٌ بالذكر أن رسول الله ﷺ قد فصَّل لنا كيفية ذكر الله تعالى في مختلف الحالات في سنته المباركة، حيث بيَّن لنا قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾﴾ [الأحزاب]، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران].

وهذه إشارة مختصرة إلى بعض الأذكار العظيمة التي علَّمنا إياها رسولُ الله ﷺ مقتبساً كلَّها أو جُلَّها من آيات كتاب الله تعالى، منفِّذاً لأمره ومبيِّناً لذكره المبارك، وكان في كل ذلك مُتَّبِعاً لوحي الله وتوجيهه المستمر، كما هو واضح وضوح الشمس في رابعة النهار في سنته وسيرته[1].

● **أما التكبير والتوحيد في الألوهية (الله أكبر، أشهد أن لَا إله إلّا الله):**

فجعلهما في (الأذان)[2] و(الإقامة)[3] و(تشهّد الصلاة)[4] فيتكرّران في اليوم مرّات كثيرة، وجعل التكبير خصوصاً في مفتتح الصلاة، وانتقالات الصلاة، وحركاتها كلِّها[5]، وكذلك في العيدين (عيد

---

(١) وقد خرّجنا بعضاً من هذه الأحاديث الشريفة الحاوية على هذه الأذكار، في الفصل الأول من الكتاب الأول أيضاً.

(٢) سنن أبي داود: ٤٢٣، وسنن ابن ماجه: ٧٠٠.

(٣) المصدران السابقان.

(٤) صحيح البخاري: ٥٩١٥، وصحيح مسلم: ٦٠١.

(٥) سنن الترمذي: ٧٣٦.

الأضحى)[1] و(عيد رمضان)[2].

- **وأما التسبيح والتحميد والتقديس، والإِستغفار:**

فجعلها رسول الله الحكيم ﷺ في (الركوع) و(السجود) وذلك بمختلف الصيغ، مثل:

أ) **للركوع: (سبحان ربي العظيم)[3] و(سبحان ربي العظيم وبحمده)[4].**

ب) **للسجود: (سبحان ربي الأعلى)[5] و(سبحان ربي الأعلى وبحمده)[6].**

وفي كليهما: **(سبحانك اللَّهم ربّنا وبحمدك، اللَّهم اغفر لي)[7] و(سبّوح قدوس رب الملائكة والروح)[8].**

وجعل التحميد خاصة بعد الرفع من الركوع وذلك بعدّة صيغ، مثل: **(سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد)[9] و(سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد، ملأ السموات والأرض وملأ ما شئت من شيء بعد، أهل الثناء والمجد، أحق ما قال العبد، وكلنا لك عبد، اللّهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجدِّ منك الجدُّ)[10].**

وكذلك جعل الإِستغفار خاصة بعد التسليم من الصلاة ثلاثاً هكذا: **(أستغفر الله أستغفر الله أستغفر الله)[11].**

---

(١) صحيح البخاري: ٧٥٢.
(٢) سنن أبي داود: ٩٧٠.
(٣) صحيح مسلم: ١٢٨٣، وسنن الترمذي: ١٠٩٤، وسنن إبن ماجه: ٨٧٧.
(٤) سنن أبي داود: ٧٣٦، ومسند الإمام أحمد: ١٧٠٢١، وسنن الدارقطني: ١٢٩٦.
(٥) صحيح مسلم: ١٢٨٣، وسنن الترمذي: ١٠٩٤، وسنن ابن ماجه: ٨٧٧.
(٦) سنن أبي داود، ٧٣٦، ومسند الأمام أحمد: ١٧٠٢١، وسنن الدارقطني: ١٢٩٦.
(٧) صحيح البخاري: ٧٥١، وصحيح مسلم: ٧٣٨.
(٨) صحيح مسلم: ٧٤٤، وسنن أبي داود: ٧٣٨، وسنن النسائي: ١٠٣٧.
(٩) صحيح البخاري: ٦٤٧.
(١٠) صحيح مسلم: ٧٢٨.
(١١) صحيح مسلم: ٢٩٢٣، سنن النسائي: ١٣١٩.

- **وأما توحيد الله في ألوهيته وتمجيده، والثناء عليه معاً وفي سياق واحد:**

فجعلها أيضاً بعد التسليم من الصلاة المفروضة، بهذه الصيغة: (لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه، له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون)[1].

- **وأما التسبيح والتحميد والتكبير والتوحيد والتمجيد معاً، وفي سياق واحد:**

فجعلها بعد الصلوات المفروضة، وبهذه الصورة[2]:

(**سبحان الله**) ثلاثاً وثلاثين مرة.

(**الحمد لله**) ثلاثاً وثلاثين مرة.

(**الله أكبر**) ثلاثاً وثلاثين مرة.

تمام المائة (**لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت، وهو على كل شيء قدير**).

- **وقد أكد سبحانه وتعالى على ذكر الله في الصباح والمساء في آيات كثيرة، وقد حدّد رسول الله ﷺ أن يقول المسلم في الصباح وفي المساء مائة مرة:**

(سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم)[3].

- **وهناك أذكار أكّد عليها رسول الله ﷺ كثيراً مثل:**

أ ـ (لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت، وهو على كل شيء قدير)[4].

---

(١) صحيح مسلم: ٩٢٧.

(٢) سنن أبي داود: ١٢٨٦.

(٣) صحيح البخاري: ٦٣٠٩، صحيح مسلم: ٤٨٣٨.

(٤) سنن الترمذي: ٢٥١٩، ومسند الإمام أحمد: ١٨٦٨٤.

ب ـ **(سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر)**(١).

ج ـ **(سبحان الله وبحمده عدد خلقه، ورضا نفسه، وزِنَةَ عرشه، ومِدادَ كلماته)**(٢).

د ـ **(أستغفرك وأتوب إليك)**(٣).

هـ ـ **(لا حول ولا قوة إلّا بالله)**(٤).

وكما ذكرنا سابقاً، فقد حدَّد رسول الله ﷺ لكل الحالات والشؤون المختلفة، أذكاراً مخصوصة، مثل السفر، ولُبْسِ اللباس، والطعام والشراب، وهبوب الرياح، وسماع الرعد... إلخ، وهذا كله يطلب من مظانِّه، في كتب السنة الشريفة.



---

(١) صحيح مسلم: ٤٨٣٩.
(٢) صحيح مسلم: ٤٨٨٣، وسنن أبي داود: ١٢٨٥.
(٣) صحيح مسلم: ١٢٨٢.
(٤) صحيح البخاري: ٣٨٨١.

٤) كيف نذكر الله تعالى؟

قال سبحانه وتعالى مخاطباً نبيه محمداً ﷺ: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [الأعراف].

وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾﴾ [المزمل].

وقال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الحج].

وتبيِّن لنا هذه الآيات الكريمات، كيفية ذكر الله تبارك وتعالى والتي تتمثّل في البنود الستة الآتية:

الأولى: ينبغي أن يكون الذكر بضراعة وخشوع واستكانة وخضوع:
﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا﴾ [الأعراف].

الثانية: ويجب أن يكون مُتَلَبِّساً بخشية وهيبة من الله تعالى، واستشعار لجلاله وعظمته: ﴿وَخِيفَةً﴾.

الثالثة: وأن يكون اللسان مشاركاً للقلب: ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾.

الرابعة: وألاّ يكون برفع صوت وصياح وصراخ، بل بصوت خافض خفي: ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾، كما قال تعالى: عن (زكريا) عليه السلام: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾﴾ [مريم].

الخامسة: وان يكون هناك انغماس في الذكر، وتفاعل معه، وانقطاع إلى الله تعالى، واستغراق في شهود جلاله وجماله وعظمته: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾.

السادسة: وأن يحدث وَجَلٌ وارتجافٌ واهتزازٌ للقلب والمشاعر: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الحج].

وجديرٌ بالذكر أن الأصل في ذكر الله تعالى هو القلب، ولكن مشاركة اللسان أيضاً تساعد القلب، والذكر الحقيقي يجعل البدن كله يشارك في تذكر الله تعالى: العقل بالتفكر، والقلب بالخشوع، واللسان بالتضرع، والعين بالدموع، وسائر البدن بالإهتزاز.

ويجب ألّا يَغيبنَّ عنّا أن ذكر الله تعالى لنا، يكون على قدر ذكرنا له، قوةً وضعفاً.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑



والآن: نعود إلى إكمال إدراج الوسائل التسع المهمة في مجال تزكية النّفس:

الوسيلة السادسة: الإنفاق في سبيل الله:

نعم إن الإنفاق في سبيل الله تعالى، وسيلة أخرى من وسائل تزكية النفس، بدليل قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴿١٠٣﴾﴾ [التوبة]، وقوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴿١٨﴾﴾ [الليل].

وانما سميت الزكاة زكاة، لأنها سبب لزكاء النفس وزكاء المال أيضاً.

وسبب نموّ التقوى في النفس، وبالتالي نمو النفس ۡيَنۡها وترعرعها من جرّاء الإنفاق في سبيل الله، هو أن النفس إنما يزداد التقوى فيها وينمو، إذا ما كانت مقبلة على الله تعالى ومُؤْثِرَةً له ولرضوانه على كل شيء، وإنفاق الإنسان أموالَهُ لوجه الله تعالى، دليل على أن قلبه ليس عبداً لغير الله تعالى، وأنه مستعدٌّ لِبَذْلِ كل شيء في سبيل نيل رضا الله تعالى، وقد قيل: إنَّ المال شقيق النفس، وكُلَّما ذكر الله تعالى الجهادَ في سبيل الله، في كتابه، قدَّم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس، إلا نادراً، مثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾﴾ ﴿وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴿١١﴾﴾ [الصف].

والإنفاق في سبيل الله وابتغاء رضوانه، سبب لتثبيت النفس على الإيمان والتقوى، وبالتالي تزكيتها ورشدها ونموُّها في الخير والصلاح، كما قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾﴾ [البقرة].

الوسيلة السابعة: الإلتزام بالشريعة وآدابها الرفيعة، في مجال التعامل الإجتماعي:

والدليل على أن النفس تتزكى، ويتقوّى فيها التقوى، بسبب التزام

الإنسان بالآداب الإجتماعية الرفيعة التي أَمَرَ بها شريعة الله الحكيمة، هو قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [النور].

حيث يأمر الله تعالى أهل الإيمان في مجال التَّزاور، بهذه الآداب الرفيعة:

أولاً: عدم دخول أحد بيت غيره، إلّا بعد الإستئناس، والإستئناس أبلغ وأكثر معنىً من الإستئذان، فالإستئناس هو أن تستشف وتطلع على رضى أهل البيت المزور واستعدادهم لزيارتك قبل الدخول عليهم، فالإستئناس استئذان وزيادة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟. . .﴾ [النور].

ثانياً: وعدم الدخول بعد الإستئناس إلا بعد التسليم على أهل البيت (وتسلموا على أهلها) وصيغة السلام كما جاءت في السنة النبوية[1]: (السلام عليكم) أو (السلام عليكم ورحمة الله) أو (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته).

وهذا - أي الإستئناس والتسليم - إذا كان أهل البيت المزور موجودين، وأمّا إذا لم يكونوا متواجدين في البيت، فهذه مسألة أخرى، ولها حكم آخر.

ثالثاً: وعدم دخول البيت أصلاً، إذا لم يكن أهله موجودين فيه، إلّا إذا كان مأذوناً له: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾.

رابعاً: وإذا كانوا موجودين، ولكن طلبوا عدم الدخول وأمروا

---

(١) رَواهُ البُخَارِي: ٥٨٨٠، وَمُسْلِم: ٥٠٥٣، وَالتِّرمِذِيُّ: ٣٤٧٧.

بالإنصراف، فلا يجوز الدخول أيضاً: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ . . .﴾.

والشاهد في الآيتين هو قوله تعالى: ﴿هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ﴾ حيث جعل سبحانه وتعالى الإلتزام بهذه الآداب، سبب التزكية.

الوسيلة الثامنة: الإبتعاد عن المعاصي صغائرها وكبائرها:

والدليل عليه قوله تعالى مخاطباً نبيه الكريم:

﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ٣٠﴾ [النور]، حيث يأمر الله تعالى النبي أن يأمر المؤمنين - الرجال - بغض البصر وحفظ الفرج، وانما قدم غض البصر على حفظ الفرج، لأن النظر مقدّمة من مقدّمات الزنى، وكما قيل: (مُعْظَمُ النّار من مستصغر الشرر).

والغضُّ هو النقص[1]، وأدخل الله تعالى (من) على (أبصارهم)، لأن المقصود هو غضُّ الطَّرْفِ عن النظر بشهوة، وليس مطلق الإبصار والنظر.

واعتبر سبحانه وتعالى غَضَّ الطَّرْفِ عن النَّظر الحرام وحِفْظَ الفرج، سببا للتزكية، فقال: ﴿ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ﴾.

الوسيلة التاسعة: الإستمداد من الله تعالى والإستنجاد برحمته وفضله:

وذلك لأن الله تعالى ربط حصول زكاء النفس بفضله ورحمته، فقال: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢١﴾ [النور].

والملاحظ أن الله تعالى قال قبل الكلام السابق: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا

(١) مفردات ألفاظ القرآن، ص٦٠٧، ٦٠٨.

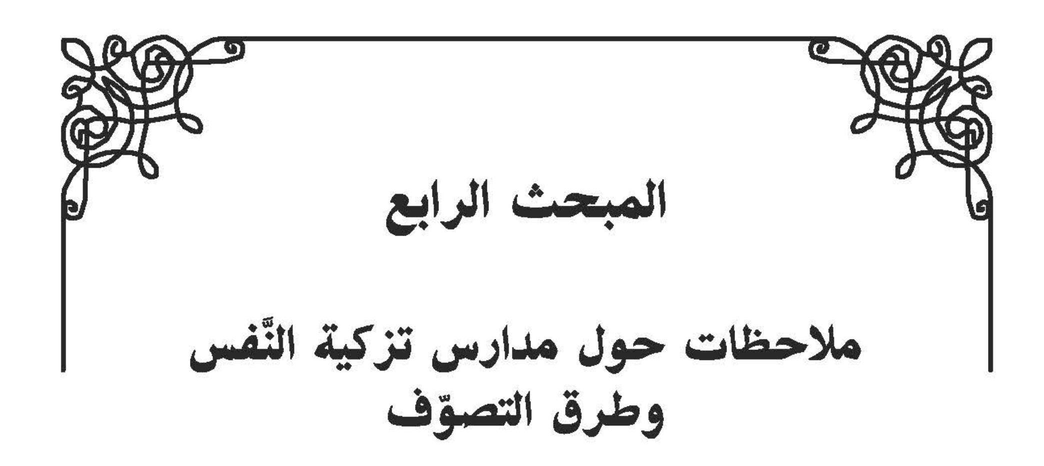
تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ﴾ [النور]، وذلك يفهم منه أن اتباع خطوات الشيطان وسلوك طريقه، يؤدي بالإنسان إلى خلاف التزكية الذي هو الفحشاء والمنكر، ولكن من توجَّه إلى الله تعالى، واعتصم به، واتبع كتابه الذي هو نوره ورحمته وهداه وفضله، فَسَيُوِّفقه الله تعالى للتزكية، كما قال جل شأنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾ [النساء].

وقد قال رسول الله ﷺ في أحد أدعيته: «**اللهُمَّ آتِ نَفسِي تَقوَاهَا، ز ِّهَا أَنْتَ خَيرُ ـنْ ز ّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ برقم: (٤٨٧٧)، وَالنَّسَائِي برقم: (٥٣٦٢)، وَأَحْمَد برقم: (٢٠١٨٠).

وإلى هنا ننهي الحديث عن وسائل التزكية[١] التي اخترنا منها هذه التسع، لورودها مقترنة بكلمة التزكية نفسها، وإلّا فهي كثيرة جداً كما قلنا سابقاً.

وبهذا نكمل المطلب الثاني من المبحث الثالث، وننتقل إلى المبحث الرابع والأخير من الفصل الرابع.

(١) وقد فصَّلنا القول عن التزكية في كتابنا: (طريق الصَّلاح والسير الى الله تعالى).



المبحث الرابع

ملاحظات حول مدارس تزكية النَّفس وطرق التصوّف

ونحاول تلخيصَ ملاحظاتنا حول هذا الموضوع، في المطالب الأربعة الآتية:

١ يجب التفرقة بين تزكيةِ النَّفسِ، وبين مدارسها وطرقها.

٢ ـ التزكية بمفهومها الخاص، جانب من جوانب الإِسلام فحسب.

٣ ـ مؤسِّسوا مدارس التزكية ومن تُنسَبُ إليهم طرقِ التصوّف، كانوا من علماء الإِسلام وأئمة المسلمين.

٤ ـ ليست مدارس التزكية وطرقِ التصوف، سوى تجارب واجتهادات للعلماء والأئمة، يُترك منها ويؤخذ، حسب ميزان الكتاب والسنة.

المطلب الأول:
يجب التفرقة بين تزكية النفس، وبين مدارسها وطرقها

ان أولى الملاحظات في هذا المجال، هي أن نفرق تفرقة واضحة بين أَمرين اثنين:

أ ـ تزكية النفس في حدِّ ذاتها.

ب ـ مدارس تزكية النفس وطرق التصوُّف.

وهذه التفرقة ضرورية جداً، لكل من يسعى أن يكون حَكماً عَدْلاً في تقييم مدارس تزكية النفس وطرق التصوف، وذلك لأن (تزكية النفس) في حدّ ذاتها، كما وضّحنا ذلك في السابق، موضوع إسلامي بُحْت، اهتم به كتاب الله الكريم كثيراً، والسعي لامتلاك زكاء النفس، أو حسب اصطلاح علماء التزكية: (التحلية بالفضائل، والتخلية من الرذائل) وظيفة إسلامية، وواجب إيماني على كل مسلم ومؤمن، وقاسم مشترك بين أهل الإيمان جميعاً، وليس حِكْراً على طائفة معينة منهم فحسب، إذْ قد ربط الله تعالى الفلاح بحصول الزكاء النفسي، وكل المسلمين يسعون للفلاح، ولن يُنال الفلاح إلا بسلوك طريقِهِ، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾﴾ [الأعلى].

هذا بالنسبة للتزكية في ذات نفسها، وكحقيقة قرآنية مجرّدة.

وأما موضوع مدارس تزكية النفس وطرق التصوف، فموضوع آخر وله حكم آخر، وذلك لأَن مدارس تزكية النفس والطرق الصوفية عموماً، إنما هي محاولات واجتهادات بشرية لتوضيح كيفية تزكية النفس، والوصول إلى

الزكاء النفسي المطلوب شرعاً، مثلها في ذلك مثل المدارس الفكرية، والمذاهب الفقهية التي نشأت لتوضيح مفهوم الإيمان والعقيدة في جانب، واستنباط الأحكام الشرعية العَمَلية من الشريعة من جانب آخر، وواضح أن الإيمان في حد ذاته شيء، والمدارس الفكرية بمختلف اتجاهاتها، والتي حاوَلَتْ شرحَ مفهوم الإيمان وبيان مستلزماته وأحكامه، شيء آخر، كما أن الشريعة المتمثلة في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ شيء، والمذاهب الفقهية التي حاوَلَتْ استنباط الأحكام من الشريعة، وبيان كيفية الإِلتزام بها، شيء آخر، ولكل منهما حكمه الخاص.

وهذه مسألة مهمة جداً لأن الخلط بين ما هو حقيقة قرآنية ثابتة، وواجبة على كل المسلمين، وبين ما هو مسألة اجتهادية، ومحاولة بشرية قد يُحالِفُهُ الصواب، أو يُخْالِفُهُ، يجرّ إلينا مشاكل كثيرة، ويوقعنا في كثير من الشطط والظلم.

وبناءً عليه:

فلا يحق لأحد أن يدَّعي احتكاره لقضية (تزكية النفس) وأنَّها لن تُنال إلّا من طريقه! لأنّ زكاءَ النَّفس صفة أساسية في كلِّ مسلم، وواجبة عليهم جميعاً بدون استثناء، وينالونها بمقدار إيمانهم، وبقدر قربهم من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ فهماً وإلتزاماً.

كما أنه لا يحق لأحد ادعاء احتكار جانب العقيدة أو اتباع السنة أو الفقه أو الجهاد... إلخ، في دين الله تعالى، لأن كل هذه الأمور مُلْزِمة للمسلمين جميعاً، ولا يجوز توزيع الدين وتقسيمه بين عدة طوائف، وجماعات، ثم اختصاص كل فئة وجماعة بقسم منه! لأن هذا عادة المشركين، كما قال تعالى: ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الحجر]، ونزلت[1] هاتان الآيتان في المشركين الذين كانوا يقتسمون مداخل (مكة) فيما بينهم، لتنفير الغرباء عن النبي ﷺ والقرآن،

(١) المصباح المنير في تهذيب تفسير أبن كثير، ص٧١٩.

والذين قسّموا القرآن فيما بينهم، إلى أنواع فمنهم من يقول انه شعر، ومنهم من يقول أنه سحر، أو كهانة.

والآن من يريد أن يحصر دين الله في جانب منه على حساب جوانبه الأخرى، يشبه تَصَرُّفهُ تجاه دين الله وكتابه، موقِفَ المشركين السابقين!

وقد ذكرنا سابقاً أن أساس التفرق والتمزّق في صف أهل الدين (بمعناه الخاص) هو تفريق الدين إلى مِزق وأشتات، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ [الأنعام]، وانما لا تبقى لمتفرّقين في دين الله أيّةُ صِلة برسول الله ﷺ، لأنّ دين الله وشريعته، إنما يعتبر ديناً، وتعتبر شريعة، إذا ما أُخِذَ كما هو، ولكن إذا مزّق وفُرّق بين أجزائه، فلا يبقى الدِّينَ الذي أنزله الله، مثله مثل الكائن الحي الذي تمزّق أشلاء، فهل يبقى في عداد الأحياء؟!

وهذه المسألة غير مسألة التخصص في جانب أو أكثر في دين الله، إذ أهل الإِختصاص يُشْكَرون على صنيعهم، بقدر اجتهادتهم وإصابتهم وإفادتهم.

والملاحظ اننا استعملنا كلاً من مصطلحي: (مدارس التزكية) و(طرق التصوف) وذلك لأن التراث الذي خَلّفه لنا علماء الإسلام رحمة الله عليهم في مجال تزكية النفس، لا يتمثل فقط في طرق التصوف التي لها أتباع وكيانات قائمة، كما هو الفهم الشائع في الناس، بل قبل طرق التصوف، ناك مدارس واجتهادات في مجال تزكية النفس، تَرَكها لنا المتخصِّصون في هذا الشأن في بطون الكتب، ومما لا شك فيه أن الأَصالة وإصابة الحق في المدارس التزكوية المُسَطّرة في الكتب، أكثر منه بكثير مما في طريق التصوف القائمة.

ويمكننا أن نشير ـ كأمثلة للمدارس التزكوية ـ إلى كتب كل من: (أبي حارث المحاسبي)[1] و(أبي حامد الغزالي)[2] و(أبي قاسم

(١) أنظر كتابه: (الرعاية).

(٢) أنظر كتابه: (إحياء علوم الدين).

القُشَيْري)[١] و(عبدالقادر الجيلاني)[٢] و(ابن تيمية)[٣] و(ابن قيِّم الجوزية)[٤] و(سيد أحمد السرهندي)[٥] و(مولانا خالد الكردي)[٦] و(بديع الزمان سعيد النورسي)[٧] رحمة الله عليهم أجمعين.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑



---

(١) أنظر كتابه: (الرسالة).
(٢) أنظر كتابيه: (الفتح الربّاني) و(فتوح الغيب).
(٣) أنظر المجلّدين: (٩ و١٠) في (مجموع الفتاوى) المعنونين بـ (التصوف والسلوك).
(٤) أنظر: (مدارج السالكين شرح منازل السائرين).
(٥) أنظر: (المكتوبات) وقد ألَّفها باللغة الفارسية ثم ترجمت للعربية.
(٦) له كتاب جمعت فيه (مكتوباته)، أي رسائله التي تدور في هذا المجال.
(٧) أنظر: (رسائل النور) وهي عبارة عن (١٣٠) رسالة، تحت عناوين شتّى، وهي مطبوعة بعد ترجمتها من التركية الى العربية في تسعة مجلدات.

المطلب الثاني:
التزكية بمفهومها الخاص،
جانب من جوانب الإسلام فَحَسْب

نعم أن تزكية النفس بمفهومها الخاص، الذي هو عبارة عن سعي الإنسان للإرتقاء بنفسه في مدارج التقوى والصلاح، إلى أن يتمكن التقوى ويترسخ في نفسه، وبالتالي تصبح نفسه تقية زكية متحلية بالفضائل، كاليقين والصبر والشكر والتوكل والرضا والصدق والوفاء والسخاء والشجاعة ولين الجانب وسعة الصدر والسماحة... إلخ، ومُتَخلِّيةً عن الرذائل، كالشك والهلع والكفران والسخط وسوء الظن والغدر والكذب والبخل والجبن والفظاظة وضيق الصدر والبذاءة... إلخ، التزكية بهذا المفهوم، جانب واحد فقط من جوانب الإسلام، ولا ينحصر الإسلام فيه، ومن الظلم الفادح لدين الله القيم الذي وسع أمورَ الدنيا والآخرة، وشمل الحياة بكافة جوانبها الشخصية والجماعية، أن يتصوره أحد من الناس أو فئة منهم، بأنه منحصر في دائرة معينة لا يعدوها، ثم يتصور عند تمسكه بذلك الجانب الذي حصر فيه دين الله بظنه، أنه مفلح فائز سعيد! وأنه لا ينقصه في تديّنه وإسلامه شيء!!

وانما تنشأ هذه التصورات الإِنحرافية للإسلام - من حصره كُلَّه في دائرة معينة وجانب معيَّن منه - من جرّاء الإِبتعاد عن كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، إذ كتاب الله، ميزان عدل دقيق يضع الأمور كلها في واضعها، وبقدر ما يتشبّع المسلم بحقائق كتاب الله، يحصل له الإِتّزان في النظر إلى الأمور، ويُعْصَمُ من الشطط والغلو والإفراط والتفريط والتجاوز والتقصير، وقال تعالى مخاطباً نبيه الحكيم: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾﴾ [هود].

المطلب الثالث:
مؤسّسوا مدارس التزكية، ومن تنسب إليهم طرق التصوف، كانوا من علماء الإسلام وأئمة المسلمين

نعم إن الذين ذكرنا أسماءهم في المطلب الأول من هذا المبحث وأمثالهم مِمَّن لم نذكر أسماءهم، كانوا علماء أجلاء وأئمة مهديين، من أئمة المسلمين المحيين لسنة النبي الأمين عليه الصلاة والسلام، والرافعين للواء الشريعة الغرّاء، وكان همهم نشر حقائق الدين، وتعليم المسلمين وتربيتهم عليها، وكان ديدنهم إحياء السنن وإماتة البدع، ولم يك هَمُّ أحد منهم، سَنُّ طريقة معينة تشتهر باسمه، ولا جمع المريدين حوله، وانما حدثت كل هذه الأشياء وغيرها بعدهم، ولهذا قلت: (ومن تُنْسَبُ إليهم الطرُقُ الصوفية)!

لِذا يُلْزِمُنا الإسلامُ والإيمانُ أن نوقِّر أولئك الهداة المرشدين، كما يليق بالأئمة والعلماء، ويجب ألّا نسيء الظن بهم، بسبب ما نراه من مخالفات شرعية، وبدع وخرافات، بل وشركيات فيمن يدعون أنهم من أتباعهم وسائرون على طريقهم، إذْ كما أنه من الظلم الشنيع أن نحمِّل أئمة الفقه المشهورين، أمثال سفيان الثوري، وأبي حنيفة، وجعفر الصادق، ومالك، وزيد بن علي (زين العابدين)، والشافعي، وأحمد، وأبي داود الظاهري، وأبي جعفر الطبري... وِزْرَ أخطاء بعضٍ من منتسبي مذاهبهم وفتاويهم واجتهاداتهم، لأنه: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ⑱﴾ [فاطر]، كذلك أئمة المدارس التزكوية، وَمنْ تُنْسَبُ إليهم الطرق الصوفية، بالنسبة لأخطاء من يدعون الإنتساب إليهم والتمسك بطريقتهم، والتي لم تكن لهم طريقة سوى طريقة رسول الله ﷺ، المُتَمثِّلة في سنَّته التي لم تكن هي أيضاً سوى اتباع كتاب الله وبيانه وتطبيقه في مختلف المجالات، كما بيَّنا ذلك سابقاً.

هذا ومن يتأمل كتب أولئك الأفاضل رحمهم الله تعالى، ثم يقارن بين ما فيها، وبين واقع أكثر منتسبي الطرق الصوفية، يجد بينهما فرقاً كبيراً وبوناً شاسعا، فعلى سبيل المثال: مَنْ يقرأ كتابي: (الفتح الرّباني) و(فتوح الغيب) للشيخ عبدالقادر الجيلاني رحمه الله تعالى، ثم يقارن بينهما وبين تصرّفات منتسبي كثير من الطريقة المعروفة بـ(الطريقة القادرية) يجد الفرق بينهما كما بين الثريّا والثّرى، إذ هو يؤكِّد فيهما أيما تأكيد على التوحيد (إفراد الله تعالى بالعبادة) واتباع السّنّة النبوية[1]، ولكن أكثر من يدّعون الإِنتساب إلى طريقته ـ على قدر علمي ـ غارقون في أنواع الشرك والبدع وإتيان الخزَعبلات التي لم ينزل الله بها سلطاناً.

وكذلك من يقرأ ويتأمل كتاب: (المكتوبات) للسيد أحمد السرهندي المشهور بالإمام الربّاني رحمه الله تعالى، ثم يقارن بينه وبين واقع كثير من الصوفية، الذين يعرفون بالنقشية أو النقشبندية المدّعين أَنهم سائرون على نهج ذلك الإمام، يرى فرقاً عظيماً بين ما سمعه من الإِمام، وما يراه ويسمعه مِمّن يعتبرون أنفسهم مأموميه، إذ هو في كتابه المذكور يؤكِّد كثيراً على التوحيد الخالص، وعلى اتباع السنة واجتناب البدعة كلها، ويُخَطِّىءُ رأي الّذين يُقَسِّمون البدع إلى حسنة ومذمومة، ويقول: ان البدع كلها سيئة ولا حُسْنَ فيها لأنّها تقوم بديلا عن السنن، فما أُحْدِثَتْ بدعة إلّا بإماتةِ سنة[2]، ولكن نرى ونسمع كثيراً من الصوفية النقشبندية، يتلبّسون بالشرك، من جرّاء استمدادهم من غير الله تعالى والإِستغاثة بالأموات، ونسبة كثير من صفات الله إلى شيوخهم، من معرفة الغيب وشفاء المرض... إلخ، وكذلك أحدثوا بدعاً كثيرة خطيرة في مجال الذكر خصوصاً، والعبادة عموماً، مثلهم في ذلك مثل من يعرفون بالطريقة القادرية، والفرق بينهما هو فقط في نوعية وكيفية الشرك والبدعة لا غير.

---

(١) أنظر: الفتح الرباني والفيض الرحماني، ص٥٤، ٥٥، وص٦٢، ٦٣.

(٢) انظر: مكتوبات الإمام الرباني، ج١ ص١٥٩، ط٢. وانظر (طريق الصلاح والسّير إلى الله: تزكية النفس في ضوء القرآن والسنّة) للمؤلف، ص١٩٢- ١٩٤، ط١ دار الحكمة ـ ٢٠١٢م.

المطلب الرابع:
ليست مدارس التزكية وطرق التصوُّف، سوى تجارب واجتهادات للعلماء والأئمة، يُترك منها ويؤخذ، حسب ميزان الكتاب والسنة

نعم إن كلاً من المدارس التزكوية التي تحتوي عليها كتب أئمة المسلمين وعلمائِهم المتخصصين في جانب تزكية النفس، والطرق الصوفية الموجودة حالياً والمندثرة سابقاً، إنما تعتبر تراثاً من تراث علماء الإسلام ونتاجاً من تجاربهم واجتهاداتهم، كسائر تراث ونتاج وتجارب العلماء في جوانب الإسلام الأخرى.

إذن:

نأخُذُ من ذلك النتاج والتراث ونَدَعُ، في ضوء كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، وندعو لعلمائنا وأئمتنا بالخير ونحترم اجتهاداتهم وتجاربهم التي تركوها لنا، في مجال تزكية النفس والأخلاق، ويجب أن نضع نصب أعيننا حقيقتين اثنتين، ونحن نَتَعامل مع تراث التزكية والتصوف، وهما:

الأولى: الدين شيءٌ، والفهم في الدين شيء آخر، فالدين شأن رباني، إذْ هو الوحي المتمثل في الكتاب والسنة، وهذا لا يحتمل الخطأ، إذ الوحي ناشيء من علم الله تعالى، وعلم الله تبارك وتعالى كسائر صفاته، كامِل، ولا تشوبه شائبة الجهل أبداً، ولكن الفهم للدين أو في الدين، شأن إنساني، إذْ هو عبارة عن محاولة الإنسان، فهمَ حقائق الدين، لذا فهو لا يعتبر جزءاً من الدين ولا معصوماً من الخطأ، ولهذا قال العلماء والأئمة رحمهم الله: (أقوال العلماء، يُسْتَدلُّ لها، ولا يُسْتَدلُّ بها).

الثانية: قد كثر الخطأ والإنحراف في تراثنا الروحي المتمثل في كتب ما يعرف بالعرفان والتصوف، لذا يجب الحذر والحيطة عند مطالعة كتب القوم، وأرى أن ذلك يرجع إلى سببين:

أولهما: بُعْدُ كثيرٍ من أهل التصوف، وخصوصاً المتأخرين منهم عن الكتاب والسنّة، والإستعاضة عنهما ـ بظنهم ـ بالحكايات والمنامات الغريبة التي تُحكى على سبيل الكرامة لأصحابها، والتي اختلط بها كثير من الكذب والخداع والتضليل والتهويل، وعلى فرض صحتها، فكيف تكون تلك الأشياء بديلاً للوحي المتمثل في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ؟! ورحم الله الإمام الشافعي الذي ربما قصد بقوله هذا النوع من النقول والحكايات، عندما قال:

كل العلوم سوى القرآن مشغلة   إلّا الحديث وعلم الفقه في الدّين
العلم ما كان فيه: قال، حدّثنا   وما سوى ذاك وسواس الشياطين

ثانيهما: تغلّب العاطفة والمشاعر القلبية على العقل في هذا المجال، وجَليٌّ أنه تكثر الشطحات والبدع والدعاوى الفارغة، ما لم يهدِ الشرعُ العقلَ، وما لم يُضبَط القَلْبُ وأحاسيسه.

ومن الواضح أنه من الظلم للدين، أن يحسب عليه كل ما دوِّن وقيل تحت اسمه وعنوانه، وإن كان ناقَضَ أصولَه وبديهيّاتِهِ، وأُنبِّه بهذا الخصوص على كتب (محي الدين بن عربي) خصوصاً كتابه: (فُصوص الحكم) الذي حوى من الكفر الصريح كثيراً جداً، و(ابن سبعين) و(ابن الفارض) وغيرهم الذين نسبتْ إليهم كتب وأقوال لا تحتمل غير الكفر والزندقة، وخاصة قضية (وحدة الوجود) التي اقتبسوها من الفلاسفة الملحدين، وإذا لم يمكننا الحكم على أشخاص أولئك، لعدم معرفتنا الدقيقة بصحة نسبة هذه الكتب والأقوال إليهم، والخاتمة التي خُتِمَتْ بها حياتُهُم، فلا بدَّ مِنْ أَن نحكم على ذلك التراث الذي سُجِّل باسمهم ونسب إليهم، بأنه كفر وضلال وخبال.

ولكن في الجانب الآخر، من الخطأ أيضاً أن نرفض كُل ما يسمّى بتراث التصوف، لوجود أخطاء فيه، إذ رفض خير كثير، لتلبّسِ شرٍّ قليل به، من الخطأ البيِّن، والموقف الشرعي الرّصين المتّزِنُ المُنْصِفُ، هو أن

نطبق الآية الكريمة: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾ [الزمر]، ومعلوم أن نتاج الفكر البشري كله، لا يخلو من خطأ، لذا فلا مندوحة لنا من أن نتعامل مع تراثنا الفكري كله، وفي كل المجالات وليس مجال التزكية والتصوف فحسب، وفقاً لهذه الآية الكريمة، والقاعدة المقتبسة منها والتي تقول: (خُذْ ما صفا، دَعْ ما كدَر).

وأختم هذا المبحث بإشارة مختصرة إلى اسم (التصوف) فأقول:

سواء اشتق اسم (التصوف) من (الصوف) بسبب لبس القوم اللباس المصنوع من الصوف، وهذا وهو الرأي الرّاجحُ، أو من (الصفاء) أي صفاء القلب وطهارته من الكدورات والأغيار، أو من (الصّفة) التي كانت في مسجد النبي ﷺ، وكان يجلس عليها (أهل الصفة) المتجرّدون للتعبّد والتفقه والجهاد في زمنه ﷺ، نعم من أي من هذه الألفاظ أو غيرها اشتق اسم التصوف، فليس هذا شيئاً مهماً في حدِّ ذاته، وانما المهم هو المحتوى الذي يشتمل عليه اسم التصوف، وإلّا فإن مصطلحات: (التفسير، والتاريخ، والعقيدة، وأصول الفقه، والتجويد، والنحو، والصرف، والبلاغة... إلخ)، أيضاً كلها استحدثت بعد أن لم يكن لها وجود في زمن رسول الله ﷺ.

ولكن أنا أحبِّذ أن نستعمل المصطلح القرآني وهو (التزكية) لأنه أدل على المقصود، وأبعد من القيل والقال، وإثارة الجدال والإشكال.

وقد استعمل بعض العلماء لفظ (الإحسان) الوارد في حديث جبريل المشهور، عنواناً لهذا الجانب المهم من التدين.

وقد فصَّلْت القول في هذا الموضوع في كتابي المؤلَّف باللغة الكردية والمترجم إلى العربية تحت عنوان: (طريق الصلاح والسير إلى الله تعالى: تزكية النفس في ضوء القرآن والسنة).

وبهذا ننهي هذا الفصل الرابع، وننتقل بإذن الله وتوفيقه إلى الفصل الخامس والأخير من هذا الكتاب، وهو: (التحلِّي بالفضائل) أو: (التعامل مع الله تعالى بالخصال الحميدة، ومع الناس بخلق حسن).


لە تۆڕە کۆمەڵایەتییەکان لەگەڵتانین
Stay in touch on social media
نحن معكم عبر مواقع التواصل الاجتماعي
MediaAmeerOffice
AliBapir/عەلی باپیر
AliBapirw/عەلی باپیر
AliBapir1
archive.org/details/@alibapir
PDF
AliBapir/عەلی باپیر
AliBapir
Google Play
App Store
AliBapir / عەلی باپیر
www.alibapir.net
English - عربي - كوردی
ڕاگەیاندنی مەکتەبی ئەمیر



الفصل الخامس

التحلِّي بالفضائل
أو
التعامل مع الله تعالى بالخصال الحميدة، ومع الناس بخلق حسن


لە تۆڕە کۆمەڵایەتییەکان لەگەڵتانین
Stay in touch on social media
نحن معكم عبر مواقع التواصل الاجتماعي
MediaAmeerOffice
AliBapir/عەلی باپیر
AliBapirw/عەلی باپیر
AliBapir1
archive.org/details/@alibapir
AliBapir/عەلی باپیر
AliBapir
AliBapir / عەلی باپیر
Google Play
App Store
www.alibapir.net
کوردی - عربي - English
ڕاگەیاندنی مەکتەبی ئەمیر



إن التحلّي بالفضائِل، والذي يَتَجسَّد في التعامل مع الله تبارك وتعالى على أساس الخصال الكريمة المحبوبة لله تعالى، ومع الناس بخلق حسن وبأدب رفيع، هو المظهر الخامس من مظاهر الإِهتداء الشخصي بهدى الله تبارك وتعالى، والإِلتزام الفردي بشريعته، والتديّن بدينه الحق، وكما أنَّ كلاً من المظاهر الأربعة السابقة، كان ثمرة ونتيجة لما سَبَقَهُ من المظاهر، وأولها الإيمان، فإِن التعامل مع الله بالخصال الحميدة، ومع الناس بخلق حسن، كذلك ثمرة للمظاهر السابقة، وفي مقدمتها الإيمان، ونتيجة لها.

وسنفصِّل القول عن هذا الموضوع بإذن الله الكريم في المباحث الأربعة الآتية:

١. **المقصود بالخصال الحميدة، ومعنى حسن الخلق، وكيفية ارتباطه بكل من الإيمان، والعبادة، والتقوى، والإِستمساك بالكتاب، واتباع الرسول ﷺ، والتزكية.**

٢. **مكانة حسن الخلق في دين الله القيم.**

٣. **من أين نتعلّم ُ ْنَ الخُلقِ، وكيف نَكْتَسِبُهُ؟!**

٤. **الخصال الحميدة والأخلاق الحسنة المذكورة في كتاب الله الحكيم.**

وسندرج الآيات التي نكتب في ضوئِها المباحث الأربعة، عند البحث حول كل مبحث على حدة، ولهذا لم نَسْرِدْها هنا ونَبْدَأُ بالمبحث الأول:



المبحث الأول

المقصود بالخصال الحميدة، ومعنى حسن الخلق، وكيفية ارتباطه بكل من الإيمان والعبادة والتقوى والإِستمساك بالكتاب، واتِّباع الرسول ﷺ والتزكية

نقصد بالخصال الحميدة والصفات الممدوحة التي يجب على العبد المؤمن أن يتحلّى بها، ويُحَققَها في نفسه، عند تعامله مع ربِّه في إطار العبودية، تلك الصفات والخصال التي أثنى عليها الله تعالى وعلى المتصفين بها، في ثنايا آيات كتابه الحكيم، بدءاً بالإيمان والعبادة والتوحيد واليقين، ومروراً بالصبر والشكر والتوكل، وانتهاءً بالطمأنينة والتفويض والرضى، وقد حاولنا إحصاء تلك الخصال أو على الأقل أبرزها، في ثلاث وثلاثين خصلة سنأتي على ذكرها في المطلب الأول من المبحث الرابع بإذن الله، وذلك في ضوء آيات كتاب الله المبارك، المصدر الوحيد الذي اعتمدنا عليه في تحديد تلك الخصال.

والمقصود بِحُسْنِ الخلق، أو الخُلُقُ الحَسَن، هو تلك الأخلاق الحسنة والخصال الحميدة التي حسَّنها شَرْعُ الله تبارك وتعالى، المُتَمثِّلُ في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، كالصدق والصبر والعفو والرحمة والعدل والإحسان.. وغيرها مما سنذكرها لاحقاً انْ شاء الله تعالى، ومعلوم أن كل ما حسَّنه الشرع الحكيم، فهو حسن أيضاً عند العقل السليم، إذْ أنزل الله تبارك وتعالى شريعتَهُ الحكيمة، وفقاً للفطرة السليمة التي فطر عليها البشر، كما

قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الروم].

والتعامل مع الناس بِخلُقٍ حَسَن، يعني التحلّيَ بالأخلاق الحسنة والآداب الشخصية الرفيعة، والخصال الحميدة، عند التعامل مع الناس بكل أصنافهم، كما قال نبي الله الأكرم (محمد) ﷺ: **«اتَّقِ الله حَيْثُمَا كُنتَ وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخلُقٍ حَسَنٍ»** رَوَاهُ التِّرمِذِيُّ برقم: (١٩٨٧). وَقَال: حَديث حَسَن، عَنْ أَبِي ذَرٍّ، وَحَسَّنَه الشيخ الألباني.

هذا بالنسبة لمعنى ومفهوم حسن الخلق، والتعامل مع الناس على أساسه، وأما بالنسبة لكيفية ارتباط الخلق الحسن، بكلٍّ من: الإيمان والعبادة والتقوى، والإستمساك بكتاب الله، واتباع رسول الله ﷺ، وتزكية النفس، فنقول: ان لكل من الإيمان والعبادة والتقوى، والإستمساك بالقرآن، والإقتداء بالنبي، وتزكية النفس، ارتباطاً بالخلق الحسن، وتأثيراً في وجوده، وذلك لأنه:

أولاً: أمّا الإيمان وخصوصاً الإيمان بالله واليوم الآخر، فهو ينبوع الفضائل كلّها، بل الإيمان هو الذي يعطي المعنى والروح والسند للفضائل، ولهذا فكلما رَسَخَ الإيمانُ في القلب وكَمُلَ، زادت نِسْبَة الفضائل كماً وكيفاً في الإنسان، وفي الأغلب ما ذكر الله تعالى فضيلة أو فضائل في كتابه، إلّا وقدّم لها بذكر الإيمان، سواء على سبيل التعريف بالمؤمنين، أو على سبيل خاطبتهم وتنبيههم على الفضائل، التي يجب أن يُثْمِرَها الإيمان فيهم، مثل قوله تعالى:

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾﴾ [المؤمنون].

وقوله تعالى: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦) وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ (٣٨) وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ (٣٩)﴾ [الشورى].

__ثانياً:__ وأما العبادة فهي الوسيلة الوحيدة التي يتقرَّب بها العبد إلى ربِّه، ولا نسبة بين الرب العظيم الذي ليس كمثله شيء، والعبد المخلوق ،إلا نسبة العبودية، وكما أن الأجرام الدائرة في فلك جاذبية الشمس والمسماة بالمجموعة الشمسية، إنما يكتسب أحَدُها، النورَ والحرارةَ، بقدر قربه من الشمس التي هي مركز الضوء والحرارة، كذلك العبيد الدائرون في فلك العبودية والعبادة لله تعالى، ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الروم]، إنما ينال أحدُهم، نورَ الفضائل وروحَ الخصال الحميدة، بمقدار قربه من الله الكبير المتعال، ولهذا يأمر سبحانه وتعالى رسوله (محمداً) في سياق آيات تتحدث عما يتعرَّض له ﷺ من الأذى من قبل الكفار، بالسجود لله تعالى والإقتراب منه، وعدم المبالاة بالأذى، الذي يتعرَّض له: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ (١٠) أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ (١١) أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ (١٢) أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ (١٣) أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ (١٤) كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ (١٧) سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ (١٨) كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ (١٩)﴾ [العلق]، وذلك لكي يكتسب بَلْ يزداد فضائل الصبر والإستقامة والثبات والعزم... إلخ، بسبب العبادة التي يتقرب بها إلى الله تبارك وتعالى، وقد ذكر سبحانه في أكثر من موضع من كتابه الحكيم، هذه الحقيقة ـ أي ارتباط الفضائل بالعبادة وانبثاقها منها ـ، فعلى سبيل المثال:

قال سبحانه وتعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ (١) فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ (٢) وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ (٣) فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ (٤) ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ (٧)﴾ [الماعون].

كما نرى: يعرِّف سبحانه المكذِّب بالدين ـ وهو بمعنى الجزاء هنا ـ بأنه هو الذي يدفع اليتيم بعنف وشدة، ولا يحثُّ غيره على إطعام المسكين، ثم يهدِّد سبحانه المصلين الذين هم غافلون عن حقيقة صلاتهم، وانما يؤدونها رياءً فقط، والدليل على غفلتهم عن صلاتهم، هو أنهم يمنعون المساعدة لغيرهم!

ومعنى هذا:

أَنَّ العبادة ـ والصلاة أجْلى مَظاهرها ـ تُكْسِبُ الإنسانَ الفضائل، من: رحمة باليتيم، ومواساة للمسكين، ومساعدة للمحتاجين، إذاً: مَن لم تُثْمِرْ عبادَتُه وصلاتُه فيه، هذه الآثارَ والثمارَ، فهو بِمَعْزِلٍ عن العبادة الحقة، وعن إِقامة الصلاة الحقيقية، وهو بدل الثواب، يستحق الويلَ والعذاب، على صلاته الخاوية الخالية من الروح!

وقال سبحانه وتعالى:

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ . . . وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ . . . وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ . . . . . . وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾﴾ [الفرقان].

وهنا بعد أن يصف الله تعالى مجموعة من الناس بـ(عِبادُ الرَّحْمَنِ)، ويضيفهم إلى نفسه بنسبة العبادة والعبودية، يمدحهم بصفات جليلة وخصال حميدة، سنشير إليها فيما بعد، وهذا يدل على أن العبادة لله تبارك وتعالى يُحَلِّي الإنسان بالفضائل، وحسن الخلق وكريم الخصال.

ثالثاً: وأما التقوى والذي هو ثمرة الإيمان والعبادة، كذلك جعله الله أساس حسن الخلق والفضائل الرفيعة، فعلى سبيل المثال: يقول تبارك وتعالى:

﴿۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ

﴿... أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ . . .﴾ [آل عمران].

ودلالة هذه الآيات المباركات واضحة على أن التقوى يجعل صاحبه مُتحلِّياً بالأخلاق الحسنة، ومُجْتنِباً لمساوئها، ومبادراً لإصلاح وتلافي ما بدر منه، عند ساعة غفلة، أو شهوة جامحة.

رابعاً: وأما ارتباط الخلق الحسن، بالإستمساك بكتاب الله، فلأن كتاب الله كما أنه هو أساس كل خير وبركة، كذلك هو الدال والهادي إلى الفضائل كلها، والأخلاق الحسنة بِرُمَّتها، كما نبيِّن ذلك في المبحث الرابع تفصيلاً ـ إنْ شاء الله ـ، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾ [الإسراء]، وكذلك قوله: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾ [التكوير]، كافيان للتدليل الإجمالي لمى المطلوب، وذلك لأن الله تعالى في آية (الإسراء) يَصِفُ كتابَهُ الحكيم، ويعرِّفه بأنه يهدي للطريقة التي هي أقوم، أو للحياة التي هي أقوم، وهذا يشمل كلَّ الجوانب: الإيمان والعبادة والأخلاق والمعاملة والسياسة والحكم. . . إلخ.

وكذلك في آيات (التكوير) بعد أن ينفي تبارك وتعالى تهمة كون القرآن من تلقينات الشيطان، ثم التأكيد على أنه تذكير للعالمين، يقول سبحانه وتعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾ أي: من شاء منكم أن يكون مستقيماً عدلاً لا عوج فيه، ولا انحراف في كل النواحي، فعليه بهذا القرآن، ومعلوم أن الإستقامة الخُلُقية من أهم الجوانب أهمية، بل الإستقامة الخلقية، دليلٌ ومؤشِّرٌ على آستقامة الجوانب الأخرى!

خامساً: وأما ارتباط الخُلُق الحَسَن، باتباع الرسول والإقتداء به صلوات الله وسلامه عليه، فكارتباطِ الظل بالشيء، وكارتباط الضوء

بالشمس، وكارتباط الماء بالعين، وذلك لأن الله جعل رسولَه النبِيّ الأميّ ـ وكذلك كلَّ رسله وأنبيائِه الآخرين ـ عليه وعليهم الصلاة والسلام، مجسِّداً للخلُقُ الحَسَن في أعلا مستواه، بل مُجَسِّمة الأخلاق الحميدة والفضائل الرفيعة كلها، ويكفي دليلاً على هذا قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم].

وكيف لا يكون رسول الله ﷺ بهذه المثابة، وهو الذي أنزل الله تعالى كتابه المبارك سورة سورة، بل آية آية على قلبه العظيم، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الشعراء]، ثم تشبّع بحقائقه وطبعت عليه خلائقه وطبائعه وسجاياه، كما قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في جواب من سألها عن خلق النبي ﷺ: **«أَوَلاَ تقرأ القرآن؟ قَالَ: بَلَى، قَالَت: كَانَ خلق نَبِيّ الله القرآن»** رَوَاهُ مُسْلِمٌ برقم: (١٨٤٥).

ورسول الله ﷺ هو ينبوع الفضائل كلها، وهو معيار وميزان الخلق الحسن، في أعلى مستواه الذي يمكن للبشر أن يصلوه، وهل يحتاج خلق رسول الله ﷺ بعد شهادة الله الحكيم له، بأنه (عظيم) إلى إثبات واستدلال!!

سادساً: وأما ارتباط الخلق الحسن، بتزكية النفس، فكارتباط ظاهرٍ بباطنٍ، وَأَثَر بمؤثرٍ، وَزرْع بَذْرٍ، وذلك لأن النفس إذا تزكّت برسوخ التقوى فيها، تَصير للأخلاق العالَية والخصال السامية، كالينبُوع للماء، أو كالشجرة للثمر، أو كالبحر للدّرر.

نعم إن التقوى الذي أودعه الله تعالى مع الفجور، كبذرة، في نفس كل إنسان، إنما يترسخ في النفس، ويخرج من حالة الوجود بالقوة إلى حالة الوجود بالفعل، نتيجة اجتهاد الإنسان في تزكية نفسه، والذي عبَّر عنه سبحانه وتعالى بالإهتداء في هذه الآية، وجعل التقوى ثمرةً لَهُ، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمد]، ثم ان التقوى يعصم الإنسان من الإنجرار وراء الأهواء والشهوات، ويُلْزِم صاحبه بالشريعة، وما

تأمر به من أخلاق عالية وفضائل رفيعة، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾ [الفتح]، نعم التقوى يجعل الإنسان مُتَّزِناً رشيداً عكس الفجور، الذي يحمل صاحبه على ركوب مَتْنِ الهَوى، والحَمِيَّة الجاهلية، والغَضَب بالباطل، والسَّفَهِ.

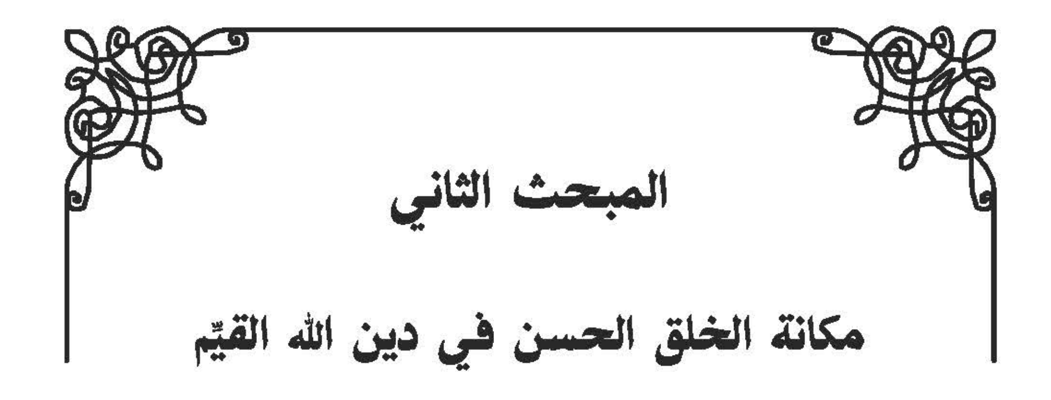
إذن:

كلّما كان الإنسان أكثر تمكّناً في التقوى، بسبب التزكية الحاصلة له، باتِّباع الشرع والإِهتداء بهدى الله تعالى، كلّما كان أكثر أهلية للتحَلّي بالفضائل الخلقية، والتخَلّي عن رذائلها.

وإذْ وضّحنا مفهوم حُسْنِ الخُلُق والتعامل على أساسه مع الناس، وكيفية ارتباط الخُلُق الحَسَن بكلٍّ من: الإيمان والعبادة والتقوى، والإِستمساك بكتاب الله، والإِقتداء برسول الله ﷺ، وزكاء النفس، فلننتقل إلى المبحث الثاني من هذا الفصل:

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑





المبحث الثاني

مكانة الخلق الحسن في دين الله القيِّم

هناك أدلة كثيرة في كتاب الله، على أهمية حُسْنِ الخلُق ومكانته الرفيعة في دين الله القيم، ولكن نكتفي منها بهذه الأدلَّة الأربعة الآتية:

أولاً: مدح الله تبارك وتعالى ملائكته عموماً وجبريل خصوصاً، بالفضائل والخصال الحميدة التي حباهم الله تعالى بها:

وبما أن الملائكة هم أشرف المخلوقات عموماً، وأطوعهم لله تبارك وتعالى وأقربهم إليه، بل كثيراً ما يعرِّفهم الله تعالى بـ﴿ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾، **كما قال تعالى:** ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾﴾ [فصلت]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾ [الأعراف].

إذاً: فالسجايا الكريمة والفضائل المختارة في الملائكة، ثم تعريف الله ايّاهم بها، دليل على ما للفضائل والأخلاق الحسنة، من مكانةٍ عظيمة.

وهذه بعض الآيات التي مدح الله تعالى فيها، ملائكته عامة، وروح القدس خاصة، بخصالهم الكريمة:

١) ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [عبس].

٢) ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الانفطار].

٣) ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾ [التكوير].

ثانيا: وكذلك نوّه سبحانه وتعالى بالأخلاق الفاضلة والسجايا الكريمة، التي تحلَّت بها رُسُله وأنبياؤه عليهم الصلاة والسلام عموماً، وسيدهم وأفضلهم خاتم الأنبياء خصوصاً:

وهذه آياتٌ فيها إشاراتٌ الى بعض تلك الخصال الحميدة، على سبيل المثال، لعدد من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام:

١) ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾ [الشعراء].

٢) ﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأعراف].

٣) ﴿قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾ [هود].

٤) ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النمل].

٥) ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ... وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ﴾ [هود].

٦) ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ۝٧٥﴾ [هود].

٧) ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝٥٤﴾ [مريم].

٨) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٢١ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٢٢﴾ [يوسف].

٩) ﴿۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ۝١٧ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٨﴾ [الدخان].

١٠) ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ۝١٢ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ۝١٣ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ۝١٤﴾ [مريم].

١١) ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ۝٣٠ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۝٣١ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ۝٣٢﴾ [مريم].

هذا بالنسبة للأنبياء المذكورين في هذه الآيات عموماً عليهم الصلاة والسلام، والشيم الرفيعة التي وصفهم الله بها، ومجموعها خمس عشرة خصلة:

١ ـ الأمانة.

٢ ـ النصح.

٣ ـ مأمول الخير.

٤ ـ التطهر والعِفّة.

٥ ـ موافقة القول للفعل.

٦ ـ الإصلاح.

٧ ـ الحِلْم.

٨ ـ الشفقة (لأن أوّاه هو الشفوق)[1].

٩ ـ صدق الوعد.

١٠ ـ الإحسان.

١١ ـ البعد عن السوء والفحشاء.

١٢ ـ الكرم.

١٣ ـ الحنان.

١٤ ـ البرّ بالوالدين أو الوالدة.

١٥ ـ عدم التجبّر.

وأما بالنسبة للرسول النبي الأمي صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله، فنمثل بهذه الآيات، التي تشير إلى باقة من ورود سجاياه العطرة وشيمه الرفيعة:

١ ـ ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ١ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ٤﴾ [القلم].

٢ ـ ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ ١٥٩﴾ [آل عمران].

٣ ـ ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨﴾ [التوبة].

٤ ـ ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء].

٥ ـ ﴿وَمِنۡهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٞۚ قُلۡ أُذُنُ خَيۡرٖ لَّكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡۚ ٦١﴾ [التوبة].

ومجموع الخصال الرفيعة التي وصف الله بها نبيه الخاتم، وعرّفه بها في هذه الآيات المُمَثِّلةِ بها، هي ثلاث عشرة:

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن، ص١٠١.

١ - **الخلق العظيم.**

٢ - **اللين.**

٣ - **البعد عن فظاظة القول.**

٤ - **والبعد عن غلظة القلب.**

٥ - **العفو.**

٦ - **المشاورة.**

٧ - **الإِغتمام بسبب تضرّر المسلمين.**

٨ - **الحرص على منافع ومصالح المسلمين.**

٩ - **الرأفة بهم.**

١٠ - **الرحمة بهم.**

١١ - **الترحّم على العالمين جميعاً.**

١٢ - **سعة الصدر والإستماع لكل شخص.**

١٣ - **التغافل بغض الأحيان عن السوء والأَخطاء...**

ومن الواضح أن قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم]، له مفهوم واسع وشامل يشمل كل الخصال الحميدة، والسجايا والشيم الرفيعة بحذافيرها، وفي أعلى مستواها، والملاحظ أن الله تعالى وصف نبيه الكريم ﷺ بالخلق العظيم، في معرض الردّ على اتهام المشركين له بالجنون، وهذا يدل أوضح الدلالة على أن الله تعالى يستدلّ بالخلق العظيم الذي اتصف به رسوله، على أنه صادق في نبوّته، وأنه بعيد عمّا يرميه به أعداؤه الحاقدون، وكفى بالخلق الحسن شرفاً ومنزلةً، أن يكون برهاناً على صدق خاتم الأنبياء ﷺ!

وحكمة اعتبار الله تعالى حُسْنَ خُلُقِ رسول الله ﷺ، برهاناً على نبوّته، من بين كلِّ مزاياه الرفيعة الأخرى، كالعلم والعقل والفصاحة، هي: أن تلك المزايا الأخرى، قد يملكها غير الصادق أيضاً، ولكن الخلق العظيم

الذي تحلى به رسول الله ﷺ خاصة، لا يمكن أن يتحلّى به إلا من هو متّصل بالله تعالى عن طريق الوحي، وكذلك حسن الخلق عامة، لا يمكن أن يتحلّى به إلا الصادقون السائرون على طريق رسول الله ﷺ، نعم يستطيع الكاذب والمخادع أن ينتحل بعض الأخلاق والشيم ظاهرياً ولأيام وفترة محدودة، ولكن في المدى البعيد، سينكشف عواره، إذِ التكلّف الذي هو خلاف الطبع، عُمُره قصيرٌ، وقديماً قيل: إنَّ حبل الكذب قصير.

ولهذا وصف سبحانه وتعالى المنافقين بجمال المظهر وحلو المنطق، مع أنهم هم شر خلق الله إذ قال: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ [المنافقون]، إذن: حُسْنُ الخلق، غير التظاهر بالأَدَبِ والخُلُقِ، وغير التكلّف وتحميل النفس خلاف ما استقر فيها من طبائع فاسدة وأخلاق سيئة، إذ لا تنبت ولا تترسخ جذور حسن الخلق والفضائل، إلا في أرض النفس الطيّبة المتقية الزكية.

ثالثاً: وكذلك مدح سبحانه وتعالى أصحاب رسول الله ﷺ ورضوان الله عليهم، من بين ما مدحهم به، بل وفي مقدِّمته، بالأخلاق الحسنة والشيم الرفيعة:

١) فقال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۖ ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح].

٢) ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحشر].

٣) ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ۗ ﴿٢٧٣﴾﴾ [البقرة].

رابعاً: وكذلك عرَّف الله تعالى خاصة عباده الذين نسبهم إلى نفسه ووصفهم بالتقوى، أولَ ما عرَّفهم، بسلوكهم الرفيع وخلقهم الحسن اللطيف:

كما قال:

١) ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ﴿٦٣﴾﴾ [الفرقان].

٢) ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران].

وبناءً على ما مرّ ذكره، أقول:

أن الخلق الحسن والأدب الرفيع، الذي أثنى الله العظيم، بسببه على الملائكة والأنبياء والصحابة وخاصّةِ عبادِهِ وأوليائه، وعرَّف بهم من خلاله، لخليق بأن يتبوّء مكانة رفيعة جداً في دين الله القيم، وهو كذلك كما وضّحناه، ولولا مخافة الإملال بالإطالة، لأطلقنا للقلم العنانَ في ميدان هذا الموضوع الفسيح، ولكن أختمه بباقة من أحاديث رسول الله ﷺ، إذ يقول:

١) «**إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ برقم: (٤٧٩٨) عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها وَصَحَّحَهُ الألباني.

٢) «**أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَاناً أَحْسَنُهُمْ خُلُقاً**»، رَوَاهُ التِّرمِذِيُّ برقم: (٢٧٨)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، وَقَال الشيخ الألباني: حَسَنٌ صَحِيحٌ.

٣) «**مَا مِنْ شَيْءٍ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ العبدِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ**» رَوَاهُ التِّرمِذِيُّ برقم: (٢٠٠٢)، عَنْ أَبِي الدرداءِ رضي الله عنه، وَقَال: حَسَنٌ صَحِيحٌ.

٤) «**إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ، وأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِساً يومَ القِيَامَةِ، أَحَاسِنَكُمْ**

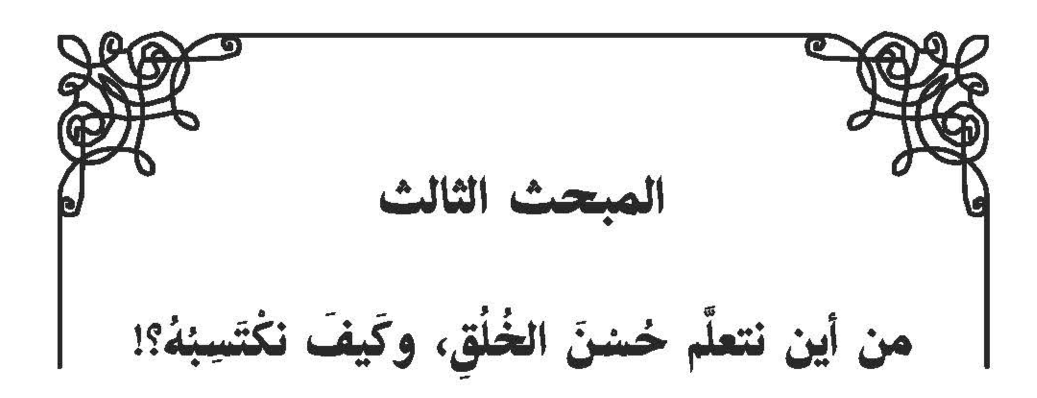
أَخْلَاقًا» رَوَاهُ التِّرمِذِيُّ برقم: (٢٠١٨)، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله رضي الله عنهما، وَقَالَ: حَسَنٌ، وَقَالَ الشيخ الألباني: صحيح.

٥) وقال رسول الله ﷺ لأحد الأَشراف (الأَشَج عَبْدِ الْقَيْس): **«إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا الله الْحِلْمُ وَالأَنَاةُ»** رَوَاهُ مُسْلِمٌ برقم: (١٢٦) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما.

وواضح أن الله ورسوله يحبّان كل خُلُق حسن، ولكن رسول الله ﷺ خصّ هذين بالذكر، لحكمة ومناسبةٍ، ذُكِرَتْ في كتب السنة.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑





المبحث الثالث

من أين نتعلَّم حُسنَ الخُلُقِ، وكَيفَ نكْتَسِبُهُ؟!

وجواباً على هذا السؤال نقول:

نتعلَّم الخلق الحسن من كتاب الله تعالى وسنة رسول الله ﷺ، أما كتاب الله، فلأنَّه بيان لكل شيء، وفيه تفصيل كل شيء، ويهدي للتي هي أقوم في كل نواحي الحياة، كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [النحل]، وقال: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف]، وقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، وسنسرد في المبحث الرابع، الأخلاقَ الحسنة والشِّيَمَ الرفيعة التي جاءت في كتاب الله، والتي لم يشذّ عنها خُلُقٌ سَنِيٌّ، لم يذكرها كتاب الله تعالى صراحة أو ضمناً أو إشارة.

وأما سنة رسول الله ﷺ، فلأنه ليست سنة رسول الله، إلا كتاب الله الحكيم مُطبَّقاً ومبيَّناً ومُفصَّلاً، وكان رسول الله ﷺ مُجسِّداً لكلام الله المبارك، إيماناً وعبادة وتقوىً وسلوكاً وخلقاً، وهو بشهادة الله العظيم ذو خلق عظيم، أي: إنَّ كلَّ السجايا الكريمة والشيم الرفيعة، قد اجتمعت فيه في أرفع مستواها.

هذا بالنسبة لمصدر الخلق الحسن والإطلاع عليه علمياً نظرياً، وأما

بالنسبة لكيفية اكتساب الخلق الحسن، وهذا هو بيت قصيد هذا المبحث الثالث، فنبينها تحت العنوان الآتي:

طريقة اكتساب الخلق الحسن وكيفيَّتُهُ:

ونوضح طريقة اكتساب الخلق الحسن، وكيفيّتها، في المطالب السبعة الآتية:

١ ـ التفاعل مع كتاب الله تلاوة وفهماً وتطبيقاً، والتشبّع بحقائقه والتنـ بأنواره.

٢ ـ الإقتداء برسول الله والتخلّق بخلقه العظيم ﷺ.

٣ ـ الإهتداء بهدي وُرّاثِهِ السائرين على سنته.

٤ ـ مصاحبة الأخيار.

٥ ـ الإتعاظ بالأخطاء (أي أخطاء النفس).

٦ ـ الإعتبار بأخطاء الآخرين.

٧ ـ مجاهدة النفس وأهوائِها وضبط الجوارح على مقتضى الشرع.

المطلب الأول:
التفاعل مع كتاب الله، تلاوة وفهماً وتطبيقاً، والتشبّع بحقائقه والتنوّر بأنواره

إن كتاب الله الكريم هو ينبوع المعرفة الصحيحة بالخالق والخلق، وأساس الإيمان، ومنهاج العبادة، ومصدر التقوى، وسبب التزكية، كما بيّناه سابقاً، وللأخلاق الحسنة والخصال الحميدة، ارتباط بكل من الإيمان والعبادة والتقوى والتزكية، كما وضحناهُ في المبحث الأول من هذا الفصل، إذاً: كلما ازداد الإنسان المسلمُ التفاعلَ مع كتاب الله تعالى، تلاوةً وفهماً واتباعاً وتطبيقاً، كما بيّنا سابقاً، كلّما اكتمل إيمانُه، وتعمّقت عبادَتُه وترسّخ تقواهُ، ونَمَتْ تزكيتُهُ، وبالتالي: حَسُنَتْ أخلاقُه، وجَمُلَتْ شمائلُهُ، وهذا هو سِرُّ خَلْطِ كتاب الله ذكر الخصال الحميدة والأخلاق الحسنة، بذكر الإيمان والعبادة والتقوى والطاعة في مواضع كثيرة من كتاب الله، بل نادراً ما يذكر الله تعالى الأخلاق والشمائل الرفيعة وينوّه بها، إلا في سياق يرد فيه ذكر الإيمان والعبادة والتقوى والتزكية، وهذه أمثلة من الآيات المباركات التي قَرَنَتْ بين ذكر الأخلاق والشيم الرفيعة من جانب، والإيمان والعبادة والطاعة والتقوى والتزكية، من جانب آخر:

١) ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَـٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ﴿٥﴾ . . . وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾﴾ [المؤمنون].

٢) ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟

سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾﴾ [الفرقان].

٣) ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴿١﴾﴾ [الأنفال].

٤) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل].

٥) ﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾﴾ [الرعد].

نعم، إنّ التفاعل مع كتاب الله، هو العامل الأول والأساسُ في اكتساب الإنسانِ حُسْنَ الخلق، لأن التفاعل مع كتاب الله، يُثْمِرُ في الإنسان المعرفة الصحيحة، والإيمان الحق، والعبادة والتقوى والتزكية، ولكل هذه الأشياء ارتباطٌ بحسن الخلق، وتأثيرٌ في ايجاده، وفي نموّه وازدياده.

وهذا كله من جانب، ومن جانب آخر، فإنّه ما من خُلُقٍ حَسَنٍ تحتاجه حياة مستقيمة رشيدة، إلّا وذكره كتابُ الله وأمر به، وحَضَّ عليه بأبلغ وجه، كما أنه ما من خُلُقٍ سَيِّءٍ، إلّا ونهى عنه وندَّد به وأوْعَدَ عليه، خصوصاً في ثنايا قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع أقوامهم، لذا يترسخ في ذهن التالي المتفاعل مع كتاب الله، ذِكْرُ محاسن الأخلاق ومساوئها، ويثبت في قلبه يوماً فيوماً، حبُّ الأولى والرَّغبة في التحلِّي بها، وبغض الثانية والرغبة في التخلّص منها، أو الإبتعاد عنها.



المطلب الثاني:
الإِقتداء برسول الله ﷺ والتخلُّق بخلقه العظيم

إن الإِهتداء بهدي النبي الخاتم والرسول الأعظم (محمد) ﷺ، والسعي للتخلُّق بخلقه العظيم، والتأدّب بأدبه الرفيع، هو العامل الثاني والأهم في مجال اكتساب الخلق الحسن.

وذلك لأن رسول الله ﷺ الذي وصفه الله تعالى بأنه على خلق عظيم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم]، هو مجسَّمة الشمائل الرفيعة، والأخلاق السنية، والخصال الحميدة، ومجمعها ومنبعها، لِذا فمن اقتدى به وجعله مثاله الأعلى في الخلق، نال من الخلق الحسن وحَظِيَ بالشيم السنيَّة، بقدر اقتدائه به، وتخلّقه بخلقه، وتأدّبه بأدبه، ولهذا أمر الله تعالى أهل الإيمان أن يقتدوا ويتأسوا به، فقال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب]، وهذه الآية الكريمة وان نزلت في سِياق آيات تتحدّث كلها عن القتال في سبيل الله ولكن مفهومها عام، فرسول الله هو أسوة المسلمين المطلقة، في كل جوانب حياتهم: جهاداً، وسياسة، وعبادة، وتقوى، وخلقاً، وتعاملاً... الخ.

بل وجَعَلَ الله تبارك وتعالى اتِّباع الرسول ـ والإِتباع هو الإِقتداء وزيادة ـ دليلاً على الإيمان بالله ومحبّته في قلب الإنسان، وسبباً لحب الله له ومغفرته له، كما قال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ

لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [آل عمران].

وإنما قلنا ان اتِّباع الرسول ﷺ والإقتداء به دليل على الإيمان بالله، لأن حبَّ الله تبارك وتعالى في قلب العبد، هو المكوِّن الأساسي للإيمان، فمن آمن بالله، فهو له محبٌّ محبة لا تدانيها محبة أخرى، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ ﴿١٦٥﴾﴾ [البقرة].

نعم إنَّ العبد لا يتبّعُ الرسول ﷺ، ولا يحبُّه حق الإتِّباع وحق المحبَّة، إلا إذا كان محبّاً لله، ومؤمناً به، وعابداً له، ثم ان حبّه لله تعالى وإيمانه به وعبادته له، هو الذي يدفعه إلى محبَّة عبده ورسوله وحبيبه المصطفى، واتِّباعه والإقتداء به، وهذا هو الحبُّ الحقيقيُّ الشرعيُّ لرسول الله ﷺ، وأما الذين يدَّعون محبّة نبي الله، وهم متلبِّسون بالشرك بالله، سواء برفع رسول الله ﷺ فوق مستوى البشرية، ونسبة شيء من الربوبية والألوهية إليه، أو غير ذلك، فتلك المحبَّة - إنْ وجِدَتْ - تعتبر محبة عاطفية وغير شرعية، ويتبرّأ رسولُ الله ﷺ من كلِّ مَنْ يُشْرِكُهُ بالله تبارك وتعالى، بذريعة محبته وإجْلاله، إذ يجب أن تكون محبة الرسول وإجلاله وإكرامه، وفق شرعه الذي جاءنا به من الله تعالى، وفي الحدود التي رسمها فقط.

المطلب الثالث:
الإِهتداء بهدي وِرّاثه السائرين على سنته

نعم إن الإِهتداء بهدي الذين يُعْتَبرون بحق من نوّاب رسول الله ﷺ، ووِرّاثه السائرين على صراطه المستقيم، عامل مهم آخر في مجال اكتساب الخلُق الحَسَن، وإذا أردنا تحديد وتشخيص مفهوم (نوّاب رسول الله ووِرّاثه) على أساس كتاب الله فلنقرأ هذه الآية المباركة: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة].

وذلك لأنَّ هذه الآية نزلت من ضمن سائر آيات سورة التوبة، في أعقاب غزوة (تبوك) التي تخلّف عنها المنافقون وضعاف الإيمان الذين كانوا يتذرّعون في تخلّفهم بِأعذارٍ واهية، ولكن أهل الإيمان الحقيقيين المتمثلين بالسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ومن تبعهم بإحسان، اتبعوا الرسول ﷺ وتابعوه في غزوته تلك التي سمّاها الله تعالى: ﴿...سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ ﴿١١٧﴾﴾ [التوبة]، فأنزل الله تعالى هذه الآية، مشيداً بموقف أهل الإيمان المُتّبِعين للرسول ﷺ، والمقتدين به والمقتفين لأثره، وإنما قلنا: بأنَّ هذه الآية أحسن تعريف، بنوّاب رسول الله ووِرّاثه، لأن وِرّاث الرسول ﷺ، ونوّابه ليسوا سوى متّبعيه الصادقين والمقتدين به، وهؤلاء اتبعوا الرسول واقتدوا به في أصعب الظروف، ومن قام بالأصعب والأشق، وعَمِلَهُ، فهو لغيره أَعْمَلُ، ثم ان الله تعالى أخبر أنه قد رضي عن هؤلاء وأنه يُرْضِيهم، ومعلوم أن الله تعالى لا يرضى إلّا عن مَنْ أحبّه، ولا يحبّ ـ كما تدل عليه

الآية (٣١) من (آل عمران) ـ إلا من اتَّبع رسوله، إذاً: فهؤلاء مُتَّبعون للرسول ﷺ حق الإِتِّباع، ولهذا أحبَّهم الله ورضي عنهم وأرضاهم.

وجديرٌ بالذكر أنَّ مفهوم قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ ليس منحصراً في الصحابة الكرام، الذين اتَّبعوا السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، وان كانوا أول الداخلين فيه، بل يشمل كل من يتبع أولئك الأفاضل ويقتفي آثارهم، وذلك بالإِقتداء برسول الله ﷺ ولزوم سنته وطريقته، ولو في أصعب الظروف، وبناءً عليه فبشارته تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة]، أيضاً ليست منحصرة في أولئك الأكارم ﷺ وأرضاهم، بل تَشْمُل كلَّ من اتبعهم وسار بسيرتهم بإحسان، على مرِّ الدهور وكرِّ العصور.

ثم مما لا شك فيه أنَّ الخلفاء الراشدين الأربعة الذين ارتضاهم أصحابُ رسولِ الله المرضيُّ عنهم، لإمامَتهم ورياستهم وقدّموهم على غيرهم، وهم (أبو بكر وعمر وعثمان وعلي) ﷺ، يعتبرون في مقدمة أولئك الأكارم الذين ﷺ وأرضاهم.

ولكن وكما ذكرنا سابقاً: كل هذا لا يعني أنَّ الصَّحابة ﷺ كانوا معصومين عن الأخطاء، كلاّ، ولكن هم خير من تمثَّل الإسلام، وأفضل من اتبَّع الرسول، وهم أحسن المقتدين برسول الله ﷺ، في كافة نواحي التديّن: الإيمان، العبادة، التقوى، السلوك، التزكية، الأخلاق، المعاملات، الحكم والسياسة، الجهاد والقتال، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر... إلخ.

هذا ومن يتأمل سيرة الصحابة عموماً، وخصوصاً السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار منهم، ويَتَفحَّصُ أخلاقهم وسجاياهم، يجدهم بحق في قِمَّةِ السموّ الخلقي ـ بعد الرُسُلِ والأنبياء ـ ويجد عندهم من الفضائل والشمائل الطيِّبة التي نادراً مّا يجدها عند غيرهم، ولا شك أن القِمَمَ الإيمانية، تُثْمِرُ القِمَمَ الأخلاقية أيضاً، لأنه كما قيل: (وكل إناءٍ بالذي فيه ينضحُ) وأولئك الأفاضل كانوا ـ ببركة تفاعلهم المثالي مع كتاب الله وببركة

صحبتهم لرسول الله ﷺ - في القمة إيماناً وعبادة وتقىً وتزكية.

هذا إذا ما نُظِرَ إلى الصحابة - وخصوصاً السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار منهم - من مِنْظار كتاب الله وفي ضوء واقعهم الذي عاشوه، وأما الذين يدفعهم الجهل والتقليد والحقد التأريخيُّ المُتَوارَث، أن ينظروا إليهم من وراء ستار أسود قاتم، وعلى أساس روايات ملفقه ومكذوبة، أو حوادث محرَّفة ومُبالَغ فيها، ومن يغضّون الطّرْف عن الفضائل الكثيرة، ويتتبّعون السقطات والعثرات والهفوات التي لا يخلو منها بشر، إلا المعصومون بالوحي، وذلك كديدن الذباب الذي لا يَقَعُ إلّا على البقع السوداء، وما هو خبيثٌ مُستقذر! نعم هؤلاء يظلون حبيس ظنونهم السيئة وأوهامهم، كدودة القزّ التي تنسج حول نفسها من ريقها ما تَنْحَبِسُ به داخله، ثم لا يَخرج منه الا ميتاً، ومن هذا شأنه يستحق الدعاء والشفقة، إذ هو منهمك بما يضرّه هو، قبل غيره، وأرى أنه ينطبق على هؤلاء قول الشاعر:

لله دَرُّ الحسدِ ما أعدله بدأ بصاحبه فأكله

وفي ختام هذا المطلب أقول:

إذا كان الصحابة عموماً، وخصوصاً السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار منهم، هم أفضل مصداق لـ(نوّاب الرسول ﷺ وورّاثه) فالمُتّبِعون لهم بإحسان من العلماء والأئمة والصالحين، امتداد لهم على طول التاريخ، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ولا تخلو أمة (محمد) ﷺ أبداً كما لم تَخْلُ قَطُّ، من أناس يعتبرون بحق ورّاث رسول الله ﷺ ونوّابه في أمته، وذلك باتّباعهم لرسول الله ﷺ واقتدائِهم به، علماً وعملاً ومقالاً وحالاً، وسيرهم بسيرة من سبقهم من خيار الأمة وصالحيها وفي مقدمتهم: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ رضي الله عنهم وأرضاهم.



المطلب الرابع:
مصاحبة الأخيار

انَّ مصاحبة الأخيار والصلحاء ومصادقتهم، هو العامل الرابع في مجال اكتساب الأدب والخلق الحسن، كما أن خلافها وهي مصاحبة الأشرار ورفقاء السوء، سبب مهم جداً في انزِلاقِ الإنسان نحو هاوية سوء الخلق.

ولهذا يندم أشدّ النَدَم يوم القيامة، من يتخذ الرفيق السوء خليلا وصاحباً، ويتأسّف عاضّاً يديه على أن لم يتبع الرسول ﷺ، ولم يسلكْ مسلكه وطريقه، كما يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَـٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِلْإِنسَـٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفرقان].

وقد مثَّل رسول الله الحكيم ﷺ، الصَّديقَ الحَسَن والرفيق السَّيء، بحامِلِ المِسْك ونافخ الكير، فقال: «**إنَّما مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ وَجَلِيسِ السُّوءِ، كَحَامِلِ المِسْكِ، وَنَافِخِ الْكِيرِ، فَحَامِلُ الْمِسْكِ: إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ**[1]، **وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحاً طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الكِيرِ: إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحاً مُنْتِنَةً**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ: البُخَارِيُّ برقم: (٥٥٣٤)، وَمُسْلِمٌ برقم: (٢٦٢٨).

وقال الشاعر في تأثير المصاحبة سلباً أو إيجاباً:

لا تَسَلْ عن المرءِ وسَلْ عن قرينه   فكل قرينٍ بالمُقارن يقتدي

---

(١) يُحذيك: يُعطيك، أحذاه يُحذيه إحذاء. المنجد، ص١٢٤ ط٢١.

وتأثير الخلّة والصداقة سلباً أو إيجاباً، يستمر إلى يوم القيامة وهناك أيضاً، كما يبيّنه قول الله تبارك وتعالى: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف].

فالرِّفقة السُّوء، يتبرَّأُ بعضهم من بعض يوم القيامة، لما نال بعضهم بسبب بعض، من الشقاء وسوء الحال، ولكن المتقين الذين اتخذ بعضهم بعضاً خليلاً في سبيل الله وعلى أساس دينه، فهناك أيضاً تستمر المودَّة والخلَّة بينهم، ويشكر بعضهم بعضاً ويرضى بعضهم عن صنيع بعض.

وقال رسول الله ﷺ، في الصّدد نفسه: «**الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ برقم: (٤٨٣٣)، وَالتِّرْمِذِيُّ برقم: (٢٣٧٨)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قال الشيخ الألباني: حسن، وحديث الرسول ﷺ هذا توضيح لمفهوم الآية المتقدمة.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑



المطلب الخامس:
الإتعاظ بالأخطاء:

إنَّ الإنسان لا يخلو من أخطاء وهفوات وزلات، كما قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ بَنِي آ َ خَطَّاءٌ، وَخَيرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ» أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ برقم: (٢٧٣٦)، وَابْنُ مَاجَة برقم: (٤٢٣٣) عَنْ أَنَسٍ ﷺ، قال الشيخ الألباني: حسن.

ومن يتأمل قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس]، وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾﴾ [الأعلى]، يدرك بوضوح، أن الإنسان لا يخلو من الأخطاء والعثرات، وخصوصاً في المراحل الأولى من العمر، لذا فالعاقل الذي يوفقه الله تعالى لتحسين خُلُقه، هو الذي يتعظ بأخطائه، ويحاول ألّا يكرّرها وألّا يستمرَّ عليها، وما لم يفكّر الإنسان في أخطائه، وما جرَّت عليه من عواقب وخيمة، ودفع به من ضرائب جسيمة، لا يمكنه الإتعاظ بها، وبالتالي عدم تكرارها والإستمرار عليها، كي يدخل في دائرة عباد الله المتقين، الذين وصفهم بقوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [آل عمران].



المطلب السادس:
الإِعتبار بأخطاء الآخرين

وعامل آخر من عوامل اكتساب الخُلُق الحَسَن، هو الإِعتبار والإِتعاظ بأخطاء الآخرين، والتأمل في عواقبهم ومصائرهم السيئة، وقد أشار سبحانه وتعالى إلى أن المعتبرين بأخطاء الآخرين، هم (أولو الأبصار) فحسب، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿٢﴾﴾ [الحشر]، فهنا يأمر الله تعالى أصحاب العقول، أن يَتَّعظوا ويعتبروا بحال قبيلة (بني النضير) اليهودية التي نقضت العهد مع رسول الله ﷺ، وكادوا المكائد ضد الإسلام والمسلمين، فكانت عاقبة فعلتهم تلك، أن اضطرّوا إلى إخلاء ديارهم وترك بساتينهم وزورعهم!

وكما يقول العلماء: إنَّ خصوص السبب لا يمنع شمول المعنى، فالمفروض أن يَتَّعِظَ الإنسانُ بكل أنواع أخطاء الآخرين، سواء كانت فكرية أو سياسية أو اجتماعية أو أسرية أو شخصية، ولنضرب لذلك مثلاً:

فالشخص الكاذب، نراه يفتضح مرّات وكرّات بسبب أكاذيبه، ويصبح ممقوتاً لدى الناس وغير موثوق به، ونرى ذا الوجهين، مهيناً فاقد الإِعتبار عند الجميع، والشخص البذيء، محتقراً متروكاً و...و... إلخ، فلا نرى ذا رذيلة أخلاقية، إلّا وهو محطوط من كرامته وشخصيَّتِهِ، بمقدار ما فيه من رذائل وبحسب نوعيتها، وقد قيل: (السَّعيد من اتعظ بغيره) وذلك كي لا

يدفع هو أيضاً، الضريبة التي يجب أن يدفعها كل صاحب رذيلة في الدنيا قبل الآخرة ـ إِن لم يتطهرْ منها قبل الموت ـ.

ويقال بأن (لقمان الحكيم) سئل عن سبب نيله الحكمة ـ والحكمة لها تعاريف كثيرة ولعل أحسنها هو: (الإصابة في القول والعمل) ـ فقال: بسبب الأشرار والجهّال! ولما سئل عن تعليل ذلك، قال: كنت أرى الأشرار والجهّال، يرتكبون أخطاءً وحماقات، تُشينهم وتَعيبهُمْ، فهذا دفعني أن أتجنَّب ما يُشِينُني ويَعِيبُني، فَصِرْتُ إلى ما صِرْتَ إليه.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑



المطلب السابع:
مجاهدة النفس وأهوائها،
وضبط الجوارح، على مقتضى الشرع

نعم إنَّ مجاهدة النفس وكبح جماح أهوائها، وضبط جوارح البدن وحركاتها، على مقتضى أحكام الشرع وتوجيهاته، أيضاً عامل مهم في مجال التخلّق بالخُلُق الحَسَن، بل انَّ هذا العامل الأخير، هو الآلية التي تجعل العوامل الستة السابقة، تُؤْتي ثمارَها، وهذه بعض الآيات المباركة التي توضِّح مفهوم هذا العامل الأخير، وتلقي الضوء على جوانبها المختلفة:

أ) ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات].

ب) ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [العنكبوت].

ج) ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [النجم].

د) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾﴾ [الانشقاق].

هـ) ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت].

ونفهم من هذه الآيات الحقائق الخمس الآتية، فيما يتعلق بموضوع بحثنا:

الأولى: ان في النفس أهواءً (أي لها مطاليب ومشتهيات ورغبات غير شرعية)، لذا لا بدّ من ضبطها وكبح جماحها، وعدم السماح لها بالخروج من دائرة الشرع، وهذا لا يتسنّى الا لمن يخاف الله تبارك وتعالى ويستحي منه، وهذا ما تدل عليه الآيتان (٤٠، ٤١) من (النازعات).

الثانية: والنفس لا تستسلم لمقتضى الشرع بسهولة، بل لا بدَّ من تَحمُّل

المشاق والمكابدة لإخضاعها، وهذا ما تعبِّر عنه الآية (٦) من (العنكبوت) بالمجاهدة في قوله تعالى: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓ﴾ [العنكبوت].

الثالثة: ومسألة أن الإنسان لا ينال مقصوداً إلا بالسَّعي وبذل الجهد، سُنَّةٌ ربّانية شاملة لكل البشر مؤمنهم وكافرهم، كما تدل عليه الآية (٣٩) من (النجم)، وكلما كانت الغاية أبعد والمرتقى أصعب، فالجهد المبذول له ينبغي أن يكون أكثر، كما قال الشاعر:

إذا كانت الآمال كباراً تعبت في مرادها الأجسام

الرابعة: وكل إنسانٍ أياً كان مَذهبه ومسلكه، لا بدّ له من أن يُتْعِبَ نفسه، بحق أو باطل، ولغاية رفيعة أو وضيعة، مَنِيفة أو سَخيفة، وعليه: فتَحصيل الخُلُق الحَسَن، من غير ما تعب وكدح، طمع في غير مطمع، وهذا ما تدل عليه الآية (٦) من (الإنشقاق).

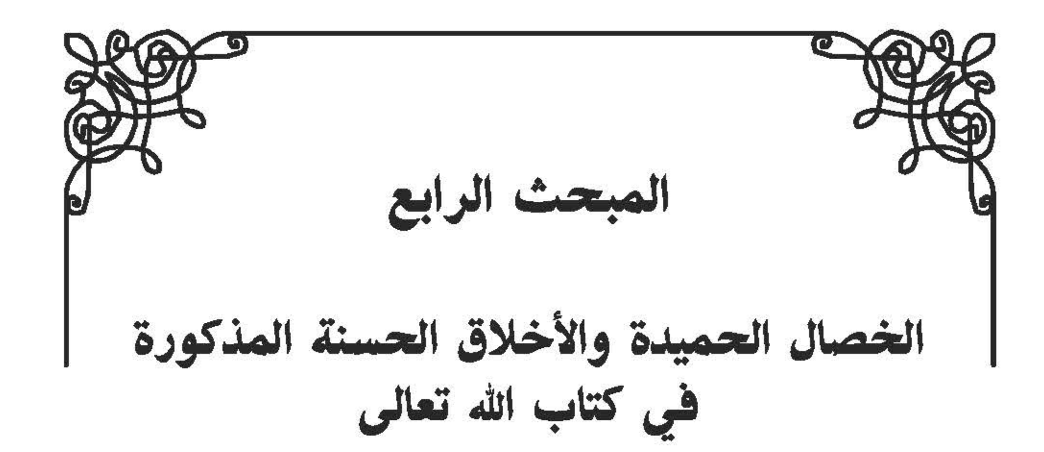
الخامسة: ولكن الله الكريم سبحانه وتعالى قطع على نفسه وعداً، - وهو الوهاب الرزاق الذي يعطي العطايا الجزيلة من غير ما وَعْدٍ، بل مِن غير سؤال! فكيف إذا وعد!! - أنَّ مَن جاهد فيه وأتعب نفسه لنيل مرضاته، فسيهديه قطعاً بمقدار إخلاصِه وتعبه، إلى كل الطرق المؤدية لمرضاته، كما قال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۞﴾ [العنكبوت]، وأرى أن الحكمة في جعل (السُّبل) جمعاً بدل المفرد الـ(سبيل)، هي أن السائر إلى مرضاته والساعي في طاعته، يجب عليه أن يطيع الله تعالى في كل جوانب حياته، وأن يَتَّبعَ شريعته كاملة، وفي مجالاتها الفردية والجماعية: عقيدة، وعبادة، وتقوى، وتزكية، وخلقاً، وجهاداً، وحكماً، وسياسة... إلخ، ومعلوم أن تحقيق هذا المنال، يحتاج إلى هداية متعدّدة الجوانب، بقدر الجوانب والمناحي التي يسعى العبد ليحقق فيها عُبوديته لله، ويُطَبِّق فيها شريعته!

نعم إن التخلُّق بِحسن الخلق، لا بدّ له من بذل الجهد، ومجاهدة النفس وتدريبها على محاسن الأخلاق، وفضائل الأعمال وجميل الخصال، وعدم السماح بالإنحراف والإنجراف مع الشهوات، ومن هنا قال رسول الله ﷺ موضحاً مفهوم (المجاهدة):

«إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّم، وَإِنَّمَا الحِلْمُ بِالتَّحَلُّم، وَمَن يَتَحَرَّ الخَيرَ يُعْطَه، ومَنْ يَتَّقِ الشَّرَّ يُوقَهُ» صحيح الجامع الصَّغير للشيخ الألباني: ٢٣٢٨، وَقال النَّبيّ ﷺ **«وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفُّهُ الله، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ الله، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ الله»** رَواهُ البُخَارِيُّ برقم: (١٣٧٥).

فيبيِّن لنا رسول الله الحكيم ﷺ، أنه كما أن العلم لا بد له ـ من أراد تحصيله ـ من التعلّم له، كذلك (الحِلْم) يحصل بالتحلُّم، أي تدريب النفس ومرانِها على الحلم وسعة الـ ـدر والسماحة، ثم يبيِّن لنا نبي الله الكريم، أن الذي يحاول تصبير نفسه، ويسعى لنيل صفة الصَّبْر، فسيعينه الله تعالى عليه، وكذلك من سعى لنيل العِفَّة والنزاهة وبذل الجهد، فَسَيُعِينُهُ الله تعالى على إعفاف نفسه، وعلى التحلّي بالعِفة! وهذا الحديث المبارك، توضيح للآية الكريمة: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾ [العنكبوت]، والمقصود بمعية الله في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ معية خاصة، ويراد بها توفيق الله وتسهيله، لما يريدُ العبد تحقيقهُ من محابّ الله ومراضيه.

وقد أكد سبحانه أبلغ التأكيد انه مع المحسنين، وكذلك في آخر سورة النحل قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨﴾، وقد بيّنا في السابق، مفهومَ التقوى، وأما الإحسان فالمقصود به (إحسان عبادة الله وطاعته) أي: أَن تحسِن عبوديتك وتُحْسِنَ طاعتك له، ولهذا فَسَّرَ رسولُ الله ﷺ في الحديث المشهور بحديث (جبريل) (الإحسان) بأهم جزء من معناه، وهو (عبادة الله عبادة شهودية): **«أَنْ تعبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»** رَوَاهُ مُسْلِمٌ برقم: (٨)، وإنما قلنا إن رسول الله فسّر الإحسان بأهم جزء من معناه، وليس بكل ما يحتوي عليه من معانٍ، لأن الله تعالى عرّف المحسنين في كتابه بصفات كثيرة، فمثلاً قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ١٥ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ ١٦ كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ١٧ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ١٨ وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ١٩﴾ [الذاريات]، إذن: فالإحسان هو أن تكون في عبادتك لله، وفي طاعتك له محسناً، أي: تُؤدي ما تقوم به على أحسن وجه وأفضله.



المبحث الرابع

الخصال الحميدة والأخلاق الحسنة المذكورة في كتاب الله تعالى

في مجال تعامل الإنسان ـ كفرد ـ مع غيره، ذكر كتاب الله الحكيم ثلاثة أشياء:

أولاً: خصالاً حميدة، يُحَقِّقُها في نفسه، في مجال التعامل مع ربِّه الكريم تبارك وتعالى.

ثانياً: أخلاقاً حسنة، يتَحَلَّى بها في مجال التعامل مع الناس بصفته الشخصية.

ثالثاً: آداباً اجتماعية، يراعيها في مجال التعامل الإِجتماعي، كعضو في المجتمع.

أما الآداب الإِجتماعية، فقد خصَّصنا لها الفصل الثالث من الكتاب العاشر من هذه الموسوعة، لذا نؤَجِّلُ الحديث عنها إلى هناك.

وأما الخصال الحميدة والأخلاق الحسنة، فسنتحدَّث عنهما في هذا المبحث، كل منهما في مطلب مستقل، ونبدأ بالخصال الحميدة التي يحققها العبد في نفسه، في تعامله مع الله تبارك وتعالى:



المطلب الأول:
الخصال الحميدة التي يحققها العبدُ في نفسه في تعامله مع ربِّه عزَّ وجل

وقد حاولت أن أحصي تلك الخصال الكريمة التي أثنى عليها كتاب الله وعلى أصحابها، في البنود السبعة والثلاثين الآتية، وأرجو أن أكون قد وفقت في مَسْعاي:

١) الإيمان:

الإيمان هو أساس كل الخصال الكريمة الأخرى، التي ينبغي للعبد أن يُحَقِّقها في نفسه في مجال تعامله مع ربِّه تبارك وتعالى، والمقصود بالإيمان بالله هو: الإيمان بخالقيته وربوبيته ومالكيته وأسمائه وصفاته وألوهيته وحاكميته وولايته، ثم توحيده في كل منها، لذا فلا قيمة ولا اعتبار للخصال الأخرى ـ بل لا وجود لها على الحقيقة ـ من دون الإيمان، وقد خصَّصْنا الباب الثاني كله (أي الكتب: الثاني إلى الثامن من هذه الموسوعة) لتوضيح مفهوم الإيمان، ونكتفي هنا للتدليل على أن الإيمان خصلة محبوبة لله تعالى في العبد، بقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾﴾ [الحديد].

٢) العبادة:

قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات]،

وواضح أن حصر الله تعالى حكمته في خلقه الجن والإنس في عبادتهم له، دليل على أن العبادة هي أحبُّ خصالهم إليه.

٣) إفراد الله بالعبادة (التوحيد):

بما أن الله تعالى واحد أحد، لا مِثل له، ولا نِدّ، ولا شبيه، ولا شريك، لا في خالقيته، ولا في ربوبيته، ولا في مالِكيته، ولا في أسمائه وصفاته، لِذا يجب أنْ يُعْبَد وَيُتَّخذ ربّاً وإلهاً وحاكماً ووليّاً من دون إشراك شيء ولا أحدٍ في عبادته، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ [الأنبياء]، ومعنى هذه الآية أن مَنْ لم يُفْرِدِ الله تعالى بالعبادة، بالمعنى الشامل لكلمة العبادة، فلا يعتبر مسلماً! وأي إسلام لمن لا يوحّد ربّه وإلهه الأحد؟!.

٤) الدعاء:

والدعاء وان كان جزءاً من العبادة، ولكن أفردناه لأهميته الكبرى في مجال الإِرتباط بين العبد وربّه تبارك وتعالى، كما أفرده سبحانه بالذكر في سورة الفاتحة، بعد ذكر العبادة الشاملة له: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة]، وهناك آيات كثيرة تدل على كون الدعاء من العبد خصلة محبوبة لله تعالى، نكتفي منها بقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ [الفرقان]، و(عبأ به يَعْبأُ) أي أعاره اهتمامه[1]، وأرى أن هذه الآية الكريمة هي أكثر الآيات إبرازاً لشأن الدعاء عند الله تعالى، من الآيات المرتبطة بالدعاء.

٥) اليقين:

واليقين مِنْ: (يَقَنَ الماءُ) إذا ثَبَتَ ورَكَدَ، هو العلم والإِعتقاد الجازم الذي لا يخالِطُه شك ولا ريب ولا تردّد[2]، ومن الآيات التي تدل على أن

(١) مختار الصّحاح، ص٣٦٠، لفظ: ع ب أ.

(٢) المصدر السابق، ص٦٣٧، لفظ: ي ق ن.

اليقين خصلة حميدة في العبد في تعامله مع ربّه الجليل، قوله تعالى: ﴿يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾ [الرعد]، واليقين مطلوب في الإيمان بالله تعالى، وفي جميع ما يجب الإيمان به.

٦) الإسلام:

ونقصد بالإسلام معناه العام الذي هو الخضوع والإستسلام والإنقياد التام لله تعالى، حتى لا يبقى فيه عرق ينبض، أو هاجسٌ يهجس، بخلاف ما أمر به الله سبحانه، قال سبحانه وتعالى: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾ [آل عمران]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً ﴿٢٠٨﴾﴾ [البقرة].

٧) التقوى:

وقد تحدّثنا عن التقوى بالتفصيل في الفصل الأول من هذا الكتاب، ونكتفي هنا من الآيات الكثيرة الدالة على أن التقوى من الخصال التي يحبها الله تعالى في العبد، بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾ [التوبة]، وبقوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النحل]، وهذه الآية دليل على أن التقوى مثل العبادة، مختص بالله تعالى، كيف وهو ثمرة العبادة ونتيجتها!

٨) الصِّدق:

والصِّدق مع الله تعالى أيضاً من الخصال التي يحبها الله الجليل في عبده، ومفهوم الصِّدق بخلاف ما يظنه كثير من الناس، ليس منحصراً في صدق القول، بل هو نوع منه، ولكن مفهوم الصدق شامل لباطن العبد وظاهره، ونياته، وأقواله، وأحواله، وأعماله، والدليل على أن الصدق محبوب للرب ومطلوب في العبد، هو قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ

ٱلصَّـٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾﴾ [المائدة]، وقوله تعالى: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ ﴿٢٤﴾﴾ [الأحزاب].

٩) الصَّبر:

وكذلك الصبر من الخصال الحميدة في العبد، فيما يتعلق بما بينه وبين الله تعالى، وتعريف الصبر هو: (حَبْس النفس على ما تكره)[1]، كما قال العلماء رحمهم الله، ولكن أرى أن تعريفه بـ(حَبْس النفس على ما أمر الشرع بِحَبْسها عليه) أشمل وأكمل.

ويكفي دليلاً على أن الصّبر خصلة محمودة ومطلوبة من العبد، قولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [آل عمران]، وقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [البقرة].

ولكن يجب التنبّه إلى حقيقة مهمة، وهي أن الصبر إنما يكون خصلة محبوبة ومرضية للرب سبحانه وتعالى، إذا ما قُصِدَ به ابتغاء رضوان الله وثوابه، وليس التجلّد، إظهاراً للشجاعة والبأس في نظر الناس، وهذا الحكم شامل لجميع الخصال الطيِّبة التي يتطرق إليها الرياء، كما قال تعالى بهذا الصدد: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ﴿٢٢﴾﴾ [الرعد].

وللصَّبر ابتغاء وجه الله تعالى ميادين كثيرة، ذكَرَها كتابُ الله الحكيم ي لا يُخْطيء الناسُ في فهم معنى الصبر وفي كيفيَّتِهِ، ومن المجالات التي ذكرها القرآن العظيم للصبر:

١ و٢ و٣ ـ عند الفقر، والمرض، وفي القتال، كما قال تعالى: ﴿وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة].

٤ ـ عند المصيبة والبلاء، في النفس والمال والأهل:

كما قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ

---

(١) مختار الصحاح، ص٣١٥، لفظ: ص ب ر.

وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ الصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة].

٥ ـ عند الأذى من قبل الناس، بسبب الدعوة أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

كما قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل].

وقال تعالى على لسان (لقمان) ﷺ: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ [لقمان].

١٠) الشكر:

وكذلك الشكر من الخصال المحمودة التي يتحلّى بها العبد، فيما بينه وبين الله تعالى، ومختصر تعريف الشكر، هو أن الشكر عبارة عن استعمال نِعَم الله تعالى في محابِّه ومراضيه، والفرق بينه وبين الحمد، هو أن الحمد ثناءَ على الله تعالى، لِما لَهُ من صفات الكمال، ومنها إنعامه على العبد، إذاً: فالحمد يكون بالقلب واللسان، ولكن الشكر يُؤدّى بكل من القلب واللّسان والجوارح[١].

أما القلب فشكره يكون بعرفانه نِعَمَ الله تعالى واعترافه بها، ولهذا قال تعالى في وصف الكفار: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [النحل]، أي: وأكثر المشركين والكفار غير شاكرين، بلْ كفورون، وليس المقصود به، أنّهم كفار، لأنهم كلهم كفار، وليس أكثرهم فحسب،

(١) المعجم الوسيط، ص٤٩٠.

إذاً: فالكفر هنا يقصد به كفران النعمة، وليس كفر العقيدة.

وأما اللّسان، فشكره يتمثَّل في الثناء على الله تعالى والتَحَدُّث بِنِعَمِهِ، كما قال تعالى لنبيه: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾ [الضحى].

وأما البدن والجوارح، فشكرها باستخدام نعم الله فيما يحبّه ويرضاه، وذلك مثل تعليم الناس العلم الذي يهبه الله إياه، وإنفاقه ماله في الأغراض الشرعية المختلفة، واستعمال العقل فيما يعود على الإسلام والمسلمين بالخير والنّفع... إلخ، فشكر كل نعمة هو أن تستعمل تلك النعمة في الأغراض الشرعية التي حدّدها دين الله تعالى، ولهذا قال تعالى مُثْنِياً على كل من داود وسليمان عليهما السلام، الَّلذَيْنِ سخر لهما إمكانيات خاصة، وكانا يستعملان تلك الإمكانيات في مرضاة الله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ۝١٠ أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝١١ وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٢ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ وَتَمَـٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ۝١٣﴾ [سبأ].

إذن:

فالشكر عَمَلٌ يُفعَلُ، وليس قولاً يقال، كما يظن البعض، ولهذا قال جلَّ شأنه: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ۝٧﴾ [إبراهيم]، إذ الذي يزيد الله به النعمة، هو استعمالها واستخدامها في الوجوه الشرعية، فتنمو بإذن الله وتزداد، وهذه سنة ربانية مجرَّبة، فالذي يعلّم الناس العِلْمَ الذي علّمه الله إيّاه، يزدادُ عِلْمُهُ بعمله المشكور هذا، وهكذا سائر أصحاب النعم، تنمو نِعَمُهمْ وتزداد وتزدهر، إذا ما استعملوها في المقاصد الشرعية، وحرّكوها باتجاه الخير والمصلحة العامة، ولم يحبسوها في أنفسهم بخلاً وتقتيراً.

والملاحظ أن الله تعالى قدّم شكر العباد لله، على إيمانهم به، كما

في قوله: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾ [النساء]، وأرى أن الحكمة في هذا هي: أن عرفان العبد مِنّة الله عليه، واعترافه بنعمه الجزيلة، هو الدافع الذي يدفعه للإيمان به، ولهذا قدّم عليه، وأما قوله تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ﴾ فوالله هو من ألطف التعبيرات الربانية الموجّهة إلى عباده، إِنْ لم يكن ألطفها جميعاً! حيث يتساءل سبحانه مستفهماً مُنْكِراً، أن يكون له سبحانه غرض في تعذيب عباده، إن اتّصفوا بالشكر والإيمان! ومعنى هذا أن كفران العبيد تجاه ربهم المنعم، وجحودهم لنعمه الكثيرة ومواهبه الجزيلة، ثم عدم إيمانهم به، هو الذي يعرّضهم لغضبه وعقابه، وإلا فهو لا يحبّ ما يسوؤهم!

١١) التوكّل:

وكذلك التوكُل من الخصال الحسنة التي أمر بها سبحانه وتعالى عباده فيما بينه وبينهم، والتوكل تفعّل من الوكالة أي: اتخاذ الوكيل، والمقصود به هو اعتماد القلب على الله تعالى، كما يثق الموكِّل بوكيله ويُحيل أموره إليه، ويُريح بالَه[1]، وقد أثنى جلّ جلاله على المتوكلين في آيات كثيرة، وذكر التوكّل بعد الإيمان، وأردفه إياه في مواضع، كي يُعْلَم بأن التوكُّلَ هو الثمرة المباشرة للإيمان، إن كان الإيمان إيماناً حقاً، قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [آل عمران]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران].

والأخذ بالأسباب لا يُنافي التوكُلَ، لأن التوكل عمل قلبي وعقلي فحسب، والإنسان روح وجسد، وكما أن الروح بحاجة إلى الإِعتماد على الله تعالى والتوكل عليه، كذلك البدن بحاجة إلى الأخذ بالأسباب، ولهذا قال رسول الله ﷺ للأعرابي الذي سأله: هل يَعْقِلُ ناقَتَه ويتوكّل على الله أم يُطْلِقُها ويتوكّل؟! «**إعقِلْها وتَوَكَّلْ**» رَوَاهُ التِّرمِذِيُّ برقم: (٢٧٨٨)، وَابْنُ حِبَّانَ برقم: (٧٣١)، وَقَالَ الشيخ الألباني: حَسَنٌ.

(١) المعجم الوسيط، ص ١٠٥٤، ١٠٥٥.

١٢) المحبَّة:

وحبّ العبد لله تبارك وتعالى، أيضاً من الخصال الحميدة التي يجب أن يتحقق بها فيما بينه وبين الله تعالى، ومن الآيات الدالّة على وجوب محبة العبد لربّه تبارك وتعالى، بل حبّه أكثر من أي شيء في الوجود، قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ ﴿١٦٥﴾﴾ [البقرة].

وقال رسول الله ﷺ: «**ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلاوَةَ الإيمانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا . . .**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ: البُخَارِيُّ برقم: (١٦)، وَمُسْلِمٌ برقم: (٤٣) عَنْ أَنَسٍ ﷺ.

١٣ و١٤ و١٥) الخشوع والقنوت والإخبات:

وكذلك ينبغي للعبد أن يكون خاشعاً لربّه، وقانتاً، ومُخْبِتاً، كما قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ [المؤمنون]، وقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء]، وقال تعالى بالنسبة للقنوت: ﴿وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ [البقرة]، وقال: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ [التحريم]، وبالنسبة للإخبات قال: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الحج]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [هود].

وهذه الألفاظ الثلاثة قريبة المعنى[1]، وأرى أن الفرق بينها هو كالآتي:

---

(١) لكن صاحب (مختار الصحاح) فسّر كلاًّ من: الخشوع والإخبات بمعنى الخضوع، وفسّر القنوت بمعنى الطاعة، انظر ص١٦٦، لفظ خ ش ع، ص١٥٩، لفظ: خ ب ت، ص٤٧٩، لفظ: ق ن ت.

إن الخشوع يختص على الأكثر بالجانب الباطني والخفي، أي خضوع باطن الإنسان واستسلامه لله تعالى، بدليل أن الله تعالى أثنى على المصلين الخاشعين، إذاً: فهو جزء من الصلاة، وبما أن الخشوع هو أهم شيء في الصلاة، علمنا أن المقصود به هو، كما قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ [المؤمنون]، وكذلك خصّ سبحانه الخشوع بالقلب في قوله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۝١٦﴾ [الحديد].

وأما القنوت، فيختص بالسكون الظاهري في الصلاة على الأكثر، بدليل أن المفسِّرين ذكروا أن سبب نزول[1] قوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ۝٢٣٨﴾ [البقرة]، هو أن بعض الصحابة كانوا يُكْثِرون الحركَةَ في الصلاة، فأنزل الله تعالى هذه الآية، فقنتوا وسكنت جوارحهم.

وأما الإخبات، فهو الخضوع والخشوع العام الذي يشمل الظاهر والباطن، أي: هو الإستسلام الكامل لله تعالى، والدليل عليه هو أن الله تعالى عرَّف المخبتين، بمجموع صفات تشمل الباطن والظاهر، كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُواْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ۝٣٤ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣٥﴾ [الحج].

١٦و١٧و١٨و١٩) التسبيح التقديس والتحميد والتكبير:

ومن الصفات التي يجب على العبد أن يحققها في نفسه تجاه ربِّه العظيم، هي كل من: التسبيح والتقديس والتحميد والتكبير لله تعالى، وقد

---

(١) لباب النقول في أسباب النزول، للسيوطي، ص٤٦، رقم: ١٦٨. وانظر: صحيح البخاري: ٤٥٣٤، وصحيح مسلم: ٥٣٩، وسنن أبي داود: ٩٤٩ وسنن الترمذي: ٢٩٨٦، وسنن النسائي: (١٨/٣)، وغيرهم.

ذكرنا معاني (التسبيح والتحميد والتكبير) سابقاً فلا نعيدها، ونكتفي بإيراد هذه الآيات دليلاً على وجوبها:

١ - ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝١﴾ [الأعلى].

٢ - ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٦٣﴾ [العنكبوت].

٣ - ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ۝٣﴾ [النصر].

٤ - ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾ [المدثر].

٥ - ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ۝١١١﴾ [الإسراء].

وجديرٌ بالذكر أن مقدار اتصاف المسلم بالتسبيح لله تعالى، وكذلك تحميده وتكبيره وتعظيمه وتقديسه إيّاه، يكون بمقدار معرفته له، وإيمانه به، وعبوديته له، وقربه منه، وكذلك سائر الصفات والخصال الحميدة الأخرى.

وأما (التقديس) فهو بمعنى التطهير[1]، (قَدَّسَهُ) يعني: طهَّره وطيَّبه، وهو قريب من التسبيح، لكن التسبيح يعطي معنى الإبعاد (أي إبعاد الله تعالى عمّا لا يليق به)[2]، وتقديسُ الله تعالى، أي: تطهير ساحة ذات الله وصفاته وأسمائه ... إلخ، عما لا يليق به، و(القدوّس) من أسماء الله الحسنى، ويعني (الطّاهر) كما قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ۚ ۝٢٣﴾ [الحشر]، وقال تعالى حاكياً عن الملائكة الكرام: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ ۝٣٠﴾ [البقرة].

---

(١) مختار الصّحاح، ص٤٥٥، لفظ: ق د س.

(٢) المصدر السابق، ص٢٥٥، لفظ: س ب ح.

٢٠ و٢١ و٢٢) الخوف والخشية والرهبة:

كذلك ينبغي للعبد أن يكون في تعامله مع ربِّه الكريم، خائفاً منه وخاشياً وراهباً، وهذه الألفاظ وان كانت متقاربة المعنى، ولكن توجَد بينها فروق دقيقة ـ حسبما يبدو لي وأتذكّره من المفسِّرين ـ، أما الخوف من الله فهو: الشعور بتوقُّع حصول مكروه بسبب التعرّض لغضب الله، وذلك لأن الله تعالى قَرَنَ بين الخوف والطمع في الدعاء، فقال: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۝٥٦﴾ [الأعراف]، وإذا كان الطمع هو توقُّع حصول ما تحبه، بسبب التَعَرّض لرحمة الله، فالخوف عكسه.

وأما الرهبة من الله، فهي الشعور بتوقُّع حصول مكروه، بسبب التعرُّض لعقاب الله، وذلك لأن الله تعالى قرن بين الرغبة والرهبة، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۝٩٠﴾ [الأنبياء]، والرغبة هي الميل إلى ثواب الله، وما دامت الرهبة عكسها إذاً: فهي توقع عقاب الله تعالى.

وأما الخشية، فتَتَضمَّن معنى الخوف، بالإضافة إلى التعظيم والإجلال والإشفاق على النفس[1]، ولهذا قلَّما ذكرت الخشية في كتاب الله، ولم تُضَفْ إلى الله تعالى، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۝٢٨﴾ [فاطر]، وقوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۝١٨﴾ [التوبة]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ۝٢١﴾ [الرعد]، وقد استعملت الخشية في مواضع لغير الله، لوجود حالة التعظيم أو الإشفاق.

٢٣) إرجاعُ الأمور كلِّها إلى مشيئة الله المطلقة:

ومن الخصال الكريمة التي يجب أن يحققها العبد في نفسه في تعامله مع ربِّه العظيم، هو أن يُرْجِعَ كلَّ الأمور إليه، ويرى أزمة الأمور كلها بيده

---

(١) المعجم الوسيط، ص٢٣٧ (خشِيَه: خافه بتَعْظيم ومَهابة).

سبحانه وتعالى، وهذه بعض الآيات التي تُبَيِّن أن هذا - أي إرجاع الأمور كلها إلى إرادة الله المطلقة النافذة في كل شيء - هو ديدن كل أنبياء الله الكرام عليهم الصلاة والسلام:

١ - ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ﴿٨٩﴾﴾ [الأعراف].

٢ - ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الأنعام].

٣ - ﴿وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [يوسف].

٤ - ﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [هود].

٥ - ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأعراف].

٦ ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟ىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ﴾ [الكهف].

كما نرى يربط الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، كُلَّ شيءٍ وكلَّ الأمور والمصائر كُلِّها، بمشيئة الله المطلقة، ويُرجِعون الأُمورَ كُلَّها إليها:

فشعيب عليه السلام بعد أن يهدده كبراء قومه الكافرين المستكبرين، بالإخراج من الوطن، أو العودة إلى الكفر، بالرغم من إنكاره الشديد على

الرجوع إلى الكفر وتوطينه العزم على الإيمان في كل الأحوال، ولكن تأدباً مع مشيئة الله الكلية النافذة، يُقَيِّدُ العودة بمشيئة الله!

وكذلك (إبراهيم) الخليل عليه السلام بعد إعلانه التبروء عن الشرك والمشركين، وعدم حسابه لأصنامهم وشركائهم، أن يقدروا على إصابته بأذى، يعود - تأدباً مع مشيئة الله المطلقة - فَيُقَيِّدُ عدم إصابته بشيء من قِبَلِهِمْ بمشيئته، أي انه: إذا شاء أن يصيبه مكروه مِنْ قِبَلِهم، فَسَيُصيبهُ!

وكذلك (يعقوب) عليه السلام، بعد أن يوصي أبناءه بعدم دخول مصر مجتمعين من باب واحد، لئلا يصيبهم مكروه، كأن تَتَخَوَّفَ السلطةُ منهم على نفسها، فتؤذيهم، يعود فيؤكد أن تحذيره لهم، لا يفيدهم شيئاً، من قدر الله ومشيئته المطلقة!

وكذلك (نوح) عليه السلام يؤكد لقومه، بأن نصحه لهم لا يفيدُهم شيئاً، إِن كان الله يريد إغواءهم، بسبب استحقاقهم له، عدلاً منه سبحانه وتعالى!

وكذلك (موسى) عليه السلام يُقَيِّدُ الهداية والضلالة بمشيئة الله وابتلائه لعباده.

وفي الختام يعظ الله تعالى خاتم أنبيائه، محمداً ﷺ ألّا يقول بأنه غداً يفعل العمل الفلاني، إلّا إذا قَيَّد قَوْلَهُ، بمشيئة الله قائلاً: (إن شاء الله).

٢٤) <u>التبتّل</u>:

والتبتّل، هو الإنقطاع إلى الله تعالى والإِسْتغراق في عبادته وذكره[1]، وقال تعالى في هذا: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾﴾ [المزمل]، وهذا الخطاب وان كان موجهاً إلى رسول الله ﷺ، ولكن أمته أيضاً داخلة في

(١) مختار الصحاح، ص٤٩، لفظ: ب ت ل.

حكمه، لأن أي خطاب موجّه الى رسول الله، فهو موجَّهُ أيضاً لأمته ،إلا إذا خصّته قرينة به وحده ﷺ، ولا قرينة هنا.

٢٥) الذكر الكثير:

ومن الصفات التي يجب أن يُحلّي العبد بها نفسه، في مجال تعامله مع ربّه، هي الذكر الكثير، وقد بيّنّا مفهوم الذكر في الفصل الرابع من هذا الكتاب فلا نعيده، ونكتفي بإيراد هذه الآية دليلا على وجوب الذكر الكثير لله تعالى على العبد المسلم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾﴾ [الأحزاب].

٢٦) التقرّب:

وكذاك يجب على العبد أن يسعى جهده دَوْماً للتقرّب إلى الله تعالى، وذلك بفعل ما يُقربه إلى الله تعالى، كما قال تعالى: لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب ﴿١٩﴾﴾ [العلق]، وقال جلّ شأنه مُثنياً على الأعراب الذين كانوا ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٩٩﴾﴾ [التوبة].

٢٧ و٢٨) السمع والطاعة:

وكذلك من خصال العبد المؤمن التي يتعامل بها مع ربّه (السّمع) و(الطاعة)، أي الإستماع لأوامر الله لتلقيها، وفهمها، ثم إطاعة الله تعالى بتنفيذها، وأصل السمع والطاعة، إنما هو لله تعالى، ثم بالتّبع له يقدّم لرسول الله ﷺ، ولكل من ينوب عنه في إمامة المسلمين على منهاجه وسنته، وقال تعالى مُثنياً على رسوله وعلى المؤمنين السامعين المطيعين له: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة].

٢٩) الرغبة إلى الله:

والرغبة إلى الله تعالى ولقائه ورضوانه وثوابه، كذلك خصلة واجبة في العبد، في مجال تعامله مع ربّه، والرغبة في الشيء تعني: اختياره وإيثاره والتطلع إليه(١)، قال تعالى في هذا مخاطباً رسوله الأمين (محمداً) ﷺ: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾ [الشرح]، أي: فإذا فرغت من أشغ لك نه راً، فانصبْ نفسك للعبادة ليلاً، وارغبْ فيما عند ربّك

وقد أثنى الله تعالى على زكريا وزوجته وابنهما يَحْيى عليهم السلام لرهبتهم منه، ورغبتهم في فضله ورحمته وثوابه، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ۝٩٠﴾ [الأنبياء]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾، قبل قوله: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ﴾ دليل على أن الرغبة فيما عند الله تعالى، ان كانت صادقة، وكذلك الرهبة منه، فإنهما تدفعان الإنسان إلى العمل الجادّ، وأما الإكتفاء بالتمنّي، فدليل على أن الرغبة والرهبة ليستا صادقتين.

٣٠) الفرح بفضل الله ورحمته:

ومن خصال العبد المؤمن، أن يكون سروره وفرحه الحقيقي، بما يستشعره من فضل الله عليه ورحمته إيّاه، والّلذَيْنِ يتمثلان في أجلى صورهما في هداية الله وتوفيقه إياه، لفهم كتابه واتّباعه، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٧ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨﴾ [يونس].

٣١) الولاية مع الله والبراءة من أعدائه:

كذلك ينبغي للعبد المؤمن أن يكون ولياً وموالياً لربّه ولأوليائه تبعاً له، وبريئاً ومعادياً لأعدائه، وهناك آيات كثيرة توجب الولاية مع الله تعالى

---

(١) مختار الصِّحاح، ص٢٢٧، لفظ: ر غ ب.

وأوليائه، والبراءة من أعدائه ومعاداتهم[1]، منها:

١ - ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ [الأعراف].

٢ - ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ۖ ﴿١٠١﴾﴾ [يوسف].

٣ - ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴿٥٥﴾﴾ [المائدة].

٤ - ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾ [الزخرف].

٥ - ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾﴾ [الممتحنة].

٦ - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ ﴿١﴾﴾ [الممتحنة].

٣٢و٣٣و٣٤) الإستغفار، والإنابة، والتوبة إلى الله تعالى:

نعم كل من هذه الثلاثة: (إستغفار الله) و(الإنابة إليه) و(التوبة إليه) من الخصال الحميدة التي ينبغي للعبد أن يُزيِّن بها نفسه، في تعامله مع ربِّه الكريم.

وقد تحدثنا سابقاً عن (الإستغفار) فلا نعيده هنا، ونكتفي بإيراد هذه الآية الكريمة دليلا على وجوبه، قال تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴿١٩﴾﴾ [محمد].

وأما بالنسبة للإنابة والتوبة، فنقول:

---

(١) مختار الصحاح، ص٦٣١، لفظ: و ل ي.
[الوَلْيُ بسكون اللاّم: القرب والدنوُّ... والوليّ ضد العَدوّ، وكل مَنْ وَليَ أَمْرَ واحدٍ فهو وليُّه، والمَوْلى: المُعْتِقُ والمُعتَقُ وابن العم والناصر والجار والحَليف... والموالاة ضد المعاداة...].

(الإنابة) و(التوبة) كلاهما بمعنى الرجوع إلى الله تعالى، وأصل معناهما في اللغة هو الرجوع مطلقاً، ولكن الشرع قيّده عند أستعماله لهما بالرجوع إلى الله تعالى، والدليل على أنّهما بمعنى الرجوع إلى الله تعالى[1]، هو قوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ ﴿٥٤﴾﴾ [الزمر]، وقوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور].

ولكن يبدو لي أن الفرق بينهما، هو أن الإنابة تختصُّ بالرجوع القلبي الباطنيِّ، أكثر منه بالرجوع الظاهريِّ، وان كان رجوع الباطن يستلزم دَوْماً رجوع الظاهر أيضاً، لكن التوبة تعني الرجوع المطلق باطناً وظاهراً.

وإذا رتّبنا هذه الثلاثة ترتيباً مُتَدرِّجاً يكون الترتيب هكذا:

الإنابة، الإِستغفار، التوبة.

وذلك لأن الخطوة الأولى التي يخطوها العَبْدُ في الرجوع إلى الله عالى هي: أن يُنِيبَ بقلبه وسِرّه إلى ربّه، ويستشعر إِساءته وإسرافه في جنب ربّه الكريم الحليم الرحيم، فيدفعه هذا الشعور المبارك (الإنابة) إلى أن يُقِرَّ بذنوبه وتقصيراته، ويعترف بها باللسان، وأن يطلب عفو ربّه ومغفرته ورحمته (الإِستغفار)، ثم أن يتغيَّر باطناً وظاهراً، ويبدأ حياة جديدة، ويفتح صفحة جديدة في التعامل مع ربّه، والتي تتمثل في العبادة والطاعة والتقوى (التوبة).

إذاً:

فالإنابة التي هي عمل القلب، هي أساس التوبة والرجوع إلى الله وروحها ولُبُّها، والإِستغفار الذي هو عمل اللّسان، بالإضافة إلى عمل القلب الذي لا جدوى لعمل اللسان بدونه، هو الإعلان عن التوبة والرجوع إلى الله ثم الرجوع عملياً، من البعد من الله تعالى، إلى القرب منه، ومن الإساءة

---

(١) مختار الصّحاح، ص٥٨٧، لفظ: ن و ب، وص ٨٣، لفظ: ت و ب.

إلى الإحسان، ومن المعصية إلى الطاعة بالباطن والظاهر، هو التوبة، ولهذا تكرّر الأَمْرُ بالإستغفار والتوبة، في آيات كثيرة.

ولكن يجب ألّا نغفل عن حقيقة مهمة، وهي أن كلاً من الإستغفار والإنابة والتوبة، ليس بالضرورة أن يكون بعد معصية واقتراف إثم ظاهر، بل الإنسان دوماً بحاجة إليه، ثم: انَّ لكل إنسان نوعاً من الإستغفار والإنابة والتوبة، يخصّه هو، حسب إيمانه وتقواه، فمنهم من يستغفر الله تعالى ويُنيبُ إليه، ويتوب إليه، من معاصٍ وآثام ظاهرة، ومنهم من يستغفر الله وينيب ويتوب إليه، من معاصٍ وأخطاءٍ قلبية باطنة، ومنهم من يستغفر الله وينيب ويتوب إليه، من طاعاتٍ لا يراها جديرة بالله تعالى ومقامه وعظمته، وأستغفار الأنبياء وإنابتهم وتوبتهم، كانت من هذا النوع الأخير.

٣٥) الطمأنينة بالله:

ومن الخصال التي ينبغي للعبد أن يحققها في نفسه، فيما بينه وبين الله تعالى هي الطمأنينة، وهي كما عرّفناها سابقاً، سكون واستقرار وسكينة[١]، يعتري القلب بسبب ارتباطه بالله تعالى، والشعور بولايته له ووكالته وكفايته، ولا يطمئن القلب الطمأنينة الحقيقية، إلّا بالإرتباط بالله تعالى المتمثل في العبودية له، والذي عبَّر عنه كتاب الله بـ(ذكر الله) فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد].

هذا ويزداد إطمئنان القلب بعوامل، منها هذه الثلاثة:

أولا: مشاهدة آيات الله المنظورة في الأنفس والآفاق، بدليل أن إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، طلب من ربِّه أن يريه كيفية إحياء الموتى، معلِّلاً طلَبَهُ هذا، بحصول الإطمئنان له، ولا شك أن مقصوده كان زيادة الطمأنينة، وليس إيجادها، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً

---

(١) مختار الصِّحاح، ص٣٥٢، لفظ: ط م ن.

مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ [البقرة].

وتدل هذه الآية على أن سعي العبد لزيادة إطمئنان قلبه، وظيفة إيمانية، ولهذا استجاب الله الحكيم لطلب إبراهيم المذكور.

ثانياً: سَماعُ تلاوة آيات الله المقروءة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنفال]، وكيفية دلالة هذه الآية على ما ذكرنا، هي: أن الطمأنينة ثمرة الإيمان والإرتباط بالله، لِذا تزداد بزيادة الإيمان ورسوخه.

ثالثاً: نزول السكينة في القلب، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ ﴿٤﴾﴾ [الفتح]، والفرق بين السكينة التي هي بمعنى الوَداع والقرار[1] وبين الطمأنينة، هو: أنّ السكينة طارئة وعابرة، ولكن الطمأنينة ثابتة، كما بيّناه في السابق.

٣٦) تفويض الأمور إلى الله:

وهذه أيضا من الخصال الحميدة في العبد، فيما بينه وبين ربّه تبارك وتعالى، كما قال تعالى على لسان الرجل المؤمن الكاتم إيمانه من آل فرعون: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾﴾ غافر.

وتفويض الأمور إلى الله، قريب من التوكُّل، ولكن فيه زيادة، وهي: راحة البال وطمأنينة القلب، بالنسبة للعاقبة والمآل.

هذا ومن فوّض أمره بحق إلى الله تعالى، كفاه أمره، كما كفى الرجُلَ المؤمِنَ من آل فرعون، ووقاه شرَّهم! كما أن مَنْ توكّل على الله تعالى حق التوكل، يكون الله حسبه، كما قال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ ﴿٣﴾﴾ [الطلاق].

---

(١) مختار الصّحاح، ص٢٧٦، لفظ: س ك ن.

٣٧) الرِّضى عن الله:

وهذه الخصلة الشريفة التي جعلناها مسك الختام، أيضاً من الخصال التي يتحلَّى بها العبد، في تعامله مع ربِّه الكريم سبحانه وتعالى، وإنما جعلنا كلا من: (الطمأنينة) و(التفويض) و(الرِّضى) آخر الخصال الكريمة التي يحققها العبد في نفسه، فيما بينه وبين الله تعالى، لأن العبد لا يتسنّى له الإِتصاف بهن، إلا بعد تحقُّقه بالصفات السابقة، إذ هذه الثلاثة ـ كما يبدو لي ـ هي الثمرة النهائية لشجرة الإيمان والعبادة والتقوى، وهي خاتمة المطاف في مسيرة السير إلى الله تعالى، في مجال ما يحصل للعبد من نتائج وثمار، وقوله سبحانه وتعالى في آخر سورة (الفجر) برهان لما قلنا، كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر].





المطلب الثاني:
الأخلاق الحسنة التي يتعامل بها المسلم مع الناس

ولنتأمل أولاً هذه الآيات المباركات، التي ورد فيها ذكر الأخلاق الفاضلة، ثم نأخذ منها الأخلاق الحسنة المذكورة فيها، ونرتّبها بالتسلسل:

١. ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾ [آل عمران].

٢. ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾ [البقرة: ١٧٧].

٣. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠].

٤. ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران].

٥. ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ﴾ [المائدة: ٥٤].

٦. ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

٧. ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الشورى].

٨. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨].

٩. ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف].

١٠. ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ

ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾﴾ [الفرقان].

١١. ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ... وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ [الرعد: ٢١، ٢٢].

١٢. ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

١٣. ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣].

١٤. ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

١٥. ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر].

١٦. ﴿وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [المعارج].

١٧. ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران].

١٨. ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

١٩. ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ [البقرة: ٢٧٣].

٢٠. ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ [لقمان].

٢١. ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

٢٢. ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٣].

٢٣. ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [الشعراء: ١٨٣].

٢٤. ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾﴾ [الزمر].

٢٥. ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾﴾ [مريم].

٢٦. ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران].

٢٧. ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ [الأحزاب].

٢٨. ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الجاثية].

٢٩. ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣].

٣٠. ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ﴾ [الإسراء: ٥٣].

٣١. ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾ [النحل: ١٢٥].

٣٢. ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ﴾ [النور: ٣٠].

٣٣. ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ [النور: ٣٣].

٣٤. ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ... يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ﴾ [النور: ٣١].

٣٥. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾﴾ [الأحزاب].

٣٦. ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الأحزاب].

٣٧. ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ [القصص: ٢٦].

وقبل أن نشرع بسرد الأخلاق الفاضلة التي ذكرتها هذه الآيات المباركات، والَّتي عَدَدها أربعة وستون (٦٤) خُلقاً، مِمّا يجب على المرء المسلم أن يتحلّى بها في تعامله مع الناس، أُنبّه على أن هناك بعض

الصفات والخصال التي لها ارتباط بكلا مجالي تعامل العبد مع الربِّ ومع الناس، لِذا نذكرها في كلتا القائمتين، ولكن لا شك أن وجه ارتباطها بالله تبارك وتعالى، يختلف عَنْ وجه ارتباطها بالناس:

١» **الصَّبْر**: الآية (١٧) من (آل عمران):

وقد وضَّحنا مفهوم الصبر في المطلب الأول من هذا المبحث الرابع، فلا نُعيدهُ هنا.

والمقصود بالصَّبر في مجال التعامل مع الناس، هو: الصبر على ما يصدر منهم من جهل وأذى، كما قال تعالى، حاكياً قول (لقمان) وهو يعظ ابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٧﴾ [لقمان]، والصّابر محبوب لله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران].

٢» **الصدق**: الآية (١٧) من (آل عمران):

ومفهوم الصدق في مجال التعامل مع الناس شاملٌ، يشمل القلب واللسان والأحوال والأفعال، إذْ ينبغي للمؤمن أن يكون صادقاً مع الناس، قلْباً ولساناً وحالاً وفعلاً، أي باطناً وظاهراً.

٣» **الوفاء بالعهد**: الآية (١٧٧) من (البقرة):

الوفاء هو الإِلتزام بالعهد المبرم بين طرفين أو أكثر، وهو ضدّ الغَدْر الذي هو نقض العهد وعدم الإِلتزام به[١].

٤» **العدل**: الآية (٩٠) من (النحل):

والعدل ضدّ الظلم والجور، ومفهوم العدل أيضاً واسع جداً في مجال التعامل مع الناس، يشمل مختلف الأحوال وشتى الشؤون الظاهرة والباطنة، ويتضّمن (العَدْلُ) مفهوم (المساواة) ولكن لا ينحصر فيه[٢].

---

(١) مختار الصِّحاح، ص٦٢٦، ٦٢٧ لفظ: و ف ي. ومفردات ألفاظ القرآن، ص٥٥١- ٥٥٣.

(٢) المصدر السابق، ص٣٦٨، لفظ: ع د ل.

٥» **الإحسان**: الآية (٩) من (النحل):

الإحسان هو إيصال النفع والخير للغير، أياً كانت نوعيته وكيفيته (في حدود الشريعة) وهو ضدّ الإساءة والإضرار، وأعلن سبحانه وتعالى أنه يحب المحسنين: ﴿وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [البقرة]، وكذلك مفهوم الإحسان عام يشمل كلَّ شيءٍ فيه خير ونفع، كذلك مَنْ يُحْسَن إليهم، هم كلُّ الناس بلا استثناء.

٦» **إيتاء ذي القربى**: الآية (٩٠) من (النحل)، والآية (٢١) من (الرعد):

وإعطاء ذي القربى ومساعدتهم، كذلك له مفهوم واسع من ناحية ما يُساعَدون به، من الأمور المادية والمعنوية، ومن ناحية مَنْ يُقَدِّمُ لهم العون والعطاء، هم كل من تربطك بهم صلة القرابة، وسنتحدث عن صلة الرحم في الفصل الثالث من الكتاب العاشر، من هذه الموسوعة، بإذن الله.

٧» **الإحسان إلى الوالدين**:

والوالدان وان كانا داخلين في مفهوم (ذي القربى) إذ هم أقرب الناس وأخصّهم بالإنسان وأولاهم بالإحسان، ولكن بما ان تعالى أمر بالإحسان إليهما في أكثر من آية، وأكد عليه بآكد الأساليب التعبيرية، رأينا لِزاماً علينا أن نخصه بالذكر، وبما أننا سنتحدث عنه في الفصل الثالث من الكتاب العاشر، نكتفي هنا بهذه الإشارة وإيراد هاتين الآيتين الكريمتين: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ﴿٢٣﴾ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء].

٨» **الإنفاق في السرّاءِ والضرّاء**: الآية (١٣٤) من (آل عمران):

الإنفاق هو بذل المال للآخرين وإعانتهم به، وقد عمَّم الله تعالى مفهوم الإنفاق في هذه الآية، من ثلاث جهات:

أ - من جهة المُنْفَق المبذول، إذ لم يقيِّد الله تعالى الإنفاق بمفعول (أي مبذول) ما، بلْ أطلقه حتى يشمل كل الأشياء.

ب - من جهة المُنفَق عليه، حيث حُذِفَ، حتى يكون كل محتاج مشمولاً ومعنياً.

ج - من جهة حالات الإنفاق، إذ ذكر الله تعالى حالتي (السرّاء) و(الضرّاء) أي الغِنى والفقر، أو السعة والضيق، أو الرّخاء والشدّة، وذلك كي يستمر الإنفاق في أعم الحالات.

٩» **كظم الغيظ: الآية (١٣٤) من (آل عمران):**

وكظم الغيظ هو الإمساك بلجام النفس عند شدّة الغَضَب والهَيَجان، وكبت الغضب، وعدم إفْساح المجال له بالخروج من خلال تعبيرات اللّسان أو حركات الجوارح[1].

وقد سمّى رسولُ الله ﷺ مالِكَ نفسه عند الغضب (صُرَعَةً) أي البطل الذي يصرع الناس كثيراً في المصارعة، حيث قال: **«لَيسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِندَ الغَضَبِ»** مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ: رَوَاهُ البُخَارِيُّ برقم: (٦١١٤)، وَمُسْلِمٌ برقم: (٢٦٠٩) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ.

١٠» **العَفْو والصفح عن الناس:** الآية (١٣٤) من (آل عمران) والآية (٢٢) من (النور):

وأصل العَفْو هو إزالة أثر الشيء ومحوه، ولا يكون العَفْو إلاّ في قابل الإساءة والجهل، فكأن العافي يُزِيلُ أثر الإساءَة الموجهة إليه في قلبه، بعفوه عن المسيء الجاهل، والصفح أبلغ من العفو وأَخَصُّ منه، لأنه يفيد نسيان الإساءة الموجهة إليك وإهمالها بالكلية[2]، والكلمة مأخوذة من قولهم (أدار فلان صفحة عنقه عن فلان) إذا أهمله ونسيه.

وقوله تعالى في نهاية الآية: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، دليل على أن كلاً من الإنفاق في السرّاء والضرّاءِ، وكظم الغيظ، والعفو عن الناس، من صفات المحسنين الذين يحبهم الله جلَّ شأنه.

---

(١) مختار الصِّحاح، ص٤٨٥، لفظ: ك ظ م.

(٢) المصدر السابق، ٣٢٣، لفظ: ص ف ح.

١١» الذلّة على أهل الإيمان: الآية (٥٤) من (المائدة):

كلمة (أَذِلَّة) في الآية جمع (ذليل) والمقصود بالذليل هنا لين الجانب والهدوء والحلم[1]، ولهذا عُدِّيَتِ الكلمة بـ(على) فقال تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ كي تفيد معنى الشفقة والحُنُوّ ولين الجانب، وجملة: (ذَلَّ فلان لِفُلانٍ) أي خضع واستسلم، وانقاد له ضعفاً وهواناً، ولكن جملة: (ذلّ فُلان على فُلان) أي: ألان له الجانِبَ رحمةً وشفقةً، وليس من جهة الضُّعف.

١٢» العِزّة على أهل الكفر: الآية (٥٤) من (المائدة):

العِزّة مأخوذة في الأصل من قولهم: (أرض عَزازٌ) إذا كانت صَلْبة قوية، والعِزَّةُ تفيد معنى الغلبة والصلابة، فهي بخلاف الذلة تماماً[2]، والمقصود بالعزّة على الكافرين (إذ كلمة ـ أعزة ـ جمع عزيز)، يعني: التعامل معهم من منطلق العلوّ والرِّفعة نفسياً، وليس المقصود به قهرهم والتسلّط عليهم (في مجال التعامل)، ولكن المقصود به، ألّا تعاملهم من منطلق الضعف وبروح انهزامية.

وسنفصِّل القول في كيفية التعامل ـ بمعناه العام ـ مع الكفار، في الباب الرابع (أي الكتاب الثاني عشر من هذه الموسوعة)، بإذن الله.

١٣» عدم الخوف من لومة اللآئمين: الآية (٥٤) من (المائدة):

ومعنى عدم الخوْف من لومة اللائمين، هو ألّا تُبالي ولا تعبأ بالإنتقادات التي يوجِّهها لك الآخرون، بسبب اتِّباعك للشريعة، وطاعتك لله تعالى ولرسول الله ﷺ، وليس المقصود به عدم الإهتمام بالإنتقادات المنطقية الموجَّهة إليك، وعدم السماع لآرائهم وأفكارهم، فيما لا يتعارض مع دين الله الحق وقطعياته التي لا مجال فيها للأخذ والرد! لأن هذا الثاني مطلوب من المسلم ومأمور به شرعاً، كما سيأتي.

---

(١) مختار الصِّحاح، ص٢٠٦، لفظ: ذ ل ل.

(٢) المصدر السابق، ص٣٧٩، لفظ: ع ز ز.

١٤» الشدَّة على الكفّار: الآية (٢٩) من (الفتح):

كلمة (أشداء) في الآية المباركة جمع (شديد) والشديد هو الذي يُبدي القوَّة والغِلْظة والقسوة، وبما أن إظهار هذه الصفات تجاه الكفار لا يجوز من المسلم، سوى في حالة القتال والمواجهة، علمنا أن المقصود بالشدّة على الكفار، إنما هو في حالة الحرب والقتال معهم.

وربما ظن بعض الناس أن العزَّة والشدَّة لهما نفس المعنى، ولكن ليس هكذا، إذْ يستطيع الإنسان أن يكون (عزيزاً) من غير استعمال العنف والقوة، ولكن الشدَّة لا تكون إلا في حالة المواجهة.

١٥» الرحمة تجاه أهل الإيمان: الآية (٢٩) من (الفتح):

كلمة (رحماء) في الآية الكريمة جمع (رحيم) والرحيم هو الذي يُبْدي العطف والرقَّة والحُنُوَّ، وهذا هو صفة المؤمن الدائمة مع أهل الإيمان: يُشْفِق ويَعْطَفُ عليهم، ويودّهم ويودُّ لهم كل خير.

١٦» المغفرة عند الغضب: الآية (٣٧) من (الشورى):

المسلم يحاول أن يكظم غيظه ما استطاع، ما دام عدم تنفيذ الغضب محبوباً للشرع، ولكن إذا لزِم الأمر أن يَغْضَبَ، يَغْضَبُ، لأن الغَضَبَ غريزة وضعها الله تعالى في النفس البشرية، بل وفي الحيوانات أيضاً، كي يدفعه للدفاع عمّا يجب الدفاع عنه، لذا لا يمتدح الشرع عدم امتلاك الغضب أصلاً، لأن الغضب كسائر الغرائز في النفس البشرية، ضرورية للحياة الدنيوية، ولهذا قيل: (مَن استُغْضِبَ ولم يغْضَبْ فهو حِمارٌ)، ولكن الشرع أمر باستعمال الغضب في الوضع الذي ينبغي أن يُستعمل فيه، وبالمقدار الذي يحقق الغرض فَحسْبُ.

ولهذا لم يمدح سبحانه الذين لا يغضبون أصلاً! بل أثنى على الّذين يغضبون ولكن يغفرون، ومعنى هذا أَنهم يغضبون إذا ما تَطَلَّب الأمر، ولكن لا يتخذون الغضب ديدناً لهم، ولا يجاوزون به حَدَّه المطلوب، بل يغفرون بعد ذلك ـ أي بعد أن أدّى الغضب دوره وحقَّق الغرض ـ ويتسامحون.

١٧» المشورة في الأمور: الآية (٣٨) من (الشورى):

ومن الأخلاق الحسنة التي يتعامل بها المسلم مع الآخر، هو أنه لا يستبدُّ بالأمور، حتى الأمور الشخصية التي فيها مجال للتشاور، ولا ينفرد ولا يستغني برأيه، بل يشاور الآخرين ويستفيد من عقولهم وآرائهم.

والملاحظ أننا ذكرنا المشورة هنا، كَخُلقٍ حَسَنٍ من الأخلاق الشخصية التي يتعامل بها الشخص المسلم مع الآخرين، وسنذكرها أيضاً في الآداب الاجتماعية في الفصل الثالث من الكتاب العاشر، وكذلك سنذكرها في الكتاب الحادي عشر، عند حديثنا عن السياسة الدّاخلية للمجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية ـ بإذن الله ـ، وسبب ذلك هو أن الشورى قيمة أساسية عظيمة من قيم الإسلام، ولها ارتباطات شتّى بكافة جوانب الحياة الخلقية والإجتماعية والسياسية والفكرية والإدارية والإقتصادية... إلخ.

وأصل كلمة (الشورى) من (شار النَّحلُ العَسَلَ) إذا جمع أجزاءه وصنعه منها، أو من (شِرْتُ الدابّة أشورها) إذا اختبرتها وركّضتها، كي تعرفها، وتطّلع على أوصافها[1]، وكذلك الشورى والمشورة جمع للجيّد من آراء الآخرين وأفكارهم، واختبار لها، كي يُتَّخَذَ على أساسها الموقِفُ الصحيحُ السّديدُ، سواء كان على مستوى الفرد أو الجماعة.

١٨» الإنتصار عند التعرّض للبغي، وعدم الرضوخ للضّيم: الآية (٣٩) من (الشورى):

وعدم الخنوع والإستسلام للبغي بل الإنتصار وأخذ الثأر، خلق آخر من الأخلاق الحسنة والشيم الرفيعة التي يُحَلِّي بها المسلمُ نَفْسَه، في مجال تعامله مع الآخرين، والملاحظ أن سورة (الشورى) من السور المكية، وفي مكة لم يؤذن للمسلمين بقتال الكفار، وهذا يعني أَنَّ عَدَمَ قبول الضَّيْم والرضوخ للظلم والبغي، خصلة أساسية في الشخص المسلم، وليس مشروطاً ومقيّداً بحالَةِ القتال والحرب.

---

(١) مختار الصّحاح، ص٣١٢، لفظ: ش و ر.

ولكن يلاحظ: أنَّ الله تعالى في الآية التالية (٤٠) يشجِّع أهل الإيمان على العفو ويُحبِّذه لهم، بقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٠﴾ [الشورى]، فيبيِّن سبحانه وتعالى في هذه الآية أموراً أربعة:

أولاً: الإنتصار والإنتقام للمسلمين الذين يتعرَّضون للبغي، حقٌّ مشروعٌ لهم، ولكن ينبغي ألّا يتجاوزوا فيه حدود العدل، والذي عبّر عنه تعالى بقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ وذلك لأن المسلمين مأمورون بالعدل حتى مع الأعداء، وفي حالة العداء والخصام، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ ۝٨﴾ [المائدة].

إذن:

يجب على المسلم الذي يتعرَّض للإساءة والظلم من قبل الغير أن يردّ على الإساءة بمثلها وعلى الظلم بمثله، ولا يزيد فيقع هو أيضاً في الظلم والإساءة!، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ ۝١٢٦﴾ [النحل].

ثانياً: ولكن وان كان الإنتصار والإنتقام في حدوده، مشروعاً وعَدْلاً، فالعفو هو أولى وأحرى، لأن الإنتقام عدلٌ، والعفو فضلٌ! ولكن هل العفو في كل الحالات مأمور به أو مندوب إليه ومستحبٌ؟! كلاّ، والدليل عليه هو قوله تعالى بعد قوله: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ﴾ إذاً: يجب أن يُثْمِرَ العفوُ عن المسيء، الإصلاحَ والخَيْرَ، ففي هذه الحالة، يُحَبَّذ العفو والصفح، ولكن إذا كان العفو عن الجاني، بدل الإصلاح: أثْمَرَ الفسادَ وأدّى إلى ما هو شرّ وأسوأ، وذلك بأن يُفَسِّر المسيءُ الباغي، عَفْوَ العَفوِّ المتسامح: خَوْراً وجُبْناً، ثم يجرِّئه عفوه الكريم، على التمادي في الغيِّ والظلم والعدوان، مصداقاً لقول الشاعر:

وإذا أكرمت الكريم ملكته   وان أنت أكرمت اللئيم تمرّدا

ففي هذه الحالة، لا يكون العفو حسناً، بل ويكون سيئاً جداً، لأنه يصير معاونة للباغي العادي على بغيه وعدوانه، وبالتالي يصبح العفوُ بموقفه غير الحكيم هذا آثِماً، بسبب تعاونه مع الباغي على الإِثم والعدوان، وهذا محرَّم شرعاً، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة].

ثالثاً: وقوله تعالى: ﴿فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ يدل على أن العَفوَّ يجب ألّا يتوقّع في مقابل عفوه المؤدِّي إلى الإِصلاح، شيئاً من أحد، بل ينتظر أجر الله الجزيل فقط.

رابعاً: وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يدل على أنَّ العفو الذي يجرِّئ الظالم الباغي على ظلمه وبغيه، غير جائز، لأنه يقوِّي موقف الظالم الذي لا يحبه الله، بل الظالم مطرود من رحمة الله وملعون له، كما قال تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود].

وكذلك يدل على أنه لا يجوز للمنتصر المنتقم، أن يجاوز الحدود المَرْسومة، وهذا كما قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة]، وقال أيضاً: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة].

١٩» **أداء الأمانة:** الآية (٥٨) من (النساء):

وأداءُ الأمانة، كذلك من الأخلاق الحسنة والخصال النبيلة، التي يجب أن يتخلَّق بها المرء المسلم في تعامله مع الناس، والأمانة عكس الخيانة التي هي من أعظم الذنوب، وأقبح الصفات المذمومة.

٢٠» **أخذ العَفْو من الناس:** الآية (١٩٩) من (الأعراف):

من معاني كلمة (العَفْو) السّهل الميسور، أو الزائد عن الحاجة[1]، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ [البقرة].

---

(١) مختار الصِّحاح، ص٣٨٩، لفظ: ع ف ا.

والمقصود بقوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ [الأعراف]، أي خُذْ ما سَهُل وتيسَّر من أخلاق الناس، أي لا تكلِّفهم ما يصعب عليهم وما يشقّ عليهم، والمراد به: الرِّضى عن الناس بالقليل الذي يستسهلونه، وعدم الإِلحاح عليهم بما يُحْرِجهم، وليس المقصود بهذا الكلام هنا المال، بل المقصودُ الأمور المعنوية والإِجتماعية غير المالية.

٢١» **الإعراض عن الجاهلين:** الآية (١٩٩) من (الأعراف) والآية (٦٣) من (الفرقان):

الإعراض عن الجاهلين وعدم التنزل إلى مستواهم، خلق حسن آخر من الأخلاق المحمودة الَّتي يتخلّق بها المرءُ المسلم في حياته مع الناس، والذي يريد أن يواجه كلَّ جاهلٍ عليه بما يستحقه، هو كَمَنْ يريد أن يُلْقِم كلَّ كلبٍ نبح عليه حجراً، وهذا يكلِّفه كثيراً، بل لا يقدر عليه أصلاً.

وهذه الجملة الكريمة ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ في معنى الجملة المباركة الأخرى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان]، إذ معنى: ﴿قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾، إمّا هو: وقالوا قولاً ذا سلامة، أو قالوا لهم سلاماً، والمقصود به سلام متاركة وهَجْرٍ.

٢٢» **المشي على الأرض بوقار وسكينة:** الآية (٦٣) من (الفرقان):

وخلق فاضل آخر من أخلاق المسلم في تعامله مع الناس، هو المشي بسكينة ورزانة ووقار، عكس من يمشي بمرح واختيال واستكبار، وقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان]، هو في معنى قوله تعالى على لسان (لقمان) واعظاً ابنه: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ﴾ [لقمان].

٢٣» **الإعتدال والتوسط في الإنفاق والتصرّف في المال: الآية (٦٧) من (الفرقان)، والآية (٢٩) من (الإسراء):**

ومن الأخلاق الحسنة في المسلم، هو توسّطه واعتداله في التصرّف في ماله، بذلاً وإنفاقاً بين الإسراف والتقتير، والتَّبذير والبخل.

٢٤» القيام بأداءِ الشهادة: الآية (٣٣) من (المعارج)، والآية (٧٢) من (الفرقان):

ومن أخلاق المسلم الحسنة، أنه عندما يتطلب إِحقاقُ حق، أو إبطالُ باطلٍ، أداءَ الشهادةِ، يؤدِّي الشهادة على وجهها الشرعي، ويتجنَّب الكذب والزور في الشهادة.

٢٥» المرور باللَّغو مروراً كريماً: الآية (٧٢) من (الفرقان):

اللَّغو، هو كل ما لا يعتدُّ به، وما لا طائل تحته من فعل أو قول[1]، والمسلم جادّ، يَرْبأ بنفسه أن يضيع عمره فيما لا طائل تحته، ولا فائدة تُجْنىٰ منه.

وأصْلُ اللَّغو من (اللَّغا) وهو صوت العصافير.

٢٦» درءُ السيئة بالحسنة: الآية (٢٢) من (الرَّعد):

ودفع السيئة من قول أو فعل بالحسنة قولاً وفعلاً، بدل مجازاته بمثله (إلا إذا أوجبها الشرع) أيضاً من الأخلاق والشمائل التي يزيِّن بها المرءُ نَفْسَه، في مجال التعامل مع الآخرين، وهذا صعب جداً، ولا يتسنَّى إلا لمن يملكٍ سعة الصدر وكثيراً من الصبر، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فصلت].

٢٧ و٢٨» التواصي بالحق والتواصي بالصَّبر:

وخلقان حسنان مهمان آخران، من الأخلاق والآداب التي يتحلَّى بها المرء المسلم، هو قيامه بتوصيته الناس بالحق، وتوصيتهم بالصَّبر، والتوصية بالحق، تَشْمُلُ بيانَ كُلِّ ما هو حق وصواب للناس، وحَثِّهم على التمسّك به في كل نواحي حياتهم العَقدية والفكرية والخلقية والسياسية والإِجتماعية... إلخ.

---

(١) مختار الصحاح. ص٥١٨، لفظ: ل غ ا.

والمقصود بالتوصية بالصبر، هو تشجيع الناس وحضّهم على الصّبر والثبات والإستقامة، في قول وفعلٍ ما هو حق وصواب، ومعلوم أنّ ميزان تمييز الحق من الباطل، والصّواب من الخطأ، هو شريعة الله الحكيمة، وما يدل عليه العقل السليم والفطرة، هو أيضاً من ضمن ما تأمر به الشريعة، شريطة عدم اصطدامه بقطعيات الشريعة وبدائه العقل.

قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر].

٢٩ و٣٠» التعاون على البرّ والتقوى: الآية (٢) من (المائدة):

والتعاون مع الآخرين، لتحقيق كل ما هو (بِرٌّ) فيما بين النّاس، و(تقوى) فيما بين العبد والربّ جَلَّ جلاله، خلقان حسنان آخران، وهما في الوقت نفسه، قيمتان أجتماعيتان كُبْرَيان، سنشير إليهما لاحقاً، ونتحدّث عنهما في أكثر من موضع.

٣١ و٣٢» عدم الأسى على الخير الفائت، وعدم الفرح بالآتي: الآية (٢٣) من (الحديد):

وأرى أن الأسى هو أشدّ الأسف، والفرح هو أشدُّ السرور[١]، وإنما يكون سرور المسلم الحقيقي (أي فرحه) وأساه (أي شدّة أسفه) على كلِّ ما يتعلق بالله وبدينه وبالآخرة، وليس للأَضرار والمنافع، الدنيوية الصّغيرة التافهة، وإلّا فالإنسان يُسَرُّ بالمنافع، ويأسف للمضار قليلاً أو كثيراً.

٣٣» السرور بتحقق مصلحة إخوته في الدين: الآية (٩) من (الحشر):

وذلك لأن المقصود بقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾ أي لا يَطْمَعون فيما يؤتاه إخوتهم في الدين،

(١) وذلك استنتاجاً منّي من استعمال القرآن لهما في هذا السياق، وإلّا فأهل اللغة يُفسّرون (الأَسى) بالحزن، و(الفرح) بالسرور.

ولا يحسدونهم عليه، وذلك لأنهم يعتبرون مصلحة إخوتهم كمصلحتهم الخاصة بهم.

٣٤» الإيثار مع شدّة الحاجة: الآية (٩) من (الحشر):

والإيثار هو تقديم الغير على النفس وتفضيله، والإيثار من أرفع وأعظم الخلق مطلقاً، فكيف إذا كان في وقت شدّة الحاجة!: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾، والخصاصة هي شدّة الحاجة[1].

٣٥» السعي لنقاء القلب وطهارته من الغِل تجاه أهل الإيمان: الآية (١٠) من (الحشر):

والغِلّ هو الحقد والبغض الدفين[2]، ودعاءِ المسلم ربّه ألّا يجعل في قلبه غِلاًّ لأهل الإيمان السابقين، سعي منه لبقاء قلبه نقياً وطاهراً تجاههم، والغِلُّ تجاه كل المسلمين المؤمنين ذنب عظيم، ولكن تجاه المؤمنين السابقين علينا بالإيمان والطاعة، أعظم وأشنع، وواضح أن الصحابة ﷺ هم في مقدّمة أهل الإيمان السابقين علينا عموماً، وخصوصاً ﴿وَالسَّٰبِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَٰجِرِينَ وَالْأَنصَارِ﴾ [التوبة]، منهم، ﷺ وأرضاهم وجزاهم عنّا أعظم الجزاء وأَجْزَلَهُ.

٣٦ و٣٧» الدعوة للخير، والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر: الآية (١٠٤) من (آل عمران):

والمرءُ المسلم داع للخير دَوْماً، ويَسْعى جهده لتثبيت المعروف والترويج له، وإزالة المنكر وتغييره، وكلمة (الخير) تشمل كل ما هو خيرٌ وصلاح للناس، والإسلام مما يشمله مفهوم كلمة (الخير) لأنه اشتمل على كل ما هو خير ونافع للبشرية، ولكن مفهوم كلمة الخير أوسع مدىً، إذْ قد

---

(١) مختار الصِّحاح، ص١٦٧، لفظ: خ ص ص.

(٢) مختار الصِّحاح، ص٤١٩، لفظ: غ ل ل.

يوجد خيرٌ لم يأمر به الإسلامُ نصاً، وان استلزمَهُ فحوىً وروحاً، وكذلك كلمتا (المعروف) و(المنكر) تشمل الأولى منهما: جميعَ ما هو حسن ونافع شرعاً وعقلاً، والثانيةُ: كلَّ ما هو سيء وضار فطرة وشريعة، وسنفصل القول في (الدعوة) في الفصل الثاني، من الكتاب الحادي عشر، وفي (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) في الفصل الثالث من الكتاب العاشر بإذن الله.

٣٨» عِفَّة النفس تجاه المال: الآية (٢٧٣) من (البقرة):

التعفّف (تَفعُّل) من العِفَّة، أي حمل النفس على العفّة[1] والنزاهة في مجال المال، وعدم مدّ العين بَلْهَ اليَدِ إلى أموال الناس وثرواتهم، ومعلوم أنه لا يتسنّى للإنسان أن يتخلّقَ بهذا الخلق الرفيع، إلا اذا عرف الدنيا على حقيقتها، واتصف بالقناعة التي هي كنز لا يَنْفدُ.

٣٩ و٤٠» التواضع، والهدوء: الآيتان (١٨ و١٩) من (لقمان).

التواضع ولين الجانب، والهدوء وعدم رفع الصوت والصياح، أيضاً من الأخلاق الحسنة التي يجب على المرء المسلم، أن يتحلّى بها في مجال تعامله مع الناس، وإنما عبّرنا عن قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ﴾ [لقمان]، بالتواضع، لأن صَعْرَ الخدِّ وليَّ العُنُقِ مع الناس، ليس إلّا من تصرّفات المتكبِّرين، وواضح أن النهي عن شيءٍ، أمرٌ بضدِّهِ، فإذا قلت لأحد الناس: لا تستعجلْ! فمعناه: تأنَّ واْصبِرْ!

وكذلك عبّرْنا عن قوله تعالى: ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ [لقمان] بالهدوء، لأن الهدوء عكس رفع الصوت والصياح.

وقال رسول الله ﷺ عن التواضع: **«وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لله إِلَّا رَفَعَهُ الله» رَوَاهُ مُسْلِمٌ برقم:** (٥٥٥)، وعندما رفع بعض الصحابة صوتهم بالدعاءِ قال: **«يَا أَيُّهَا النَّاسُ، ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَم وَلَا غَائِباً، إِنَّهُ مَعَكُمْ، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ: الْبُخَارِيُّ برقم: (٦٣٨٤)، وَمُسْلِمٌ برقم: (٢٧٠٤).**

---

(١) مختار الصِّحاح، ص٣٨٩، لفظ: ع ف ف.

٤١ و٤٢» **اللين والرفق وطيب الكلام:** الآية (١٥٩) من (آل عمران):

المؤمن لين رفيق مع الناس، وبشوشُ الوجه طيِّب الكلام معهم، وذلك اقتداءً برسول الله ﷺ الذي وصفه الله تعالى بقوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ﴾ [آل عمران]، واللين والرفق قريبا المعنى جداً، وقال رسول الله ﷺ عن الرفق: «**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّهِ» أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ برقم: (٥٦٧٨)**، وأما البشاشة وطيب الكلام فَهُما عكس (الفظاظة) التي نفاها الله تعالى عن رسوله، لأن (الفظّ) هو الذي يكلِّم الناس بتجهّم وقساوة، وهذا هو معنى الفظاظة[١].

٤٣ و٤٤» **الشفقة، والحِلْم:** الآية (١١٤) من (التوبة):

والشفقة على الناس والحِلْم عنهم، كذلك كلاهما من الأخلاق النبيلة، والخصال الرَّفيعة التي يتصف بها المرءُ المسلم، وإنما فسَّرنا (الأوّاه) بالشفيق، لأنَّ الأوّاه هو كثير التأوّه والتحسّر على الناس من جرّاء ما تعرَّضون له من ضُرٍّ وسوء، إشفاقاً عليهم ورأفة بهم، وفي معنى هذا قوله تعالى لرسولِهِ الخاتم ونبيِّه الأعظم (محمد) ﷺ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾ [الكهف]، وقوله: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [الشعراء]، أي لعلك تُهْلِكُ نفسك من جرّاء حزنك واغتمامك عليهم، لكونهم لا يؤمنون، وهذا عتاب لطيف له ﷺ لمبالغته في الشفقة على الكفار، وحزنه على عدم إيمانهم.

والحِلْم هو الهدوء والرزانة والإتزان، خصوصاً عند التعرّض لجهل الجاهلين، وهو قريبُ المعنى من الأَناة[٢]، ولهذا قَرَن رسول الله ﷺ بينهما

---

(١) مختار الصحاح، ص٤٤٢، لفظ: ف ظ ظ.

(٢) مختار الصِّحاح، ص١٤٥، لفظ: ح ل م، وقد جعل الرازي كلمتي: الحِلم والأَناة مترادفتين، ولكن هذا ليس دقيقاً، بل الصحيح أن الحِلم ضد سرعة الغضب، والأَناة ضدّ الإستعجال، أي الحلم صفة نفسية باطنية، والأناة صفة عملية ظاهرية.

في قوله لِأَشَجِّ عَبْد القَيْس: «**إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا الله: الْحِلْمُ وَالأَنَاةُ**» **رَوَاهُ مُسْلِمٌ** برقم: **(١٢٦) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** رضي الله عنهما.

٤٥» الإنصاف أو عدم بَخْسِ الناس أشياءهم: الآية (١٨٣) من (الشعراء):

وقد قيل (الإنصاف خير الأوصاف)، والقصد في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ [الشعراء]، عام يشمل كل الأشياء المتعلقة بالناس، سواء في مجال أوصافهم الشخصية، أو ممتلكاتهم المادية، أو أهليهم... إلخ، والبَخْسُ هو النقص والتقليل من شأن الشيءِ[(١)]، وفي معنى هذا قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾ [المطففين]، وان كان مقصود هاتين الآيتين أقرب إلى الأمور المادية.

٤٦» الإستماع لكلام الآخرين، واختيار أحسن ما فيه وَتَبَنِّيه: الآيتان (١٧، ١٨) من (الزُّمر):

كذلك الإستماع لآراء الآخرين وأفكارهم، ثم انتقاءِ أفْضَل ما فيها وتبنّيها، من الأخلاق الحسنة والشيم الممتازة للمرء المسلم، إذ المسلم، منفتح على الآخرين، وليس منغلقاً على ذاته، وذلك لأن التقوقع على الذات من ديدن الّذين يتخوّفون من أفكار الآخرين وآرائهم، ولكن المسلم ليس كذلك، وذلك لأسبابٍ ثلاثة:

أولاً: هو على يقين بأنّ دينه مشتمل على الحق المطلق الذي يلتقي مع كل ما هو حق وصواب عند الآخرين، كما قال تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ۝٧٩﴾ [النمل]، ومن يمتلك الميزان الدقيق الصحيح، لا يخاف من وزن الأشياء، كما أن الذي يملك الغِرْبالَ، يمكنه أن يُغَرْبِلَ الأشياء!

ثانياً: علّمه دينه أن يكون متّبعاً للدليل والبرهان، وليس لعادات الناس

(١) مختار الصحاح، ص٥٠، لفظ: ب خ س.

وعوائد الزّمان، لذا فهو يرى التقاط الحكمة والآراء الصحيحة والأفكار النافعة، من أي وعاء خرجت، إحدى وظائفه الشرعية، كما جاء في الأثر: **«الحِكْمَةُ ضَالَّةُ المُؤمِنِ، فَحَيث ما وَجدها فَهَوُ أَحَقُّ بِهَا»**، ومن القواعد الحكيمة التي اتفق عليها علماء الإسلام في هذا المجال، هو قولهم: **(أنظر إلى ما قيل، ولا تنظر إلى من قال)**.

ثالثاً: والمسلم في الوقت الذي يعتبر دينه الحق المطلق الذي لا يشوبه شَوبُ الباطل، ينظر إلى نفسه وغيره - سوى الأنبياء المحفوظين المؤيّدين بالوحي - بأنه إنسان قابل للخطأ والصّواب، لذا فهو في مجال الآراء والأفكار الصادرة من البشر، متّسع الصّدر ومتسامح جداً، ويعمل في هذا المجال، وفق القاعدة الذهبية التي تنسب للشافعي رحمه الله تعالى: **(رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصّواب)**.

٤٧» **صدق الوعد:** الآية (٥٤) من (مريم):

والمسلم لا يَعِدُ وعداً إلا ويصدِّقه بالفعل، وذلك لأنَّ الكذب قبيح في كل الأحيان، ولكن في مجال الوعود والعهود أقبح وأشنع، ونقض العهد وإِخلافُ الوعد، إذا ما تفشيا في مجتمع، يجعلان الناس لا يثق بعضهم ببعض، وانعدام الثقة بين أفراد مجتمع، يجعل المجتمع مفكّك الأوصال ومائلاً إلى الزوال.

٤٨ و٤٩» **الثبات ورباطة الجأش عند سماع تهديد الأعداء، وعند مواجهة الشدائد:** الآية (١٧٣) من (آل عمران)، والآية (٢٢) من (الأحزاب):

وكذلك الثبّاتُ والجرأة والعزم ورباطة الجأش، عند سماع تهديد الأعداء ووعيدهم، وعند مواجهة الظروف الصعبة والأزمات، أيضاً من الشيم الرفيعة والأخلاق النبيلة التي يزيّن بها المرءُ المسلمُ نفْسَه في مجال التعامل، وهاتان الخصلتان، وان كانتان مرتبطتين بالقتال وحالة الحرب، ولكن المسلم بقدر ما هو رجل سلمٍ وسلام، كذلك هو رجل حرب وقتال، إذا ما تطلب الأمر ذلك.

٥٠» الحوار الهادىء، فإن كان لا بدّ من الجدال، فبالتي هي أحسن: الآية (١٥٢) من (النحل):

ومن الأخلاق الحسنة والشيم الرفيعة في المسلم، أنه يفضل الحوار الهادىء الرصين في الكلام مع الآخرين حول القضايا المختلف فيها، ولا يلجأ إلى الجدال إلا إذا اضطُرَّ إليه، وإذا ما اضطرَّ إليه، يديره بالطريقة التي هي أحسن من كل وجه.

وبما أننا سنتحدَّث عن مسألتي الحوار والجدال، في الكتاب الحادي عشر، وعند الكلام عند الدعوة، فَنُرْجيء الخوض في تفاصيلهما إلى هناك بإذن الله.

٥١ و٥٢» التحدّث للناس بما هو حسن فحسب، واختيار أفضلُ الأساليب التعبيرية عند مخاطبتهم، تجنُّباً للخصام والإصطدام: الآية (٨٣) من (البقرة)، والآية (٥٣) من (الإسراء):

بما أن المسلم محسن، فهو لا يعرف إلا الكلام الحسن النافع ـ عند مخاطبته مع الناس ـ، وكذلك هو مستعمل لأفضل الأساليب التعبيرية، وأجمل الجمل والكلمات، فهو يقول ما هو حسن أو أحسن، ويسلك لإيصال أفكاره للناس، أحسن المسالك وأفضل الأساليب.



الأخلاق والسلوكيات التي تَجِبُ مراعاتها في مجال العلاقات بين الجنسين:

من الواضح أنَّ كلَّ ما مرَّ ذكره من الأخلاق والفضائل، يستوي فيه الجنسان، ولهذا استعملنا لفظ (المسلم) أو (المرء المسلم) الشاملين لكليهما، والأخلاق السابقة ليست مُخْتَصَّةً بمجال دون آخر، بل عامة في المجالات كلها، ولكن هناك فضائل وسلوكيات خاصة بمجال العلاقة بين الرّجال والنساء، وقد أحصينا منها هنا: اثني عشر خلقاً، الثلاثة الأُولى منها مشتركة بين الرجال والنساء، والتسعة الباقية مختصة بالنساء.

٥٣ و٥٤» الغَضُّ من البصر وحفظ الفرج: الآيتان (٣٠ و٣١) من (النور):

الغَضّ هو الخَفْضُ والنقص[١]، والمقصود بقوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ [النور] و﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ﴾ [النور]، هو مواظبة كل من الرجال والنساء لكيفية نظر بعضهم إلى بعض، وذلك لأن النظر بشهوة حَرامٌ، لِذا يجب الغضُّ من نظر البصر، سواء نظر الرجال إلى النساء، أو النساء للرجال.

وبما أن النظرةَ المحرَّمة، هي مقدِّمة أَوَّلِيَّةٌ للزِّنى، لِذا بدأ الله تعالى بها، ثم ذكر حفظ الفرج، الذي لا يتسنّى إلّا لمن احتاط لنفسه منذ البداية، وغَضَّ بَصَرَه عن النظرة المحرَّمة.

٥٥» الإستغفاف لمن لم يتمكن من الزواج: الآية (٣٣) من (النور):

والإستعفاف مبالغة من الإعفاف، أي جعل النفس عفيفة وحملها على العِفَّة، والعِفَّة تعني النَّزاهة والطهارة من الناحية الجنسية وغيرها[٢].

وإعفاف النفس يتم بوسائل كثيرة، أوَّلُها: تقوية الإيمان والتقوى، وتوثيق الصِّلة بالله تعالى، من خلال الطاعة والعبادة المتعدِّدة الأنواع والأشكال، وقد خَصَّ رسولُ الله الحكيم ﷺ الصيام بالذكر في هذا

---

(١) مختار الصِّحاح، ص٤١٦، لفظ: غ ض ض.

(٢) المصدر السابق، ص٣٨٩، لفظ: ع ف ف. (عَفَّ يَعِفُّ عن الحرام بالكسر، عِفَّةً وعَفّاً وعفافةً أي: كفّ).

المجال، فقال: «**يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ! مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ، فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ: رَوَاهُ البُخَارِيُّ برقم: (٥٠٦٥)، وَمُسْلِمٌ برقم: (١٤٠٠).

والوجاء هو الإخصاء، والمقصود به هو أن الصَّوم مُذهِب للشهوة كما يُذهِبُها الإخْصاء[١].

وواضح أن إعفاف النفس واجب على الجِنْسَيْن، وان كان الخطاب موجَّهاً في الآية الكريمة للرجال، وذلك لأن الرجال عادة هم الَّذين يبادرون في قضية الزواج وليست النساء.

٥٦» عدم إبداء المرأة زينتها، إلاّ ما يظهر من بدنها عادة وعبادة: الآية (٣١) من (النور):

من أخلاق وسلوكيات المرأة المسلمة التي أمرها الله تعالى بها: عَدَمُ إظهار زينتها وجمالها النِّسوي المثير والمحرِّك لغرائز الرِّجال، ولا يتم ذلك إلّا بستر بدنها بلباس سابغ للجسم، صفيق لا يَشِفُّ عما تحته، وفَضْفاض لا يَصِفُ ولا يُجَسِّم الأعضَاءَ، وغير جذّاب، وغير معطَّر، يجذب الأنظار بجاذبيته، ويُزْكِمُ الأنوف بريحه!

ولكن ما يظهر من بدنها عادة وعبادة (في الصلاة وفي الحج يجب على المرأة إظهارُ وجهها وكَفَّيها إلى رُسْغَيْها) مستثنىً من السَّترِ، إذ من المحرجِ للمرأة، أن تُخْفِي وَجْهَها ويَدَيْها عند مزاولتها لمختلف النشاطات والأعمال التي أوجبها عليها الشرع، أو أباحها لها.

وهذا هو رأي الأكثرية المطلقة من المفسِّرين في تفسير هذه الجملة القرآنية، كذلك هو رأي جمهور العلماء من المحدِّثين والفقهاءِ وغيرهم، وهو الرأي الذي عُمِلَ به في زمن الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين، كما هو واضح في السنة والسيرة النبوية والخلافة الراشدة[٢].

---

(١) المصباح المنير، للفيومي، ص٣٣٥.
(٢) بيَّنتُ هذه المسألة بأدلَّتها في كتابي: (المرأة والأسرة في ظلال الشريعة).

ولولا أن للمرأة إظهار وجهها ويديها، لما كان للأمر بالرِّجال من غضِّ البصر، وجهٌ! ولكن كما أن وجوه الرجال مكشوفة، لِذا أمر النساء بالغض من أبصارهن تجاههم، كذلك لا يُلْزَمُ النساء بتغطية وجوههن، فلذا أمر الرجال بعدم النظر إليهنَّ بشهوة.

وهذا لا يعني أن النساءَ إذا احتطن ـ خصوصاً عند خوفهن الفتنة بهنَّ ـ وتنقَّبْنَ، قد أتين شيئاً مُنكراً، بَلْ أحسنَّ إذْ احتطن لأنفسهن، ولكن أيضاً من لم تَسْتُرْ وجهها ويديها، ليس عليها عتاب، طالما أن الشرع رَخَّصَ لها، ولكن من الواضح أن إظهار الوجه واليدين الطبيعيين شيء، والتَصنّع والتكلّف في التجمّل والتزيّن شيء آخر، ومن استغلَّ رُخَصَ الشرع ومباحاته للتوصّل بها إلى ما هو حرام وإِثم، فله حكم آخر.

٥٧» تغطية المرأة شق قميصها وعنقها بخمارها: الآية (٣١) من (النور):

(الخُمُر) جمع (خِمار) والخمار ما تغطي به المرأة رأسها كُلَّه، وهو ما يسمَّى الآن بالربطة، والمفروض على المرأة المسلمة أن تُغطيَ رأْسَها، وذَوائبَ شَعْرِها وعُنُقَها، وشِقَّ قميصها الذي تُخْرِجُ منه ثديها لإرضاع رضيعها، بخمارها، إذ الجيوب جمع (جَيْب) وهو شق القميص، أو الثوب السابغ للبدن[1].

والمرأة المسلمة تستر جسمها ـ الذي هو كله عورة سوى ما استثني منه وهو الوجه واليدان، أيَ الكَفَّيْن إلى الرُسغين ـ من الرجال قاطبة، سوى زوجها ومحارمها.

٥٨» عدم ضرب المرأة رجلها بالأرض، أو المشي بكيفية تُظْهرُ زينتَها المخفيّة: الآية (٣١) من (النور):

وأدب رفيع آخر من الآداب والسلوكيات التي تتخلَّقُ بها المرأة المسلمة، هو عدم تعمُّدها إظهارَ زينتها المخفية الصناعية والخَلقْية، بسبب ضرب رجلها بالأرض عند المشي، أو أية مِشْية مثيرة للشهوة، ومسبِّبة للفتنة بها.

(١) المصباح المنير، ص٦٤، (جَيْبُ القميص ما يَنْفَتِحُ على النَّحْرِ والجَمْعُ: أَجياب، وجُيوب).

٥٩» تَلَفُّف المرأة بثوب سابغٍ فوق ثيابها احتشاماً: الآية (٥٩) من (الأحزاب):

وهذا أَدَب وخُلُقٌ آخر من الآداب والأخلاق اللازمة للمرأة المسلمة في مجال التعامل مع الآخرين، خارج نطاق بيت الزوجية.

والجلابيب جمع (جِلْباب) والجلباب هو: الثوب الذي تُغطي به المرأة جِسْمَها فوق ثيابها، ونوعية هذا النوع من اللباس تختلف باختلاف الشعوب والمجتمعات، ولكن وصفه العام هو: ما تُغَطِّي به المرأة جِسْمَها فوق ثيابها[1].

وقد علَّل سبحانه وتعالى التَّجَلْبُبَ للمرأة المسلمة، بقوله: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ [الأحزاب]، أي: إن لبس النساءِ المسلمات الجلابيب، أقرب إلى أن يُعْرَفْنَ في المجتمع، بأنهن كريمات محتشمات، فلا يطمع فيهنَّ أحدٌ بسوء أصلاً، بسبب مظهرهنَّ المحتشم.

٦٠ و٦١» عدم الخضوع والتغنُّج في الحديث، والكلام بما هو حسن شرعاً وعقلاً: الآية (٣٢) من (الأحزاب):

والمقصود بقوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾ [الأحزاب]، أي لا تُرَقِّقْنَ الكلام ولا تَكلَّمن بغنج ودلال، وعلَّل ذلك ربُّنا الحكيم بقوله: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ أي الشهوة، أو النفاق والكفر.

والمراد بكلمة (معروفاً) في قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ أي: لا تتحدَّثن إلا في المواضيع التي يجمل بالنساء الكلام فيها شرعاً وعقلاً وعرفاً، وبهذا نهى سبحانه وتعالى عن كل من الشكل والمحتوى، أو الأسلوب والموضوع، غير اللائق والمثير للشهوة والفتنة.

---

(١) مختار الصِّحاح، ص١٠٦، لفظ: ج ل ب (الجلباب: المِلْحفَة والجمع الجلابيب). وانظر: ص٥١٢، لفظ: ل ح ف (التحف بالثوب: تَغَطى به، واللِّحاف ما يُلتحف به، وكلّ شيء تَغَطَّيت به فقد التَحَفْتَ به).

والآية وان كانت من ضمن آيات كلّها خطاب موجّه لأمهات المؤمنين أزواج النبي الطاهرات رضي الله عنهن، ولكن الحكم شامل لكافة النساء، بل والنساء الأخريات أولى وأحرى، بأن يوجَّه إليهن هذا الخطاب، ولكن الله تعالى كما خاطب الأمة كثيراً من خلال النبي، كذلك خاطب نساء الأمة من خلال أمهات المؤمنين، اهتماماً بشأنهن الرفيع، وتنبيهاً على فضلهن وسمّو مقامهن الذي أهّلهنّ، بأن يكنّ مخاطباتٍ لله تعالى مباشرة!

٦٢ و٦٣» الإستقرار في البيت، وعدم التَبرُّج كالتَبرُّج الجاهلي: الآية (٣٣) من [الأحزاب]:

وكذلك اتخاذ المرأة المُسْلِمة بيتها مكانَ إقامتها واستقرارها، ثم إذا ما خرجت لِأداء نشاط يتطلب منها خُروجَها، عدم تبرُّجها وإظهارها لزينتها، كعادة النساء في عصر الجاهلية الأولى، أدبان وخُلُقان من الأخلاق والآداب الإسلامية الرفيعة التي ينبغي لها أن تراعيها وتلتزم بها.

وهذه الآية كسابقتها تخاطب أمهات المؤمنين رضي الله عنهن، ولكن الأمة ونساءَها أيضاً مقصودة بالخطاب الموجّه إلى أمهات المؤمنين.

ومما يجدر ذكره هنا هو: أن المقصود بقوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب]، ليس حبْس النفس بين الجدران الأربعة للبيت، بحيث لا تخرج المرأة من بيتها إلا إذا أخرجت جنازتها للقبر، كما يتصور بعض الجهلة! بل المقصود هو أن يكون البيت الزوجي، هو مكان إقامة المرأة واستقرارها كالقاعدة، ولكن هذا لا يتنافى مع خروج المرأة من بيتها لأداءِ وظائف شرعية خارج البيت، وخروج النساء في زمن الرسول ﷺ إلى الحج والعمرة وصلاة الجمعة والعيدين والإِستسقاء، بل ولصلاة الجماعة للصلوات الخمس المكتوبة، وأيضاً للغزوات ولِشراء حوائجهن في السوق... إلخ، أوضح برهان على أن المقصود بالآية الكريمة، ليس عدم خروج النساء المسلمات مطلقاً من البيت، بل والجملة التالية لقوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ وهي: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾، نفسها دليلٌ واضح على المطلوب، وذلك لأن النهي عن التبرّج، يكون عديم الجدوى لو لم

يكن خروج النساء من بيوتهن مسموحاً ﻫ، إذ التبرُّج المَنهيُّ عنه، لا يكون داخل البيت بل خارجه، إذاً: قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ يُحَدِّدُ مكان إقامة المرأة الطبيعي وهو بَيْتُها، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ﴾ يُبيِّن كيفية خروج المرأة من بيتها لأداء وظائفها الشرعية، وهي أن تخرج محتشمة رزينة حصينة، لَا مبتذلة متبرِّجة فاتنة!

٦٤» **التخلُّق بالحياء والحشمة في كافة التصرُّفات:** الآية (٢٥) من (القصص):

وكذلك الإِتصاف والتخلُّق بالحياء والإِحتشام، من الآداب والأخلاق الواجبة التي يجب على المرأة المسلمة أن تُحلِّي بها نفسها في كافة أحوالها وفي جميع تصرّفاتها، وذلك لأن الله تعالى وصف إحدى ابنتي ذلك الرجل الصالح الذي أصبح فيما بعد ختن[1] موسى عليه السلام، بتزويجه إحدى ابنتيه منه، بالحياء عند مجيئها إلى موسى عليه السلام: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ [القصص]، ومعلوم أن الحياء خلق فاضل في الرجال والنساء جميعاً، كما قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ الأُولَى: إِذَا لَمْ تَسْتَحِ، فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ**» أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ برقم: (٦١٢٠)، وَقَالَ: «**الْحَيَاءُ لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ: الْبُخَارِيُّ برقم: (٦١١٨)، ومُسْلِمٌ برقم: (٣٧)، ولكن لا شك أن الحياء من النساء أجمل، وبهن أجدر وأليق، وهن إليه أحوج.

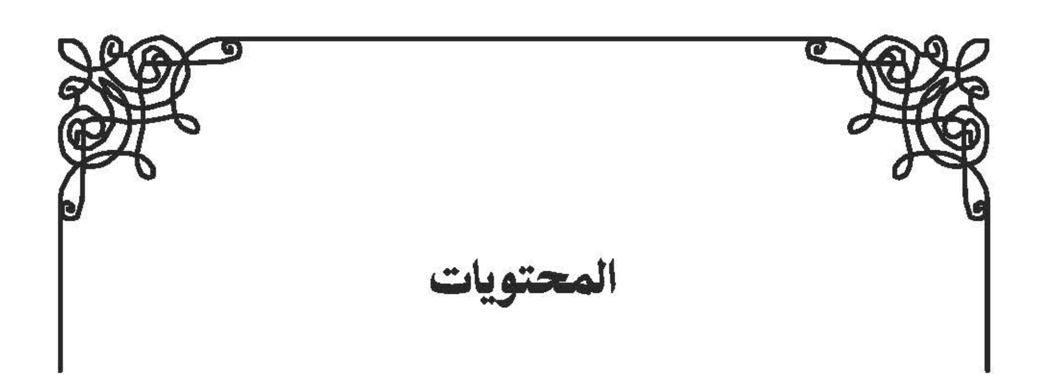
وبهذا ننهي الفصل الخامس والأخير من الكتاب التاسع من هذه الموسوعة.

والحمد لله أولاً وآخراً وباطناً وظاهراً

الثلاثاء ٢٠٠٤/٦/٢٢

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) الخَتَنُ: أبو المرأة. المصباح المنير للفيومي، ص٨٨.



المحتويات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑



MediaAmeerOffice
له تۆڕە کۆمەڵایەتییەکان لەگەڵتانین
Stay in touch on social media
نحن معكم عبر مواقع التواصل الاجتماعي
AliBapir/عەلی باپیر
AliBapirw/عەلی باپیر
AliBapir1
archive.org/details/@alibapir
AliBapir/عەلی باپیر
AliBapir
AliBapir / عەلی باپیر
www.alibapir.net
عربي - كوردی - English
ڕاگەیاندنی مەکتەبی ئەمیر